جامعة الأزهر



مجلة
كلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

العدد الحادى عشر

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

جامعة الأزهر



مجلة كلية اللغة العربية

بإيتاي البارود

العدد الحادى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

"وإنهُ لتنزيلُ ربِّ العالمينَ * نزلَ بهِ الروحُ الأمينُ * على قلبكَ لتكونَ منَ المنذرينَ * بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ" *

صدق الله العظيم

سورة الشعراء

١٩٢ - ١٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين - سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

وبعد ،،

فهذا هو عدد المجلة السنوى الذى تصدره كلية اللغة العربية بإيتاى البارود ، لتعبر به عن الحياة العلمية البحثية لأعضاء هيئة التدريس بها ، فى فروع اللغة العربية المختلفة.

وقد اشتمل هذا العدد - كعادة المجلة فى أعدادها المختلفة - على بحوث جادة وجيدة من السادة الأعضاء فى مختلف فروع اللغة، مابين أدب وبلاغة ونحو وأصول لغة وتراجم.

وتبدأ هذه البحوث ببحث بعنوان: "نظرات فى الطباق القرآنى" للأستاذ الدكتور صباح عبد العزيز دراز ، رئيس قسم البلاغة والنقد ووكيل الكلية - وهى دراسة أدبية بلاغية نقدية ممتازة، أهدى بها صاحبها إلى المجلة والبحث العلمى بحثا جديدا فذا ، قدم فيه رؤية خاصة لموضوع الطباق فى القرآن الكريم.

ثم يجى بحث بعنوان :" توجيهات أبى جعفر النحاس النحوية والتصريفية من خلال إعراب القرآن للدكتور أحمد محمد السعيد نافع الأستاذ المساعد بقسم اللغويات بالكلية.

«والنحاس» وهو لقب أبى جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادى المصرى، المتوفى سنة ٣٣٨هـ - من أساطين الدراسات النحوية، حتى ليقترن اسمه «بالزجاج وابن كيسان ونفطوية»، وله

مـؤلفـات مـتنوعـة فى النحـو واللغـة والأدب والحديث والفـقـه، ومن أهمهـا : «إعـراب القـرآن» ، وهو موضوع بحث الدكتـور أحـمـد نافع، فكتـاب «إعـراب القـرآن» للنحـاس - من أعظم الكتب التى درست النحو العربى بمدارسها المختلفة، فى ضوء القرآن الكريم وإعرابه.

وثالث بحـوث هذا العـدد هو البحث المعنون: "من آثار العـاميـة فى العـربيـة وأبنائهـا للدكـتـور أبو السعـود أحـمـد الفـخرانى الأستـاذ المساعد بقسم أصول اللغة بالكلية.

ويتحدث فيه الدكتور أبو السعود عن تفشى الضعف فى لغتنا الجميلة، داخل دور العلم وخارجهـا ، وعلى ألسنة كثـير من المثـقفين وبعض المتخصصين فى اللغة ذاتها ، ذاكرا بعض أسباب هذا الضعف، لأن المقـام لايتـسع لذكـرها كلهـا. وخص بالحـديث فى هذا البـحث - العامية من حيث أثرها فى الفصحى، مشيرا الى استعمالها الطاغى على لغـة الضـاد فى قـاعـات الدرس حـتى الجـامـعـة، وفى البـيت والمجتمع، وعبر وسائل الاعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

والبحث الرابع بعنوان: «اتجاهات فنية فى أسلوب الرسالة بين الخـوارزمى وبديع الزمـان » للدكـتـور السـيـد دياب يوسف دويدار ، المدرس بقسم الأدب والنقد بالكليـة. والبحث دراسة أدبية نقدية جادة لأسلوب الرسـالة عند الأديبين العبـاسـيين الكبـيـرين: «الخـوارزمى والهـمـذانى» تكشف عن أهمـيـة فن الرسـالة فى الأعـمـال الأدبيـة، وتصف الاتجـاهات الفنيـة فى أسلوب الأديبين الكبـيـرين فى معـالجـة هذا الفن.

وأما البحث الخامس فهو الذى عنوانه: "رثاء الآثار الطولونية الزائلة" للدكتور طه عبد الحميد زيد المدرس بقسم الأدب بالكلية، وهى دراسة تعتمد فى كثير منها على مخطوطات لم تحقق، مما حمل الباحث عبء البحث والتنقيب فيها، ولكنه بلغ فى النهاية بجهده ما أراده من كشف عن نفائس شعر الرثاء لآثار الدولة الطولونية الزائلة.

والبحث السادس هو ما عنوانه : "الإسلام فى شعر خليل مطران" للدكتور سالم عواد السيد حشيش، المدرس بقسم الأدب والنقد بالكلية. والبحث دراسة أدبية فنيه اجتماعية نقدية لشعر الشاعر، أراد الباحث به أن يكون ردا على المدعين بمعاداة الإسلام لذوى الديانات الأخرى - ودحضا للفتنة الطائفية التى تشتعل بين الحين والحين فى مصر، فالشاعر «خليل مطران» مسيحى ، وهو فى شعره يدافع عن سماحة الإسلام ومبادئه وقيمه السامية، وهل هنالك أبلغ فى الرد على أولئك المدعين من شهادة «خليل مطران»، وهو من هو فى شعراء العصر الحديث؟!

والبحث السابع والأخير بحث بعنوان : «شرح المصطلح النحوى ورأى فى ظاهرة الجزم فى اللغة العربية» للدكتور جمال الدين محمد حماد شحاته، المدرس بقسم اللغويات بالكلية. وهى دراسة قصد الباحث فيها أن يلفت النظر إلى أهمية شرح المصطلح فى علوم اللغة، وبخاصة فى علم النحو، مذيلا هذه الدراسة ببحث مسهب فى معنى الجزم فى اللغة العربية، لتتضح به ظاهرة من الظواهر التى اختصت بها لغتنا العربية.

وفى مقدمة بحوث هذا العدد من المجلة تجيء "وقفة لى مع النفس" .. وقفة عجلى فرضتها ظروف انتقالى من عملى الفنى الإدارى إلى عملى الفنى البحت. استعرضت فيها دورى فى العلم والعمل والأدب منذ نشأت، داعيا الله تعالى أن يظل الأزهر منارة للخير تهدى، وحصنا للعلم يحمى، وركيزة فى الدين والأخلاق تعتمد عليها مصرنا وأمتنا العربية والاسلامية الى يوم الدين.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير،،،

د. محمود السمان

عميد الكلية

وقفة مع النفس

للأستاذ الدكتور
محمود على السمان
عميد الكلية

قبل أن أترك موقعي في العمل الإداري عميداً للكلية ، بعد تسع سنوات متواصلة، إلى العمل العلمي الخالص متفرغاً ، في الثاني عشر من سبتمبر هذاالعام- أحب أن أقف مع النفس وقفة أراجع فيها باختصار شديد رحلتي العلمية والعملية، منذ نشأت وحتى الآن ، قبل أن أستعرض نشاطي الأدبي الذي أتمنى أن أجد الوقت والجهد بعد تفرغي لمواصلته .

وماكان لي أن أكتب هذا المقال لولا أن أحد أبنائي الأعزاء الذي يعمل معي مديرا لمكتبة الكلية، والمنوط به إعداد المجلة ، وهو الأستاذ عادل أحمد أمين - أشار على بإلحاح بأن أكتب مقالاً في هذا العدد من المجلة ، كي تستوفي به المجلة حاجتها إلى الكم الذي يكمل به ماخصص لها من الميزانية. لأنني ماكنت لأنافس زملائي في صفحات المجلة لكتابة أبحاثهم، وهذا وارد ، ففي خلال سنواتي التسع في الكلية - لم أكتب في المجلة سوى مقدماتها ، ماعدا مقالاً واحداً كتبته وفاء لأستاذي وأستاذ زملائي أعضاء هيئة تدريس الكلية وكليات اللغة العربية في الجامعة من جيلي ومابعده، وهو العالم الفذ الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، وهو صاحب الفضل على كل دارس للأدب والنقد بصفة خاصة، وعلوم العربية بصفة عامة، بما قدمه من ذلك للمكتبة العربية في أثناء عمره الطويل والممتد إن شاء الله، فعرضت لبعض جهوده العلمية في ذلك المقال[1] .

---

(١) أنظر العدد السادس ص٧-١٧ من المجلة الصادر عام ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م

وأشهد قبل أن أبدأ حديثى هذا في وقفتى مع النفس - أننى فى ممارسة عملى الإدارى الطويل بالكلية اكتسبت معرفة وخبرة، واجتنيت حباً ومودة، وامتلأت سعادة وغبطة، من كل من عملت معهم فى داخل الكلية من زملاء وإداريين وعمال، وكانت غايتى مع فريق العمل العظيم الذى قدته أن نبلغ سوياً بأبنائنا الطلاب المستوى العلمى الذى نرجوه ويرجوه لهم الأزهر الشريف، وجامعته العريقة، ووطنهم الحبيب.. ولعلنا نكون قد حققنا سوياً بعض هذه الغاية .

ووقفتى مع النفس تبدأ بتذكيرها بأننى حفظت القرآن الكريم وأنا فى العاشرة من عمرى، ثم التحقت بالمعهد الأحمدى الابتدائى بطنطا، وفى السنة الثالثة منه كنت أنظم الشعر وأعرف أوزانه، حتى لأذكر أننى فى الامتحان الشفهى فى السنة الرابعة من التعليم الابتدائى (الابتدائية) وقد طلبت اللجنة منى أن أسمعها بعض ماأحفظ من الشعر - أجبت: من شعرى أم من شعر غيرى ؟ فسألنى رئيس لجان الامتحان - وكان قد حضر حينئذ إلى لجنة امتحانى: أتقول الشعر ؟ قلت : نعم ، قال : إذن نسمع شعرك، فألقيت عليهم أبياتاً من الشعر، وعاد رئيس الامتحان يسألنى: وهل تعرف بحر هذا الشعر ؟ فأجبت : نعم ، هو بحر "الرمل"، وعندئذ قال لى: قم يابنى فتح الله عليك.

واستمر إقبالى الشديد على قراءة الأدب فى مجلتيه الشهيرتين آنذاك: الرسالة والثقافة ، إلى جانب أمهات كتب الأدب ودواوين الشعر القديم منها والحديث، فى دار كتب بلدية طنطا ، كما استمر مع ذلك نظمى للشعر بين الحين والحين. وحباً فى زيادة اكتساب

المعرفة العلمية المنظمة..حرصت إلى جانب قراءة الأدب ونظم الشعر- على الانتظام فى دراسات مدنية مسائية؛ فدرست اللغتين الأنجليزية والفرنسية ، وتعلمت الآلة الكاتبة العربية؛ وتقدمت للحصول على "الابتدائية" المدنية من وزارة المعارف، وكنت أول الممتحنين من المنازل والرابع فى وسط الدلتا ، ثم حصلت على الثقافة نظام الأربع السنوات، ثم على التوجيهيه، ثم التحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة - قسم اللغة الإنجليزية، لحصولى على درجة عالية فيها ، بعد أن كنت عازما على الالتحاق بقسم الصحافة.

كما حصلت بعد تخرجى من الأزهر على دبلوم معهد التربية العالى للمعلمين بالأسكندرية، وبعده على "الدبلومة الخاصة فى التربية" من جامعة عين شمس سنة ١٩٥٧ ، ولكننى التحقت بالدراسات العليا بكلية اللغة العربية عند افتتاحها ، وكانت ثلاث سنوات تعادل الماجستير ، ونجحت فيها ضمن خمسة طلاب فقط كانت هى الدفعة الأولى فى قسم الأدب، فسجلت رسالة للدكتوراه عن «غايات الأدب» بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحسيب طه وكيل الكلية رحمه الله ، ولكنى تأخرت فى إتمام الرسالة ست سنوات، لتعيينى أميناً لشباب محافظة الغربية عام ١٩٦٥ ، وبذلت أقصى الجهد فى عملى السياسى الوطنى، ومنحت من المحافظ آنذاك "شعار المحافظة الذهبى" .

وكان أثر الأزهر والاتجاه الدينى فى عملى الوطنى بارزاً؛ فقد قدمت لمجلس المحافظة - وكنت عضواً فيه - مشروعاً كبيراً لرعاية

محفظى القرآن الكريم فى كتاتيب المحافظة مادياً، فى عهد المحافظ وجيه أباظه رحمه الله. وفي حديقة مسكن محافظ الغربية الآن بشارع الجيش، وكان مقرا للاتحاد الاشتراكى عملت على إقامة مسجد للشباب حيث كانوا يتفرغون أفواجا للدراسة أياما معلومات، ليؤدوا شعائر الصلاة فيه وهو ذلك المسجد الكبير ذى المئذنة العالية بعد أن أعاد بنا ءه وجيه أباظه ووسعه. وألحقت به دار مناسبات كبرى، ومعهد دينى أزهرى. وقد كان مسمى بعد اعادة بنائه باسم "مسجد الشباب" ثم أطلق عليه اسم «مسجد المحافظة»، ودفن فى جانب منه أستاذنا شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم فضيلة الشيخ محمد خليل الخطيب رضى الله عنه .

وحصلت على الدكتوراه عام ١٩٧٢ متأخراً عن زملائى بسبب العمل الوطنى ، وعينت عام ١٩٧٥ مدرساً بكلية التربية - جامعة طنطا. وفى عام ١٩٨٠ رقيت أستاذاً مساعداً، واختارتنى الجامعة وكيلاً لتربية كفر الشيخ ، ولكننى فى عام ١٩٨٦ طلبت الانتقال إلى جامعة الأزهر العريقة. وأشكر من أعانونى على تحقيق رغبتى فى ذلك : الأستاذ الدكتور عبد الحى مشهور رئيس جامعة طنطا السابق فى ذلك الوقت ، والأستاذ الدكتور محمد كمال العقاد رئيس الجامعة الحالى آنئذ، والأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود رئيس جامعة الأزهر آنذاك .

أبرز الأعمال الإبداعية

مما أعتز به من أعمالى الإبداعية نثراً - ماكتبته وأنا مدرس بجامعة طنطا، ثم طبعته ونشرته دار المعارف عام ١٩٨٣، وهو كتابى: «العروض الجديد: أوزان الشعر الحر وقوافيه» ولعله أول كتاب جامع لعروض الشعر الحر، قائم فى تحصيل قواعد ذلك العروض على أساس الأسلوب العلمى الاستقرائى الاستنباطى، وهو النهج الذى سار عليه "الخليل بن أحمد" فى جمعه لقواعد عروض الشعر العمودى ثم سار عليه "ابن سناء الملك" فى جمعه لقواعد عروض الموشحات، ولهذا كان تعليق أستاذنا الدكتور خفاجى على هذا العمل، الذى وضعته وساماً على صدر الكتاب - هو قوله: «إذا كان الخليل بن أحمد قد وضع عروض الشعر العمودى، وإذا كان ابن سناء الملك أو الخليل الثانى قد وضع عروض الموشحات.. فإننا نعتز حقاً بأن يكون بيننا الخليل الثالث الدكتور محمود على السمان واضع عروض الشعر الحر».

والعمل الإبداعى الثانى الذى أعتز به اعتزازاً أكبر من اعتزازى بعروض الشعر الحر، وإن كان يختلف فى شكله واتجاهه عنه - هو عملى الشعرى الجديد الذى أسميته: «مع القرآن الكريم»، وأصدرت منه جزأين عام ١٩٩٤. وسوف يستمر إصدار العديد من الأجزاء منه إن شاء الله تعالى. ويتميز الديوان بأنه يستظل ببعض معانى القرآن الكريم، ويقتبس من بعض ألفاظه فى شكل مقطوعات شعرية صغيرة، غير ملتزمة أحيانا ببحور الخليل وأوزانه.

والذى يجعلنى أعتز بهذا العمل الأخير اعتزازا كبيرا – أن موضوعه طريف، وشكله خفيف، والاقتباس فيه من القرآن .. يكسوه جمالاً ويكسبه قبولاً، والذى أكد لى ذلك أننى وجدت له صدى طيباً لدى إخوانى عمداء الكليات، وشيوخى الكبار، والسادة نواب الجامعة.. وممن أعتز بتقريظهم لهذا العمل كتابة فضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور عوض الله حجازى رئيس الجامعة الأسبق، والأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس الجامعة، وأستاذى الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، وأخى الأستاذ الدكتور محمود أبو العلا.. وكم كنت أتمنى ألا تخوننى الذاكرة فأحفظ كلمات الثناء المستطاب على هذا العمل التى نفحنى بها فضيلة الأخ الأستاذ الدكتور محمد فرغلى العميد السابق لكلية الشريعة بالقاهرة، فى حديث شفوى معى قبيل وفاته رحمة الله عليه .

نماذج من الشعر الإبداعي

وإذا أردت أن أعرض نماذج من الشعر تكون مرآة تظهر فيها صورة نفسي إلى حد قريب - فليسمح لي القارئ الكريم أن أبدأ بتقديم أبيات قلتها في خمسينات هذا القرن عن فضل أمي يرحمها الله قبل وفاتها عام ١٩٨٣ ، وهي التي تولت تربيتي بعد وفاة أبي رحمه الله وأنا في السادسة من عمري .. قلت:

لـــو أستطيع فديتها بدمائـــي
أمي التي حفظت على بقائـــي
أمي التي جاعت لآكل لقمتـــي
وهي التي عطشت لأشرب مائـي
ولكم قضت ليلاتها سهرانـــة
لتجيب سؤلي أو ترد ندائـــي
فإذا ضحكت ملأتها من نشـوة
وإذا بكيت قتلتها ببكائـــي
وإذا مرضت فتـلك شر فجيعة
وإذا شفيت فذاك خير عــزاء
فإذا هممت بأن أوفي شكرهـا
أفلست أعجز عن بلوغ وفائي؟!

وقريباً من هذا المعنى قلته العام الماضي ١٩٩٤ ، في حديث عن "بر الوالدين" مشيراً إلى معاني الآيتين الكريمتين ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء ومقتبساً من ألفاظهما ، وهما قوله تعالى : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ...» إلى: «وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً»[1] - قلت :

---

(١) ديوان «مع القرآن الكريم» حـ١ ص٣٦ .

قد قضـــى الله بأن نعبـــدهُ
ونوفّـــى والدَيْنـــا بالحقـــوقْ
فنؤدى لهـــما أحساننـــــا
وإذا شاخـــا فلا نُبدى العقوقْ
لاتقـــل "أفٍّ" ولاتنهرهمـــا
لا ، وقل قولاً كريماً ... يارفيـقْ
واخفـــضَنْ منك جناحاً لهمـــا
رحمـة، واسترحـم الرب الشفيقْ

والوفـاء للأصدقـاء، والاعتـراف لأهل الفضل بفضلهم أحيـاء وأمواتاً شيمة أحمد الله على التحلى بها ، وكذلك كان بعض شعرى.. وآخر من رثيتهم - أخى وزميلى الأستاذ الدكتور أحمد الجمل[1] ، فى حفل التأبين الذي أقامته الكلية له يوم ١٩٩٤/١٢/٢٦ ، فقلت فى مطلع القصيدة :

مصابنا اليوم ياأصحابنـا جَلَـلُ
فإن من مات منـــا .. أحمدُ الجَمَلُ

ثم قلت :

ماكنت تشكو ولم يُمْلِلْكَ طول ضَنًى
بل كنت تعمـــل لاشكـوى ملـلُ

---

(١) أستـاذ مـساعـد بقسم اللغويات بالكليـة - توفى رحمـه اللـــه فى ١٩٩٤/١٢/١٨ .

خدمت جامعـــةً، اللــهُ حارسُهـــا
ممـن يَكِيـدُ لها من كل من هَزَلـوا
وذلك الصَّرْحُ[١].. أنت من الذين بَنَوْا
له القواعــــد ماضَنُّوا ومابَخِلــوا
لاقدَّر اللــــه أن تهتــــز أعمـــــدةٌ
فيه بموتك، أو يستفحــل الزَّلَــلُ
ان كـــان قد نزل المقـــدور ساحتَنـــا
فليـــس فى الناس إلا من له أجـل
لو كان يُجـــدِى بكـــاء فى مصيبتنـــا
إذن جـرى الدمعُ حتى جَفَّت المُقَـل
لكنـــه قَـــدَرٌ لا شــــىء يمنعــــــه
ونحــن للقدر المقـــدور نمتثــــــل
وليـــس للمـــوت أسبابٌ نلفِّقهـــــا
فعنـده تنتهى الأسبابُ والعِلَـــــل

وإذا كـان حب الوطن واجبـا، والوفـاء له حـتـمـيـا .. فـإن حبى لمصر لشديد وهو ماجعلنى ويجعلنى أشيد بها دائماً، وأدافع عن أهلها بنقد لاذع لكل من يعتدى على حقوقهم ، ولذلك فحينما أعلن عن قيام "الحزب الوطنى" برئاسة الرئيس الراحل أنور السادات - كتبت رسالة شعرية مفتوحة، نشرتها جريدة الأخبار فى ٢٤ من أغسطس ١٩٧٨ بعنوان «سيدى.. الحزب الجديد» قلت فيها:

---

(١) أقصد "كلية اللغة العربية بإيتاى البارود" .

ياسيدى الحزب الجديد

هنيت بالحظ السعيد

أعطاك ربك منة

والله يفعل مايريد

فلقد منحت أبوة

من حاكم عدل رشيد

ولقد كسبت أخوة

من شعبنا الحر المجيد

* * *

ياسيدى، بعد السلام عليك والشوق الشديد

أهديك ألف تحية وأحيط علمك بالمفيد:

الأهل فى حال تقر بمثلها عين الحسود

انزل إلى الشعب الكريم تر الشقاء بلا حدود

وشقاه فى نقل وإسكان وتموين يزيد

* * *

لاتكثرن من الكلام فعندنا منه رصيد

واعمل لحل المشكلات بفضل تكتيل الجهود

وابـــــدأ بنفســـــك أولاً

مادمت أنـــت لنا تقـــــود

لتكــــون أول بـــــاذل

وتكـــون آخر مستفيـــــد

* * *

وإلى اللقـــــاء وفى الختام أقولهـــــا لك من جديـــــد:

«اقبل تحيـــة مخلـــــص

يرجـــو لك الحـــظ السعيـد

وفى نهاية ذلك العام - ١٩٧٨-[١] وكنت مدرساً بكلية التربية جامعة طنطا عقد بطنطا مؤتمر شعبى سياسى كبير حضره الأستاذ فكرى مكرم عـبـيـد أمين عـام الحزب الوطنى ونائب رئيس مـجلس الوزراء، وبعض الوزراء، والدكتور زكى شبانه رئيس جامعة المنوفية، والشيخ أحمد حسن الباقورى، والدكتور أحمد الشرباصى .. وقـــــد

---

(١) فى ١٩٧٨/١١/٢٠ عقد المؤتمر الشعبى السياسى فى جمعية الشبان المسلمين بطنطا بمناسبة تولى الأستاذ عبد القادر البحراوى وكيل الجمعية وعضو مجلس الشعب أمانة الحزب الوطنى بالغربية .

دعانى إلى المؤتمر أحد الأصدقاء المنظمين له[١]، لالقاء قصيدة فيه، وقد فعلت واستهللت القصيدة بشكر صديقى على دعوته .. فقلت :

دعانى الذى أهواه أن أنظم الشِّعْرَا
ودعوة من أهواه لى تشبه الأمْرَا
فما ملكت نفسى سوى أن أطيعَه
وأنظم شعراً فاق فى نظمه الدُّرَّا

ثم قلت مشغوفاً بحب مصر واصفاً خيرَها وجمالها، ودعوةَ الأنبياء من قديم إلى زيارتها والإقامة بها، وزهوَ حكامها بامتلاكها، مستظلاً فى ذلك بمعانى القرآن الكريم مقتبساً من ألفاظه[٢]:

أحبّاىَ إنى فى هوى مصر مُدْنَفُ
فما مصرُ فى الدنيا سوى الجنةِ الكبرى
فمصر التى رَبَّت، ومصر التى رَعَتْ
ومصر هى الأم التى أبداً تُطْرَى

(١) هو الأستاذ محمد ابراهيم مصطفى رئيس العلاقات العامة لمحافظة الغربية آنذاك .

(٢) يلاحظ أننى كنت من قديم قبل إصدار ديوانى «مع القرآن الكريم» عام ١٩٩٤ ، الذى يقوم على الاقتباس من ألفاظ القرآن الكريم والاستظلال بمعانيه - كنت مشغوفاً بالاقتباس، وكان ذلك يجرى فى شعرى بشكل تلقائى . ومن ذا الذى يستطيع وهو يحفظ القرآن الكريم ويسحره معناه ولفظه ألا تقع معانيه وألفاظه فى شعره بقصد أو بغير قصد !! إن فى ذلك لشرفاً وفخاراً له ولأدبه .

ومصر التى جادت على طول عمرها
فما بخِلت عاماً، ولاقَصَّرت شهرًا
ومصر التى أعطت كثيراً، ولم تكن
تريد بما أعطت جزاءً ولاشُكْرا
ولو قد عددنا مالها من مكارم
لفاقت أياديها وآلاؤُها الحَصْرا
فكم نحن نَجنى شُهدنا من ثمارها!
ومن مائها السلسال كم نشرب الخمرا!
وكم من دَفِيءِ الشمش نشتد قوة!
وكم من نسيم الفجر نستنشق العطرا!
إذا الصبح وافانا نعِمنا بصبحها
وحين يجئ الليل نلتمس السحرا

* * *

حبانا بها الرحمن أعظمَ نعمةٍ
وجاءت بها آيُ الكتاب لنا تَتْرَى
فهاهو ذا موسى يقول لقومه:
لكم ماسألتم قومنا ، فاهبطوا مصرا
ويوسف إذ يعطى الأمان لأهله
يقول ادخلوها آمنين ، فلا غدرا
وفرعون يستعلى ويزهو بملكها
وبالنيل يجرى تحت أقدامه نهرا

ففى مصر يحلو الحب والعشق والهوى

وفى مصر أهوى الوصف والمدح والفخرا

* * *

ثم مالبثت بعد ذلك فى القصيدة أن نددت بالإهمال المتفشى فى البلاد، والفقر المدقع الذى يخنق المواطنين، داعياً الحزب إلى أداء واجبه تجاه الشعب بعد أن انتهت الحرب (١٩٧٣) فلم تعد ذريعة للانشغال عما يحقق مصالح الجماهير، فقلت :

فلا تدعوها للزمان يَغُولُها

وداءٍ من الإهمال فى جسمها استشرَى

فليس لليل يَرْقُب الناسُ فجرَه

سوى السعيِ موصولاً لكى نُطْلِعَ الفجرا

وليس لفقر يأكل الناسَ وحشُه

سوى وفرةِ الإنتاج تلتهم الفقرا

إذا قلتُ إن الناس جُنَّ جنونُهم

فإنى بهذا لاأُذيع لكم سرا

فقد ضاق هذا الشعب إلا أقلَّه

من الفقر .. حتى كاد يُورِثُه الكفرا

فهيا رجالَ الحزبِ أدُّوا حقوقَه

عليكم بأعمال تُجَنِّبُه الشرا

لقـد كـان عهدُ الحرب عُذراً وحجة

فهل فى سلام سـوف نلتمس العذرا ؟!

* * *

ثم نددت بشيوع الرشوة فى ربوع البلاد، وناديت بالضرب على أيدى الجناة المرتشين، فقلت :

لقد شاع بين الناس أن أمورَهـــم

تُقَضَّى - إذا أعطَوْا على واجبٍ أجرا

وأن كثيراً يستبيحـــون رِشـــوة

ولايتلقَّـــوْن العقوبـــةَ والزجـــرا

فإن كان فى القانون حظر لرشـوة

فقانونهـــم لايعرف المَنْعَ والحَظْـــرا

فيا حزبَنـــا راقبْ وعاقب بشدة

وشُدَّ على الجانيـــن، ولْتَقْصِم الظهرا

فإن يبقَ منـــا بعضُنا وهو صالح

وتفنى نُفايـــات تضر، فلا ضَيْـــرا

ثم نبـهت فى نهـاية القـصـيدة إلى ضـرورة إقـامـة صـرح البـلاد على أساسين من علم وإيمان لحل مشكلاتها المادية والمعنوية، فقلت :

فإن شئتمو أن تثمروا بجهودكـــم

فبالعلـــم ، إن العلم كم ذلل الوَعْرا

وإن شئتموا أن تُفلحوا فى جهادكم
أقيموا إلى دين الإله لكم جِسْـــرا
فلن تستقيم الدهرَ أحوالُ أمـــة
إذا هى قد أرخَتْ على دينها سِتْرا
وليس تنالُ المجــدَ يوماً جماعـــة
إذا هى أمست وهى من دينها تَعْرَى
فبالعلم والإيمان نرقى إلــى العــلا
وبالعلم والإيمان نستجلب النصــرا

* * *

وإحساسى الشديد بالام الشعب لاقترانى به واقترابى منه - جعلنى أنظم قصيدة بالشعر الحر، جاء فيها :

هذا الكاتب فى الديوانْ
يعمل فى كل زمان بالإخلاصِ
وبالإتقـــانْ
بغير تـــوانْ
لكن يسمع أن القدوة منحرفهْ
يسمع إن إمام الناس يَؤُمُّ الناسَ بغير وضوءْ
يسمع أن رئيس الديوان يصلى الغرض بغير طهارهْ
ويبيع الشرفَ بكل مهارهْ
فيضم الصدر على الجُرْح ويسكتْ
لايتكلـــمْ

لكن لايملك فى الواقع إلا أن يتألمْ
إلا أن يتذمرَ .. يتحســـرْ

* * *

ويشم رئيسُ الديوانْ
رائحةَ تَذَمُّر هذا الإنسانْ
فيُوَقِّع فى الحال جزاءً بالخصم عليهْ
على ذاك الإنسان .. الأسيانِ .. الجوعانِ الظمآنْ
لايرحم ضعفهْ
لايرحم أفراخاً زُغْباً يُطعمها بعضَ فُتاتْ
بمرتبهِ .. بالمليماتْ
وتمضى.. تمضى الأوقاتْ
ويظل رئيسُ الديوانِ على القِمة فى منأًى عن كل الأزماتْ

* * *

شعبى لايجد الرحمهْ
إلا من بعض الخلانْ
حين تَفيض الروحُ إلى بارئها .. بعد فواتِ أوانْ !!

ومما يؤثر في نفسى ونفس كل محب لمصر غيور عليها - مانراه ونسمعه ونحس به كثيراً من هجره العقول المصرية إلى البلاد الأوربية، وكان من حق بلادنا وواجبها أن تستأثر بهم وتستبقيهم لمسيس حاجتها إليهم، ولذلك ناديت بضرورة رعاية هذه العقول قبل أن تهاجر، وإتاحة الفرصة لها فى بلادها فى النمو والظهور، كما تتاح لها فى الخارج حتى لاينتقل خيرنا لغيرنا ونحن فى حاجة ماسة إليه.

ومما قلت فى ذلك :

لاتبيعوا عقولكم لغريـــبٍ
يشتريها .. فتلك شرُّ تجــارهْ!
واحرسوهم فإنهم ظاهـــراتٌ
تختفى تارةً، وتظـــــهر تارهْ
الكثيرون هاجروا لبعيــــدٍ
والمقيمون فى انتظار الإشارة؟ !

* * *

يابلادى .. وكم أحب بلادى
كل مَن فى الحياة يعشق دارهْ
ليس لي مَطْمَحٌ بدنياى إلا
أن أري مصر للوجود منـــارهْ

* * *

ولكونى أزهرياً، مؤمناً بأن صلاح أحوال المسلمين فى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وفى الأُخُوّة والوحدة، ووقوف المسلمين صفا واحدا فى مواجهة الأعداء - أعلنت فى شعرى مراراً كثيرة ضرورة الوحدة الإسلامية، والحكم بكتاب الله، فقلت عام ١٩٨٨ من قصيدة طويلة :

ياقومَنا قد جاءكم من ربكـــم
نورٌ وسِفْـــر رائع التبيـــــانِ

ورضِيتم الإسلام دِينًا قيِّمــاً
إســلامُكم هو خاتَمُ الأديــانِ
نسختْ ظلامَ الشرك آيةُ نــوره
وأدال من رُومٍ ومن يونـــانِ
فيه العقيدة والشريعة والسياسة والإدارة .. كلُّهـا فـى آنِ
عاشت بصحبته البريّةُ كلهـــا
فى نعمـــة وسلامـة وأمـــانِ
لم يعرف الإسلام ظلمَ رعيـــة
فتساويا :ابنُ العاص والنصرانى!
ياقومنا إن كان ذلك دينَنـــا
لم لايكون الحكـــمُ بالقـرآنِ؟!

* * *

فلتجعلوا القرآنَ عصمةَ أمركـم
من شِيبِكم ياقـــومُ أو شبـــانِ
رَبُّوا على الإســلام ناشئةً لكم
وعليه شِيدُوا أرفـــعَ البنيـــانِ
ولْتحفظوا سِيَر الرســولِ وصحبِه
ولتأمروا بالعـــدل والإحســـانِ
أسلافُكم كانوا مصابيحَ الهــدى
كانوا شمــوسَ النور والعرفـــان
هل كان كالصدِّيق والفــاروقِ أو كعلىٍّ المغـــوارِ أو عثمـانِ؟!

الصابرين الصادقين القانتيـن المنفقينَ .. لهـم فسيحُ جنـانِ
والباقيات الصالحـات هى التى
تَرْبُو عوائدهـا بلا نُقصـانِ
إن تنقضِ الدنيا نَعِشْ فى خيرها
فى الخلد .. فى رَوْحٍ وفـي رَيْحـانِ

وفى العـام الماضى-١٩٩٤- كـررت هذه المعـانى فى ديوانى المطبوع «مع القرآن الكريم» بجزأيه؛ إذ قلت فى معنى أن الإسلام هو الحل لكل المشكلات :

قد أصبـح الناس فـى شقاءٍ
وتلك عنـدى هى الحقيقـةْ
لكنهم يسعـدون حقـا
لو استقاموا على الطريقـةْ[1]

* * *

وفى ضرورة الوحدة الإسلامية قلت :
ياأمة الإسـلام لاتَفَرَّقُـوا
تُحققوا نصراً لكـم سريعَـا

---

(١) اقتباساً من قوله تعالي : «وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً». (سورة الجن: ١٦)
والمقصود "بالطريقة" فى الآية الكريمة: الإسلام

فوثقـــوا إيمانكـــم بربكـــم
واعتصمـــوا بحبله جميعًا [١]

* * *

وفى رفض الفرقة السائدة بين الدول العربية الإسلامية قلت :

مكانهم - وان نادوا - قريـــب
وحبهـــم - وإن دنـــوا- بعيـــد
تحسبهم إن ترهـــم جميعـــا
وبأسهـــم بينهـــم شديـــد [٢]

* * *

وفى فـرضـيـة الجـهـاد والوقـوف فى وجـه المعتـدين على الإسـلام والمسلمين فى كل مكان وبخاصة فى البوسنة والهرسك-قلت :

بأمر اللـــه رب العالمينـَـا
تعالَـــوْا قاتلوهـــم أجمعينـَـا
يعذبْهم بأيديكـــم فيهـــُوا
ويرفعْ شأنكـــم دنيـــا ودينـَـا
ويُخزِهِمُو وينصرْكـــم عليهـــم
ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنينـــا [٣]

* * *

(١) اقتباساً من قوله تعالى : «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا» . (آل عمران : ١٠٣)

(٢) اقتباساً من قوله تعالى : «بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» . (الحشر: ١)

(٣) اقتباساً من قوله تعالى : «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» (التوبة :١٤)

وفـى وجوب التحلى بأخلاق الإسلام الكريمة قلت :

إذا كنـــت ترجـــو ثوابـــاً

وفضـــلاً علـــى العالمينـــا

خُذِ العَفْـــوَ وأْمُـــر بعُـــرْفٍ

وأَعْـــرِضْ عن الجاهلينا [١]

* * *

وأختتم عرضى لنماذج شعرى الفصيح[٢] بهذا الابتهال الذى كتبته منذ سنوات طويله" وأداه المبتهل الشيخ عبد الرحيم دويدار فى احدى الليالي قبيل صلاة الفجر بمسجد مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه، وفيه أقول :

يارب هيئ لنا من أمرنا رَشَـــدَا

وكـــن لنا ياإلهى العَوْنَ والسَّنَدَا

مالى غِنًى عنك فى كل الأمور ولا

على سواك إلهى كنت معتمِـــدا

لولاك لم تنشرح بالديـــن أفئـــدةٌ

ولم يكن للصراط المستقيم هُـــدَى

---

(١) اقتباساً من قوله تعالى : «خذ العفو وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين» . (الأعراف ١٩٩) .
يقول البيضاوى فى تفسير الآية الكريمة : «هذه الآية جامعة لمكارم الأخلاق» .

(٢) لى ديوان كبير من الشعر العامى، لامجال هنا للحديث عنه والاستشهاد منه .

فإن رضِيتَ فحسبى فى الحياة رضًا
وإن سخِطتَ فآمالى تضيع سُـدَى
فاكتب لنا ياإلهى منك مغفـــــرةً
وتب علينا وزدنا من نداك نَـــدَى
وجُدْ بفضلٍ وتوفيق لنا أبــــــداً
ومُدّ بالرزق والخير العميم يَــــدًا
فلم تزل ربّنا تُرْجَى لنيــل مُنًــــى
وسوف تبقى رَجَا مَنْ لِلْمنى قَصَدَا

تكريم وتقدير

أحمد الله أننى نلت من تكريم قيادات جامعتى طنطا والأزهر لى ماهون على كل مشقات العمل والادارة، ومن ذلك:

أولا: كان من تكريم جامعة طنطا لي فى أثناء فترة عملى بها احدى عشرة سنة بين مدرس واستاذ مساعد، ووكيل كلية - مايلى:

١- اختيارى لحضور مؤتمر كليات التربية فى العالم العربى بمدينة الرياض من ١٥-١٩/٥/١٣٩٨ ه - ٢٢-٢٦/٤/١٩٧٨م.

٢- انتخابى عضوا لسنوات طويلة بمجلس ادارة نادى اعضاء هيئة التدريس ومقررا للجنة الثقافية وكان وجودى بمجلس الادارة فرصة لدعوة عدد من شيوخ الأزهر ورؤساء جامعتهوأساتذة كبار فيه للقاء أعضاء جامعة طنطا وأسرهم على افطار فى رمضان، ثم حديث وحوار دينى معهم بعد صلاة العشاء ومن بين من دعوا: فضيلة الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار، وفضيلة الشيخ

عبد المنعم النمر وفضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود.

٣- وقوف الجامعة معى برئاسة الأستاذ الدكتور عبد الحى مشهور فى مواجهة اللجان العلمية التى تجنت علىّ لأزهريتى، وترقيتى بلجنة أخرى إلى أستاذ مساعد سنة ١٩٨٠، ثم اختيارى فى الشهر التالى للترقية وكيلا لكلية التربية بكفر الشيخ.

ثانيا: وكان من تكريم جامعة الأزهر لى بعد انتقالى اليها:

١- تعيينى عميدا لكلية اللغة العربية بدمنهور فى العام الذى نقلت اليها فيه -١٩٨٦- عقب حصولى على الاستاذية.

٢- تجديد العمادة لى أربع مرات، وبقائى فى العمادة حتى بلوغى سن التفرغ.

٣- وقوف أعضاء نادى هيئة تدريس الجامعة ورئيسه المحبوب الأستاذ الدكتور محمد حسين عويضة معى فى قضية تطاول محافظ البحيرة الأسبق علىّ، حتى انعقد الصلح بيننا فى الكلية.

٤- استجابة فضيلة رئيس الجامعة الهمام الأستاذ الدكتور عبد الفتاح حسينى الشيخ لى فى مَدّ الكلية بالوسائل التعليمية لتسجيل المحاضرات ثم اعادة عرضها على الطلاب بما تكلف ألوف الجنيهات.. وقد نجحت التجربة نجاحا باهرا يجعلنى أتمنى لها من المسئولين أن تعمم فى جميع الكليات، فالوسائل التعليمية ضرورية لأنها ركن أساسى من أركان العملية التعليمية[١]

---

(١) هذا ماقرره علماء التربية وقد شرحت ذلك فى كتابى: " التوجيه فى تدريس اللغة العربية "طبع ونشر دار المعارف سنة ١٩٨٣.

٥- اختياري رئيسا لنادي هيئة تدريس الجامعة لوجه بحري ، وأرجو أن تتيح الجامعة لفرع النادي فرصة علاج الاعضاء حيث يقيمون في محافظات الوجه البحري، لا في القاهرة فحسب، تقريبا للخدمة الصحية العلاجية لهم، لأهميتها وحساسيتها.

٦- اختياري عضوا بلجنة الصياغة بالمركز الدولي الاسلامي للدراسات والبحوث السكانية بجامعة الأزهر، وعضوا بمجلس ادارة مجلة "العلوم السكانية" التي يصدرها المركز.

أخي القارئ الكريم :

هذه وقفتي مع النفس عرضت فيها باختصار قصة جهادي مع العلم والأدب والحياة، كما عرضت فيها نماذج من شعري، داعياً الله تعالى أن يسدد خطانا على طريق الحق والخير، والدين والعلم والأدب، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً .

وفي ختام حديثي لاأنسى أن أشكر كل من كانت لهم يد في تعليمي،أو تصعيدي،أو معاونتي،أو رد العدوان عني، ممن أذكرهم أولا أذكرهم منذ نشأت ،وحتى اليوم. كذلك أكرر أن ماتم من إنجاز علمي وعملي في الكلية انما كان بفضل الجهد الكبير الذي بذله كل العاملين معي من أسرة الكلية، إذ بفضلهم جميعا قطعنا الشوط الأول من الرحلة بنجاح، وبفضلهم سوف تستمر المسيرة في أداء الكلية لرسالتها بشكل أفضل وأمثل إن شاء الله تعالى، والحمد لله أولا وأخيرا،

«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»

أ. د. محمود علي السمان

نظرات فى الطباق القرآنى

تأليف

د/ صباح عبيد دراز

وكيل الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

الطباق فى القرآن الكريم

ذكر الدكتور لطفى عبد البديع " وهو أكثر الحداثيين اتصالا بالتراث البلاغى ، فى كتابة " فلسفة المجاز " مايعد فاصلا بين أسلوب القرآن وبين أساليب البشر ، قال " القرآن لغة الوحى الإلهى المنزل ، من السماء ، يتداخل فيه عالم الغيب وعالم الشهادة ، واضافة ما أضيف إلى الله عز جل فى القرآن ، من باب آخر ، غير باب المحسوس والمعقول؛ بحيث لايصح أن يستبدل بلفظه لفظ آخر " كما أشار الغزالى.

فالوحى من عالم علوى، مغاير للعالم الأرضى بقوانينه ، وتاريخه، فهذا محدود ، وذاك باق خالد، لأنه لغة السماء التى تريد أن تحمل أبناء الأرض اليها ، وتجعل من الوجود الانسانى وجودا آخر، له تعلق بالسماء ، يعى الكلمة النازلة منها ، على نحو ماتقتضيه صفتها الاليهة، فالزمان المكان لاوجه لهما مع القول الالهى، لأنه يستوعب ذلك ، ومايتعلق من حدثان؛ لأنه تعلق بالوجود المطلق ، الذى تستقيم باحكامه الالهية الحياة البشرية ، ومصيرها ، وهذا من بعض معانى قوله تعالى: " إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا" وقوله تعالى " يايحيى خذ الكتاب بقوة " كأن هذه القوة هى هذا التوتر الذى يرتجف معه القلب بالكيان الانسانى (له فلسفة المجاز) (فلسفة المجاز ص ٤٤ وما بعدها) .

وإذا كانت اللغة تعبيرا عن الوجود الذى نعيشه ، حسيا ، أو معنويا فكل ما فى هذا الوجود أما مضاد أو موافق أو مخالف ، فالطباق طبيعى فى طبيعة الوجود ونسيج اللغة.

والمهم هو استدعاء هذه المتقابلات فى أسلوب واحد حسب المقام. وكل مافى هذا الكون له مضاد أو نقيض أو مغاير ، من الصفات والمعانى والمحسوسات ، والمهم توظيفها فى التراكيب والأداء.

وإذا كان هذا فى طبع الحياة واللغة فكيف يكن محسنا اللهم إلا إذا قصدنا بالحسن البلاغى مايقصده عبد القاهر من أنه فضيلة اذا تخلفت ، نزل الكلام عن طبقة البلاغة.

ثم إن قانون التغيير والتقلب ، فى الحياة الأحياء ، بما يمثل من ثنائيات متقابلة متبادلة، قانون دائب مستمر فى الحياة المادية والعقلية والنفسية والروحية.

أليس الكون سماء وأرضا ، ونهارا وليلا . وشمسا وظلاما وسهلا وجبلا . وماء وقفرا؟

أليست حياة البشر عزا وذلا ، وغني وفقرا ، وعلما وجهلا وحياة وموتا . إلى مالايحصى؟

أليس الانسان مجموعة صفات متنازعة، وحالات متفاته؛ متقابلة من صحة ومرض ، وطفولة وشيخوخة ، وسعادة وشقاوة ، وايمان وكفر وحب وبغض إلى مالايعد؟

ولذا كان الطباق فى القرآن يصور الكون بما فيه ، والحياة بمفهومها الوسيع ، ثم يرقى الى مالايقترب منه عقل أو خيال أو وهم من عالم الغيب ، وصفات الجبار ، سبحانه، يتلقاه الانسان خاشعا منزها مقهورا.

ثم عالم الموت والقبض ، وعالم البعث الحساب ، والميزان ومشاهد القيامة ، والجنة ودرجاتها ، وألوان نعيمها ، وسمات أصحابها ، وأحاديثهم ، ثم النار ودركاتها ، وصنوف عذابها ونعوذ بالله العظيم منها - ثم أصناف عذابها ، وآلام أصحابها وجؤراهم ، فى هذا العالم الأخروى ، بقوانينه الخاصة البعيدة عن سنن الله في الدنيا ، فأهل الجنة ، وأهل النار يتراءون ، ويتناقشون والحواجز بين الجنة والنار لاتحول دون الرؤية أو النقاش ، وكأن هذه المناقشات ، تتمة للجدالات ، والصراعات التي كانت بينهم فى الدنيا ، وهو الصراع الدائم بين الايمان والكفر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال.

* * * * *

رب العزة وصفاته الحسنى :

قال الله تعالى " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " وقال سبحانه : "ولله المثل الأعلى " وقال تعالى :" سبحان ربك العزة عما يصفون " والله عز وجل واحد أحد ، فى ذاته وصفاته ، وأفعاله ، لاشريك له ، ولاشبيه ولامثيل: "ليس كمثله شئ" وهو السميع البصير".

لابعلم كنه ذاته سبحانه ، ولاحقيقة صفاته إلا هو عز وجل وكل ماخلق الله وأبدع وقدر ودبر ، مما نعلم ، ومالانعلم إنما هو من آثار صفاته.

وهذه الصفات حين تتقابل كالمحيى - المميت - المعز - المذل - المبدئ - المعيد : ترد على أنحاء مختلفة ، فى الذكر الحكيم : تعرف الله تعالى بصفاته ومجلى صفاته لعباده وتعليمهم حمده وتقديسه ، وأن ملكه وتدبيره ومايجرى فيه إنما هو من متعلقات بعض صفاته ، دلالة الوحدانية في الذات والصفات ، والأفعال ، وهو أخطر أغراض القرآن، ثم للتحقق أو التخلق على قدر طاقة العبد، كما نبه العلماء.

وإثبات هذه الصفات لله تعالى: يعنى تفرده بها ، فلا يتصف بها سواه كقوله تعالى:

" هو الأول والاخر والظاهر والباطن" وهى صفات كمال كما أن مايتصف به خلقه وهى مخلوقة أيضا ناقصة يستحيل أن يتصف البارى بها ، فهى منفية عنه لاسيما إذا كانت صفة نقص : كقوله تعالى" كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام".

" لاتأخـذه سنة لانوم " وهو يطعم ولايطعم" هذا العالم من سموات وما فوقها وأرض وماتحتها ومافيها مما لايحيط به الا مالك الملك ، وتصريفه وتدبيره، ثم مابعده من عوالم الآخرة إنما هو آثار صفاته ، ومجلى أسمائه ، كما أن آيات الله تعالى فى القرآن الكريم

وهو كلامه القديم تسرى فيه الصفات القدسية ، ولفظ الجلالة وضمائره القدسية في كل أغراض القرآن الكريم ، من توحيد الله تعالي ، وصدق القرآن ، والرسالة والرسل ، والمنهج الالهى الذى جاء به الرسل وكمل بالخاتم صلى الله عليه وسلم ثم تثبيت المؤمنين ، وتكذيب المعاندين ثم البعث الجزاء.

وهذه الصفات القدسية قد تأتى على هيئة الاسماء : كقوله تعالى : نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم " أو هيئة الافعال: كقوله تعالى: " ان بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد" لازمة ، أو متعدية كما ترى.

وحين تتقابل هذه الصفات ، أو تتقابل آثارها ، فانما تأتى على أنحاء مختلفة، فى القرآن الكريم من حيث موقعها من الآيات صدرها أو سطها أو نهايتها ، ومن حيث ارتباطها بالزمن أفعالا أو بدون زمان كالأسماء ، ومن حيث صياغتها كالجعل ، والانشاء، والخلق ، والغافر ، والغفار ، ويحيى أو يخرج الحى ، ونحو ذلك فى دقة معجزة ، ملائمة لأغراض السور العامة واغراض الآيات الخاصة ، ومناسبة للسياقات والمقامات.

وفى مجال اثبات الاحياء ، والاماته لله تعالى جاء فى آيات كثيرة الفعل المضارع منزلا منزلة اللازم لاثبات أصل الصفة لله تعالى وحده، دون غيره قال تعالى من سورة المؤمنون " وهو الذى

يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار" ومن سورة الأعراف " لا إله إلا هو يحيى يميت فآمنوا بالله ورسوله" فهو وحده القادر الجامع بين الاحياء والاماته ، وقد تناوب ذلك الانسان بقدرة الله وقدره " كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا ، فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون" البقرة وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور " سورة الحج.

وقد يكون الحياة من الموت ، والموت نبعا للحياة ، فالشئ يخرج من ضده قدرة الهية قاهرة : "تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى " من آيات التضرع بصفات الله وآثار صفاته من آيات آل عمران . قال البيضاوى " عقب ذلك" الآية الأولى " بيان قدرته ، على معاقبة الليل والنهار ، والموت والحياة ، وسعة فضله ، دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذل والعز وايتاء الملك ونزعه" تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء "واخراج الحى من الميت وبالعكس : انشاء الحيوانات من موادها ، وإماتتها بيد أن الآية كما يرى كثير من المحدثين أعم وأعمق تتناول كل مافيه حياة من انسان وحيوان ونبات، أرض قفر تنبت زرعا " وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت " ونواة تخرج نخلا "إن الله فالق الحب النوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى " وهذه آية الانعام التى جاء فيها اخراج الميت باسم الفاعل مخرج قال الكرمانى لانه وقع بين أسماء الفاعلين " فالق الحب النوى " فالق الاصباح " (أسرار التكرار).

والواقع أن قصة الحياة والموت تسرى فى الموجودات وتداخل فى الكائنات حتى الخلايا التى تولد والتى تموت .

ثم ان الإحياء والإماتة قد تتناول القلوب فتومن بعد كفر وتتناول الأرض الجرز ينزل عليها الماء فتنتفض حياة بالزرع البهيج : " أو من مكان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظالمات ليس بخارج منها" "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا " واحياء الأرض بعد موتها هو أمر محسوس كان دليلا دامغا على البعث واحياء الموتى للحساب " فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شئ قدير "الروم " "رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج " سورة ق " وقد يقصد القرآن موازنة بين أحياء القلوب وامواتها تكريما للايمان به سبحانه: " ومايستوى الأحياء ولا الاموات" واذا كانت الآلهة المزعومة لاتملك القدرة على الموت والحياة والبعث " ولايملكون موتا ولا حياة فان الله تبارك يخلق ذلك خلقا" الذى خلق الموت والحياة " ونأمل كيف يكون الموت خلقا من خلق الله .

ثم إن الذين كفروا بالله العظيم لاينعمون حتي بنعمة الموت فى الآخرة فيستريحون من العذاب، ولايحيون مايسمى حياة " انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولايحيا" سوره طه وكأن هذه الآية رد وعقاب علي من ينكر البعث فى سورة مريم" ويقول الانسان ائذا مامت لسوئى أخرج حيا" وفى سورة الأعلى " الذى يصلى النار

الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيا" وقدم الموت لانه املهم الذى يؤملون ليستريحوا من العذاب.

لكن الموت فى الجنة قطع لنعيمها ولذا كان الوعد والرضا لاهل الجنة " لايذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم " واذا كان الله هو المحيى المميت ولم يدع ذلك أحد لم يحتج الاسلوب توكيدا فى ثناء ابراهيم الخليل" والذى يميتنى ثم يحيين " وقد يحتاج الامر توكيدا لمن يعتقد من الطغاة انه قادر على منح الناس الحياة بعدم امانتهم ، أو ازهاق أرواحهم كما قال ابراهيم للنمروذ " واذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا أحيى وأميت، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر" "لان سر الحياة بالروح ونفخها أو قبضها بيد الرحمن " وأنه هو أمات وأحيا" ولذا كان من أقوى أساليب الأمر بالتوكل للنبى محمد صلى الله عليه وسلم.

"وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده " وكان الحى القيوم من أسماء الجلال والعظمة وجاءا متلازمين فى آيتين آية الكرسى وأول سورة آل عمران كما نبه النبى صلى الله عليه وسلم وأرشد فى حديثه الصحيح.

قال الشهاب فى اية الفرقان "وتوكل على الحى الذى لايموت" تعليقا على البيضاوى " فيه اشارة إلى أنه يفيد الحصر، لأن أصله

توكل على الله ، فلما عدل عنه الى ماذكر ، أفاد بفحواه أن من ليس كذلك لايصح التوكل عليه ، أما غير الاحياء كالأصنام فظاهر وأما من يموت فلأنهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ، ولذا قيل انه لايصح لذى عقل أن يثق بمخلوق بعد نزول هذه الآية " حاشية الشهاب ٤٤٣/٦".

وهذا الغرض أوجزنا لك فيه ويمكن أن تسير علي هذا فى معالجة الاغراض القرآنية.

وقال الله تعالى " ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم - وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون ، بديع السموات والأرض.

واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون " البقرة ١١٥-١١٧.

والآية الأولى تطيب خاطر المؤمنين ، وتبين لهم رحمة ربهم فاذا منعوا - وقتها - من الصلاة فى المسجد الحرام أو الأقصى ، فقد جعلت لهم- وحدهم - الأرض مسجدا وطهورا ويريد بالمشرق والمغرب: ناحيتى الأرض وهو كناية عن الأرض كلها أى لله الأرض كلها وهو عالم مطلع بما يفعل فيها . الشهاب ٢٢٧/٢.

وقد جاء المشرق مقابلا للمغرب كناية عن الأرض فى خمس آيات تناسب مقامها وجاء " رب المشرقين ورب المغربين " فى مقابلة المشرقين بالمغربين فى آية واحدة ، كما جاء الجمع " المشارق والمغارب فى آيتين .

وجاء في المفرد " سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب " ١٤٢ البقرة وهو رد مفحم على من أنكر تحويل القبلة من الأقصى الى البيت الحرام ، فان الأرض كلها لله والمهم التقيد باوامر الله تعالى .

والعلماء على أن أل للجنس في والمشرق المغرب مفردا ومثنى وجمعا للاحاطة والشمول ، فالمعنى واحد وإن ذكر بعضهم ان المراد بالمشرقين مشرق الشتاء والصيف أو مشرق الشمس والقمر السابقين ومغربهما في قوله تعالى " الشمس والقمر بحسبان أو المراد مشرق الشمس ومشرق غيرها فيتناول كل المشارق والمغارب .

وذكر بعض المعاصرين أن للشمس في كل لحظة مشرقا ومغربا لأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس وهو دليل قرآنى على كروية الأرض . يبقى سر التعبير بالافراد والتثنية والجمع ويبدو - والله أعلم - ان الافراد جاء على الأصل من الاشارة الى طرفي الشئ كالمشرق والمغرب والمراد الأرض ، والسماوات والأرض ، والمراد الكون، أما التثنية في سورة الرحمن ، فهو للتناسب مع ثنائيات السورة - الشمس والقمر - النجم والشجر - البحرين اللؤلؤ والمرجان - الإنس والجان - والثقلان - ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وهذا يرشح رأى الرازى فيما ذكره من وجوه وهو مشرق الشمس والقمر ومغربهما ، أما آية المعارج فقد جاءت في سياق غاضب منكر على الكفار اسراعهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخذوا منه

ومن كلامه صلى الله عليه وسلم هزؤا " فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، " فجاء القسم المهول برب المشارق والمغارب وفي هذا الجمع تعظيم وإجلال للقوى المقتد رب كل شئ القادر على إهلاكهم والاتيان بخلق أمثل منهم " فلا أقسم برب المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين " أى بمغلوبين أن أردنا ذلك. والله أعلم وراجع : الشهاب ٢٤٧/٨ والرازى ٢١/٤ ، ٢٩ ، ٩٩ ، ١٣٢/٣٠ وتفسير المنار ٣٥٧/١.

ونعودالى الآيتين : وقالوا اتخذا الله ولدا سبحانه بل له مافى السموات والأرض ... الايتان ونلحظ هنا : أن ما ادعى باطلا من شريك لله سبحانه أولد وهو مقابل باطل معدوم يأتى فى القرآن فى أساليب تفيد نفيه وإنكاره وابطاله كالاستفهام الانكارى أو النفى الصراح أو منسوبا إلى قوله الكافرين وزعمهم : نحو : أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولايطعم " " لم يلد ولم يولد" " وقالوا تخذ الرحمن ولدا".

ثانيا : تأتى الادلة البرهانية علي أنه بديع السموات والأرض ويملك هذ الكون وما فيه فكيف يكون المملوك الناقص ندا أو ولدا للخالق المبدع سبحانه ويكثر فى القرآن هذا الدليل: وهو دليل الخلق والايجاد والابداع فى آيات كثيرة على وحدانية الله تعالى وتقدس.

والسموات والأرض بالجمع والافراد كناية عن الكون بذكر طرفيه الأعلى والاسفل.

ويكثر ذلك فى اثبات صفات الملك والقدرة والخلق والعلم والوحدانية ونحوها وصدق القرآن والرسالة في نحو مائة وثمان وثمانين موضعا ولم تتقدم الأرض الا فى موضعين الأول قوله تعالى : " يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات" وتبدل الأرض التى يعيش عليها الناس يوم القيامة أولى بالتقديم لارتباطهم بها.

كما قدمت الأرض فى قوله تعالى :
" قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات " لأن الأرض يعيشون عليها وبها ويعرفونها فهم ألصق بها من السموات ، والموضعان لم يأت فيهما السموات والأرض أو ما فيهما متعاطفين أما إذا جاءت السماء مفردة ومعها الأرض فالأكثر تقديم السماء ، لأنها جهة العلو ، ومهبط الوحي كقوله تعالى :
" وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين" وقال سبحانه : " ما من غائبة فى السماء والأرض الا فى كتاب مبين " فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون".

وتقدم الأرض على السماء اذا اقتضى المقام كأن يكون الخطاب للبشر أو يتعلق بأمر فى الأرض يهمهم أو كونه محسوسا معروفا لهم أو غرسا للمراقبة لله تعالى فى أعمالهم ، أو منا عليهم أو عيدا الى غير ذلك مما علاقة الناس فيه أقوى بالأرض ، وألصق ، كقوله " الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء " " البقرة" ومايعزب عن ربك

من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء " يونس " " يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء وما يعرج فيها " سبأ " راجع المعجم المفهرس.

وهناك ثنائيات قرآنية ، كالليل والنهار، والظلمات والنور والهدي والضلال. والحق والباطل ، والمغفرة العذاب على اختلاف فى كثرة ورودها ، أو قلته ، تأتى فى أغراض قرآنية عدة مع التصوير والتأكيد وقوة التأثير . وهى لاتبعد كثيرا عن الحياة والموت المعنويين، كما أنها تمثل قصة النور والظلمة حسيا ومعنويا ، قال الله تعالى : " ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، ومايستوى الأحياء ولا الأموات " والكفر والايمان جاءا فى الآيات فى معارض متنوعة بين عمى وبصر ، وظلمات ونور، وقدم العمى والظلمات المعنوية لأنها لاتستوى ولاترقى وهى سلب الى أفق البصر المدرك والنور الهادى ، ثم مافيها من زجر للضالين الذين يظنون مساواتهم للمؤمنين، هذا أسلوب قرآنى غالب فى العمى والظلمات في تقديم الأعمى على البصير والظلمات على النور ثم غير النسق فقدم الظل مرادا به ثواب الايمان والاحياء مرادا به المؤمنون لسبق رحمه الله ، والطمأنينة النفسية الى الظل الوارف ، والحياة المثمرة " وليكون الظل مع ماقبله علي نمط واحد ، فان العمى ، والظلمة والظل متناسبة " الشهاب ٢٢٣/٧ وتلحظ تكرار لا النافية لافادة الاستقلال تأكيدا شديدا لنفى الاستواء بين الكفر والايمان بل كرر فعل الاستواء منفيا بين الأحياء والأموات حسما للقضية وأن الضدين لايستويان ولايلتقيان.

والأعمى والبصر مثلان للكافر والمؤمن، جاءا مقرونين في خمسة أساليب، تجمعها نفي الاستواء صريحا أو على طريق الاستفهام " هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور " الرعد.

وقال تعالى: " الله ولى آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور، والذين كفورا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات "البقرة" وقد توقف العلماء عند الفعل "يخرج" مضارعا مع أن الذين آمنوا اخرجوا فعلا من الظلمات، والذين كفورا في ظلمات أبدا قال البيضاوى والشهاب: المراد بالذين آمنوا: من آراد ايمانه، وثبت في علمه تعالي أنه يؤمن والذين كفورا يخرجون من النور الذى منحوه بالفطرة الى الكفر وفساد الاستعداد " الشهاب ٢٣٦/٢ وهو أصوب الآراء، وتعبير من الظلمات الى النور " التزم فيها الفعل يخرج في ست وأخرج في واحدة مسندة إلى موسى عليه السلام: أن أخرج قومك من الظلمات الى النور، " سوره ابراهيم بينما أسند الفعل الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أربع مرات نحو قوله تعالى قبل آية موسى عليه السلام " كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور " سورة ابراهيم آية(١) بينما أسند الى رب العزة مرتين مرة في سياق بالصلاة والسلام على رسول الله وهو سياق ينبض بالرحمة والود: " هو الذى يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور " الأحزاب ".

والآية الثانية فيها قوة وجلال وجزالة ، وهى الآية الثالثة بعد آية الكرسى ولذا صدرت بلفظ الجلالة عناية رحمة وموالاة للذين آمنوا " الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات " ووعيدا طردا الذين كفرا الذين كثر أولياؤهم من الشياطين يخرجونهم الى دروب وسراديب من أنواع الظلمات وقد عكس التعبير " من النور الى الظلمات " وهو تعبير وحيد فى القرآن الكريم وتلحظ أن جملة المؤمنين بدأت بلفظ الجلالة ومن اسمائه "النور" وإنتهت بالنور ، فهى دائرة نور تحيط بالمؤمنين بينما الجملة المقابلة بدأت بالذين كفروا وهم فى أنفسهم ظلمة وانتهت بالظلمات جمعا ، فهى دائرة رهيبة من الظلام البهيم وقال الله تعالى " وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة " الإسراء .

والليل هو الأصل، والضياء طارئ عليه ، هذه الآية الكونية من دوران الأرض حول محورها . ثم دورانها حول الشمس بقدرة الرحمن عز وجل ، وتسخير هذا الكون وتكرار هذا التعاقب آية من آيات الخلق والقدرة ، بها تكون الحياة ولذا ارتبطت فى عديد من الآيات بخلق السموات والأرض ، وبالشمس والقمر " إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب " البقرة.

" وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار" ابراهيم .

وهذه الآية جاءت فى سياقات مختلفة منها اثارة التأمل والإعتبار والشكر والحمد على المنعم ذى الجلال والاكرام ، ثم المن على عباده بتسخير هذه الكائنات لتكون التقوى والتوحيد صافيا خالصا لله رب العالمين ، ثم الدعوة الي التفكير والنظر ولمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا".

وهذه الآية الكونية جاءت فى سياقات مختلفة من " اختلاف الليل والنهار . أو التسخير ، أو الجعل أو الخلق أو التقليب " يقلب الله الليل والنهار " وهناك آيات ترصد عملية تداخل النهار والليل ساعة الغروب حين يختلط الظلمة بالنور من الغرب الى الشرق ثم تمحوه شيئا فشيئا" يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا " وساعة الفجر تتقدم الأشعة من المشرق تغطى النجوم وتدفع الظلمة منحسرة الى المغرب حتى تمحى .

وقد عبر القرآن عن هذه الآية المتكررة العجيبة بالفعل " يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل".

والتكوير " يكور الليل على النهار ويكور النها على الليل " كما عبر عن ذهاب النهار بضوئه مظهرا الليل بلونه الأسود المخالف بالسلخ فى آية يس " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون".

وعـملية الايلاج تدل على طريقة تداخل أضـواء النهـار فى ظلمـات الليل وبالعكس بينمـا تدل عـمليـة التكوير علي انبـعـاث الضوء فى الأفق ثم يلف الأرض شيئا فشيئا أشبه بتكوير العمامة وكذلك انسحاب الضيا ء أمام الظلام الآتى من ناحية الغرب يطبق على الأفق وهذا لايكون الا اذا كانت الأرض علي هيئتها من الشمس تلك التي نراها ونقرؤها فى علوم الفلك وقد عد المحدثون هذا من الاعجاز العلمى للقرآن الكريم.

وبعد فان قصة النور والظلام حسيا ومعنويا من حيث التقابل والصراع أعمق وأوسع وأخصب وتحتاج بحثا ليس هذا موطنه والله المستعان.

* * * * * *

اذا كانت آية الليل النهار شاملة للزمن، وأنه لله خالق كل شئ ، فهناك تقابلات فى بعض أجزاء .الزمان ، بما يمثله من لون خاص ، ومن علاقة معينة بينه وبين الناس :

قال تعالى " والفجر وليل عشر ، والشفع والوتر والليل اذا يسر: وقال سبحانه " والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وما قلى " والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها" " والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى" وتلحظ أن شدة الضوء وضجيج الحياة انما يبلغ ذروته فى الضحى وضحاها ، والنهار اذا تجلى أو جلاها " الشمس " وان الظلمة حين يتقدم الليل ، وتسيطر على الزمان والمكان فيسكن الخلق ، لا حركة لا نشاط " الليل اذا سجى ، اذا يغشاها ، اذا يغشى اذا يسرى " وهى أقسام تلفت الى مافيها من آيات وعبره وتبعث على التأمل والخشوع.

وهذه المتقابلات زمانا ومكانا كنايات عن الاحاطة ، فالسموات والأرض كناية عن كون الله الوسيع ، والمشرق والمغرب كناية عن الأرض ، وما فى السموات وما فى الأرض كناية عن خلق الله ، والانس والجن كناية عن المكلفين من الخلائق ، والليل والنهار كناية عن الزمان والمكان، النص على جزء من الزمان لفت الى مافيه من آيات باهرة ، ثم تناسبامع المقام فالضحى والليل اذا سجى ترمز الى نزول الوحى متواترا وغبطة النبى صلى الله عليه وسلم.

بذلك بعد انقطاعه ونعيير قريش بأن ربه تخلى عنه ، وظلمه الليل مناسبة لهذه الحالة النفسية التى جاءت بين الضحى فى اشراقه

القوى وبين نفى أن يكون " ربك " بهذا الخطاب للمؤنس ودعه صلي الله عليه وسلم.

وفيما سبق وغيره يلتقى الضدان ليكونا فكرة مرادة فى اثبات السلطان المطلق ، والقدرة النافذة . والقهر المهيمن لله رب العالمين، الذى يغير ولايتغير ومنه قوله تعالى : " ربنا انك تعلم مانخفى ومانعلن " " عالم الغيب والشهادة " " ويعلم مافى البر والبحر" "يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، ومايتزل من السماء ومايعرج فيها" كناية عن العلم المحيط الدقيق لكل خلقه ، وفيه وعيد لمن عصى .

واذا كانت آية يس ٣٦: " سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون " دالة على عظم قدره الله واتساع ملكه وأن لله تعالي خلقا لم يجعل للبشر طريقا الي العلم به " قال فى الكشاف" ولو كانت بهم اليه حاجة لاعلمهم بما لايعلمون ، كما أعلمهم بوجود مالايعلمون " فى الحديث " مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر علي قلب بشر " فأعلمنا بوجوده واعداده ، ولم يعلمنا به ماهو " الكشاف ٣٢٢/٣.

اذا كانت الآية عامة فى الخلق ، فهذا الخلق نفسه موزع بين ذكر وأنثى " وماخلق الذكر الأنثى" .

" وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثي " وهو شامل للإنسان والحيوان والنبات حتى الذرة ومايدور حول نواتها من جسيمات متلازمة كما ذكر العلم الحديث فيه الايما ء الى القدرة المقتدرة والخلق البديع وأنه وحده مالك الملك والملكوت .

وقد أشار الأستاذ سيد قطب فى التصوير الفنى الى ألوان من التقابل فى القرآن ومنها توارد حالين متقابلين على بعض النماذج البشرية كما فى سورة الهمزة :

قال تعالى " ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة انها عليهم مؤصدة ، فى عمد ممدة".

فحال الذى يهزأ من الناس ساخرا لامزا متعاليا - وهو نموذج يكثر فى كل وسط - وبخاصة اذا كان غنيا يقابلها حالة نفسه وهو منبوذ فى الحطمة تحطم كبريا ءه تطلع على فؤاده مبعث الهمز واللمز لتشفيه ممابه الحطمة المغلقة التى لاينقذه منها منقذ لايهتم به أحد (١)
والتقابل هنا فى الزمن وصفات العز المدعى والمال وبين صفات الاذلال - والاهانة والفقر العريض والعميق.

---

(١) التصوير الفنى ٨٨ .

مقابلات الحالات :

قال الله تعالى (أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أو لم يروا إنا نسوق الماء الى الأرض الجزر فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرن).

فقد طابق أولا قوما ماتو بعد حياة لقوم يعيشون بعدهم فى أماكن ثابتة، ثم قابل فى ومضه بين تعاقب الحياة والعمران على قرى هلك من فيها واندثر ، وبين زرع وحياة متفاعلة من أرض قاحلة ميتة فالتقابل بين لونين من الحالات ونوعين من الاحياء وموقفين متفاعلين تذكره وعبره ودعوة إلى الله[1].

بل أرأيت كيف كان الطباق وسيلة برهانية جدلية لاثبات الوحدانية كقوله تعالى :" ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك " إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر).

ثانيا : قد يؤدى الطباق لونا فنيا زاهيا مشعا إذ يتعانق مع المجاز أو الكناية فى نفس الألفاظ فيكون التركيز المؤثر ....

---

(١) التصوير الفني ٨٨.

قال تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانا مهتدين).

(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغون يخرجونهم من النور الى الظلمات).

فالضلال والهدى سلعتان والموت والحياة والنور النافذ والظلمات المتراكية المحسوسة رموز ناطقة للهدى والضلال ثم هل لحظت الحلقات القرآنية أو الدوائر عدم الهداية يلتحم بالضلالة والظلمات بالموت فى الثانية وهما ضلال والظلمات بالظلمات فى الثالثة : تبارك الله.

ا - التقابل الزمنى :

للقرآن اسلوب فريد فى جمع زمنين من الثلاثة أو كلها فى لمحة أو بكلمة رغم البعد بين الازمان فالدنيا والآخرة حاضرتان يتواثب بينهما الخيال بين حاضر مرئى وآت غيبى ، كأنه قد محى الزمان فلا زمان . إن فكرة الزمن بشرية تثقل كاهل الانسان أنظر قوله تعالى "ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابه وهو على جمعهم إذا يشاء قدير".

فالدواب المبثوثة فى السموات والأرض افنانا على مدي يضل فيه الخيال تجمع كلها وتنكمش رقعتها فى مدى مرئى منظور وأقرأ:

قوله تعالى " هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، إنا خلقنا الانسان من نطفه أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ، إنا هديناه السبيل أما شاكرا إما كفورا ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلال وسعيرا إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا" .

فهاهو ذا الانسان يتقلب فى صور أكثر من ثلاث ، تقابل بين الإنسان حاضرا وماضيا بعيدا حين كان عدما ثم التقابل بين ماض غير بعيد وهو نطفه امشاج لاتسمع ولاتبصر وبينه سميعا بصيرا ثم مقابله سلوكية بينه شاكرا وكافرا وعلى ذكر الكفر تأتى الآخرة : ألوان من عذاب حسى ونفسى لكافرين، تقابل الأبرار منعمين حسيا نراهم يتناولون كئوسهم المعطرة فى هدوء ونعيم والمقابلة بين صور النعيم والعذاب فى الآخرة أكثر من أن تذكر ويمكنك مراجعتها فى مشاهد القيامة للمرحوم سيد قطب.

والآية " إنا خلقنا الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين " فالصورة الحاضرة - هى صورة الانسان الخصيم المبين والصورة الماضية هى صورة النطقة الحقيرة وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة فى تصرف الانسان ولذا وجعل الصورتين متقابلتين وأغفل المراجل بينهما لتدى المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص بالتقابل المثير بين حال وحال[1].

---

(١) التصوير الفنى ٨٤.

فالمقابلات بما تثيره من مشاعر ، وما تؤديه من رعب ورهب وتصوير مضاد من الأساليب التربوية الفنية والنفسية.

وكثيرا مانجد تقابلا زمنيا يتتابع وحالات تتغير ومواقف تختلف والمتحدث عنهم أو الشخصيات هي هي ثابتة وتأمل: قوله تعالى : " لآدم وحواء ولإبليس" : " قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتيكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى).

فقد جمع بين ابليس وآدم وحواء وقابل بين حاضر آدم وحواء وبين المستقبل القريب .

وقال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، اعملوا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون).

فقد جاء التمثيل ليقابل أحياء الأرض بعد موتها تصويرا للإيمان بعد عدمه بقلوب مرجو لها الذكر والخشوع بعد الغفلة والقسوة.

وقال تعالى :

" وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهي رميم؟

قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو يكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون".

فهناك حالتان متقابلتان الثانية دليل على الأولى البعث واحياء العظام وانبعاث النار من ضدها شجر اخضر ، وتكثر هذه المقابلات المؤثرة بين أقوام كذبوا الرسل فأصبحوا هالكين ، بين حياة وجدال وتكذيب وبين موت وهمود اثارة للعبر بهذا التصوير البالغ ووعيد لمن عميت بصيرته ، وأبعد فى الضلال كقوله تعالى فى عاد قم هود عليه السلام :
(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) وفى ثمود قوم صالح عليه السلام :
(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها).

وفى قوم لوط عليه السلام (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك) وفى مدين قوم شعيب عليه السلام (وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها) تتبع مصارع الاقوام فى سور الاعراف والقصص والشعراء مثلا تجد مقابلات تنبض بالتأثر والعظة والقهر الراجف وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم (شيتنى هود واخواتها).

التقابل بين النماذج البشرية :

وقد تقدم منه الكثير هو عديد لاحصر له بين مؤمن وكافر أو مؤمن ومنافق ، وبين أهل الجنة والنار ، والرسل واقوامهم والمستضعفين والمتكبرين ، وموسى وفرعون ، والجن ، والانس والملائكة ، فكل نوع بخصائصه وسماته يعد نموذجا فريدا ونكتفى بهذه النماذج : قال الله تعالى :

للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كانما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) .

(يوم تبيض وجوه وتسود جوه فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) .

(وأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) .

وتلحظ أن النموذج الأول (الذين احسنوا) انطوى تحته سبع مقابلات :

الذين كسبوا - السيئات - جراء سيئة بمثلها - ترهقهم ذلة - مالهم عاصم - اغشيت وجوهم- أصحاب النار . يقابلها : الذين احسنوا - الحسنى - زيادة - لايرهق وجوههم قتر - ولاذلة - اصحاب الجنة . وقد تداخل مع المقابلة : التقديم وحذف مايقابل - مالهم من الله من عاصم . اكتفاء والتصوير بالمجاز والتشبيه مع الظلال العديدة والايحاءات المديدة والأصوات المطوطة ودقة البناء والمقابلة فى الآية الثانية حسية فى الألوان نفسية فى التكريم وتوبيخ بين نموذجين وكذلك الثالثة . وراجع سورة الليل ففيها الكثير.

وهذه النماذج، والحالات المتقابلة كالتقابل بين المؤمنين وصفاتهم وجزائهم وبين الكافرين وسياستهم وجزائهم ، أو مشاهد النعيم ، ومشاهد العذاب قد تأتى معطوفة موصولة وقد تتوالى مفصولة دون عاطف لأن التلازم بين الحالتين فى العقل والواقع يثير سؤالا هذا حالهم فما بال مقابلهم فهو من شبه كمال الاتصال اشباعا لتطلع نفس وعقلى.

كالآيات فى أوائل سورة البقرة فقد ذكر المتقين وصفاتهم ، وجزاءهم " أولئك على هدى من ربهم وأولئك المفلحون ... ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون".

وقد ادركت مما مر بك أن أساليب الطباق لاتنفصل عن أساليب الاداء البلاغية الأخرى ، بيانا أو معانى أو بديعا تأمل قوله تعالى "مثل الفريقين كالأعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا

" فقد جمع " الفريقين" ثم فرق " الاعمى والأصم والبصير والسميع ، مع الإيجاز بحذف الفريق الأول والثانى ، والمقابلة التى جعلتهما ماثلين فى الحس والخيال ، مع الانسجام الصوتى الهادى ، كل ذلك فى اطار من التمثيل لحال المؤمن والكافر ، ثم أتبع الخبر باستفهام انكارى مثير.

وجمع ماتفرق ، ورد العجز على الصدر بكلمة "مثل" فكانت الآية حلقة متماسكة تشع اعجازا وجمالا وجلالا.

وقد سبق أن بينت أن الطباق والمقابلة فى القرآن الكريم تحتاج جهودا صابرة ومراجعات دقيقة لأنها تدخل فى أسرار التراكيب ودلالات الالفاظ ، ومواقعها ومايعتريها من كيفيات بلاغية كالافراد والجمع ، والتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير الى غير ذلك من الدراسات الخصبة التي تثري العلم والله الهادى الى سواء السبيل .

توجهات أبى جعفر النحاس النحوية والتصريفية
من خلال "إعراب القرآن"

بقلم الدكتور

أحمد محمد السعيد نافع

أستاذ اللغويات المساعد فى الكملية

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو جعفر النحاس :

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادى المصرى، المعروف بالنحاس[1] ت سنة ٣٣٨هـ ثالث ثلاثة ازدان بهم القرن الرابع الهجرى بمصر، وواحد من الذين تطورت على أيديهم الدراسات النحوية، ليس فى مصر وحدها، بل فى العالم الاسلامى المعروف آنذاك.

ويعتبر النحاس من أساطين الدراسات النحوية، ومن أعمدتها الأساسية، ويمكن أن يقرن بالزجاج وابن كيسان ونفطويه فهو لا يقل عنهم من حيث غزارة الانتاج ولا من حيث نوعيته، بل إننا نقول : إنه فاق بعض أساتذته كنفطويه.

وللنحاس مؤلفات متنوعة تمثل معارف عصره وما بعده فقد ألف فى اللغة والنحو والأدب والحديث والفقه وعلوم القرآن منها المطبوع ومنها المخطوط ومن أهمها:

١- إعراب القرآن وهو موضوع بحثنا هذا.

٢- شرح أبيات سيبويه، وقد قام بتحقيقه الدكتور زهير غازى زاهد

٣- القطع والائتناف.

---

(١) انظر فى ترجمته: ابناه الرواه للقفطى ١٠١/١، ١٠٤، وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٣١/١ وفيات الأعيان لابن خلكان ١ /١٠٨٢. الأنساب للسمعانى ٥٥٥، طبقات النحاة لابن شهبه ١٠٠ نزهة الألباء ٢١٧، سير أعلام النبلاء للذهبى ٩٩/١٠.

٤- معانى القرآن.

٥- كتاب التفاحة فى النحو.

٦- شرح القصائد التسع المشهورات.

٧- الناسخ والمنسوخ فى القرآن ١٣٢٣هـ مطبعة السعادة بمصر.

وله أيضا كتب كغيره مفقوده نص عليها أصحاب التراجم.

وهذا، ولم تذكر المصادر التى ترجمت له سنة ميلاده، ولا أطوار حياته الأولى، والذى اتفق عليه أنه ولد فى مصر وتوفى فيها

رحلته العلمية:

تكاد المصادر التاريخية تجمع على أن النحاس رحل إلى بغداد وأخذ العلم عن شيوخها أصحاب المبرد من البصريين، وأهمهم أبو اسحاق الزجاج (٣١٠هـ- أو ٣١٦) وعلى بن سليمان الأخفش ت ٣١٥هـ ولقى من الكوفيين نفطويه إبراهيم بن محمد بن عرفة ت ٣٢٣هـ، كما أخذ عن ابن كيسان ت ٢٩٩، وابن شقيرت ٣١٥هـ فقد تلقى علم النحو عن شيوخ كانوا يمثلون التيارات النحوية المختلفة - التيار البصرى- المتمثل فى تلاميذ المبرد، والتيار الكوفى المتمثل فى نفطويه، والتيار البغدادى الذى خلط بين التياريين كابن كيسان وابن شقير، إلا أن صاحبنا هذا كان أميل إلى التيار البصرى فكان يحتكم الى قد هبهم في تعليلاته ورواياته.

ويقال إنه عاد إلى مسقط رأسه مصر بعد أن أخذ عن شيوخه ثم بدأ يشتغل بعلوم التفسير والحديث والقراءات[1] فأخذ عن

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٨٢/١، وانباه الرواة ٢٢٤/٣

النسائى أحمد بن شعيب أحد أئمة الحديث الحفاظ ت (٣٠٣هـ) وبكر بن سهل الدمياطى المحدث ت ٣٨٩هـ والطحاوى أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى ت ٣٢١هـ.

أخلاقه:

عرف عن ابن النحاس أنه كان متواضعا فقد ذكر الزبيدى أنه كان لا يتكبر أن يسأل الفقهاء وأهل النظر ويناقشهم عما أشكل عليه فى تأليفه، وكان على منزلته يحضر حلقه ابن الحداد الفقيه الشافعى ت ٣٤٤هـ ليلة كل جمعة، وكان يتكلم فيها عنده فى مسائل الفقه على طريق النحو.

وكان النحاس يرمى بالبخل، وهي صفة كانت فى خلق كثير من علماء عصره وقيل أنه كان إذا وهب عمامة قطعها ثلاثة عمائم بخلا.. وذلك قد يكون من أثر الفقر وعسر الظروف.

وفاته:

ذكر ابن خلكان أن أبا جعفر النحاس توفى بمصر يوم السبت لخمس خلون من ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائه، وقبل سنة سبع وثلاثين.

إعراب القرآن:

يحتل هذا الكتاب مكانة كبيرة من الدراسات النحوية ويقف فى المرتبة الأولى فى قائمة كتب النحاس مع كتابيه "القطع والائتناف" و"شرح القصائد التسع" وهذا الكتاب يتناول "إعراب

القرآن" من أول البسملة التى تسبق سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس، والمطلع على الكتاب يرى أنه لم يتناول كل الآيات بل ترك بعضها، إما لأن في القرآن ما يشابهها فى الإعراب، وإما لأنها ميسرة لا إشكال فيها ولا صعوبة بحيث لا يصعب على القارئ فهمها وهو كتاب ضخم يقرب من ٣٢٥ ورقة ويوجد منة نسخة مصورة بمعهد المخطوطات برقم (١٥ تفسير) وأخرى تحت رقم (١٤ تفسير) وقد ذكر المؤرخون هذا الكتاب عند ترجمتهم لصاحبه وأول من ذكره أبو بكر الزبيدى ت (٣٨٩هـ) كما ذكره القفطى - أيضا - فى كتابه انباه الرواة إذ يقول : "وله مصنفات في القرآن منها : كتاب الإعراب، وكتاب المعانى، وهما كتابان جليلان أغنيا عما صنف قبلهما فى معناهما"[١].

هذا، وقد ذكره الامام القرطبى فى تفسيره، عشرات المرات ولعل منه كثيرا.[٢]

منهجه :

أشار أبو جعفر النحاس فى مقدمه كتابه (إعراب القرآن) إلى أصول منهجه فقال : "هذا كتاب نذكر فيه إن شاء الله إعراب القرآن والقراءات التى تحتاج أن نبين إعرابها والعلل فيها ولا أخليه من اختلاف النحويين وما يحتاج فيه من المعانى وشرح لها، وما أجازه

---

(١) انباه الرواة ١٠١/١.

(٢) انظر تفسير القرطبى ٢١٦/١، ٢١٩، ٢٢٢، ٢٤٣، ١٦/٢، ٢٤، ٣٨، ٥٥.

بعضهم ومنعه بعضهم من المجموع واللغات، ونسب كل لغة إلى أصحابها، ولعله يمر الشئ غير مشبع فيتوهم متصفحه أن ذلك إخلال، وإنما هو لأن له موضعا غير ذلك ومذهبنا الإيجاز والمجئ بالنكته فى موضعها من غير إطالة وقصدنا فى هذا الكتاب الإعراب وما تشاكله بعون الله وتوفيقه".

فالخطوط العامة للمنهج الذى سار عليه ابن النحاس فى كتابه هى :

١- إيضاح الإعراب وما شاكله.

٢- بيان اختلاف النحويين.

٣- بيان القراءات وتعليلها.

٤- بيان ما يحتاج إليه من المعانى.

٥- اللغات فى القرآن الكريم، ونسبة كل لغة إلى أصحابها.

٦- اختلاف العلماء فى إجارة بعض اللغات

وبايجاز شديدا استطيع أن أقول أن أهمية كتاب إعراب القرآن تنحصر فيما يأتى :

أولا : أنه يعد من أعظم المصادر التى احتوت الكثير من آراء النحاة السابقين عليه والذين فقدت كتبهم أو معظمها أمثال الخليل بن احمد ت ١٧٠هـ، ويونس بن حبيب ت ١٨٣هـ والكسائى ت ١٨٩هـ، والقراءات ٢٠٧هـ، والزجاج ت ٣١١هـ، وابن كيسان ت ٣٢٠ هـ وغيرهم.

ثانيا: أنه مصدر من مصادر النحو واللغة والقراءات، ويعد هذا السفر العظيم أول مصنف وصل إلينا فى تعليل القراءات والبسط فى عللها.

ثالثا: أنه مصدر من مصادر اللهجات العربية يعتمد عليه الباحثون فى اللغة لما يمتاز به من استقصاء لبعض مسائل اللغة.

ولهذا صار هذا الكتاب عمدة الباحثين لا يستغنى عنه باحث فى اعراب القرآن، وقد ترسم خطاه من جاء بعده أمثال :

١- مكى بن أبى طالب القيسى ت ٤٣٧ فى كتاب (مشكل إعراب القرآن).

٢- ابو البركات الأنبارى ت (٥٧٧)هـ.

٣- محمد بن أحمد بن أبى بكر القرطبى ت ٦٧١ فى تفسيره وقد استشهد بكثير من الشعر العربى الموثوق بفصاحته وروايته فاستشهد بالشعر الجاهلى لامرئ القيس والأعشى وزهير والنابغة وطرفه، ولبيد، وعمرو بن معد يكرب وغيرهم كما استشهد بما قاله الشعراء المخضرمون أمثال حسان بن ثابت والخطيئة، وكعب بن زهير، والنابغة الجعدى، وابن مقبل وغيرهم كما استشهد أيضا بالشعراء الذين أدركوا جزءا من الدولة الاسلامية والأموية أمثال الفرزدق وجرير ورؤبة، وذو الرمة والعجاج وعمر بن أبى ربيعة والأخطل وغيرهم.

ومن خلال قراءتى لكتابه (إعراب القرآن) تبين لى أنه حقا - كما قال القفطى أغنى عما صنف قبله فى هذا المجال. فقد جمع آراء النحويين من المذهب البصرى، من أمثال أبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد وسيبويه، والأخفش سعيد بن مسعده والمازنى والجرمى والمبرد، والنحويين الكوفيين من أمثال الكسائى والفراء وثعلب والنحويين المجتهدين من أساتذته من أمثال ابن كيسان، وابن شقير وأبى الحسن على ابن سليمان الأخفش الصغير، وأبى اسحاق الزجاج وأمثالهم، جمع آراءهم ودرسها وفحصها وناقشها فأيدها أوردها أو دافع عنها أو شرحها واحتج لها.

ومن هنا كان الكتاب حقا من أعظم الكتب التى درس النحو العربى بمدارسها المختلفة فى ضوء القرآن الكريم واعرابه.

ولاشك أن هذه المادة النحوية العظيمة الموثوقة التى جمعها النحاس فى هذا الكتاب لها أهميتها الكبيرة فى مجال الدرس النحوى، وأن دراسة اتجاهات النحاس النحوية والتصريفية فى كتابه هذا ستسفر - باذن الله تعالى - عن استكشاف شخصية النحاس النحوية وآرائه ومناهجه فى قضايا النحو المختلفة، كما ستطلعنا على كثير من الآراء والمذاهب والمناهج النحوية للنحويين الكوفيين والبصريين والمجتهدين الذين لم يصلنا من آرائهم ومؤلفاتهم إلا القليل، ويكون هذا الكتاب من أوثق مصادر تلك الآراء "وقد اعتمد أبو جعفر النحاس على كثير من المصادر فى كتابه (إعراب القرآن) منها مصادر نحوية ومصادر لغوية وتفسيريه كما اعتمد على رجال أخذ عنهم مباشرة. ونلقي الضوء على هذه المصادر:

المصادر النحوية :

لقد اعتمد على كتب ألفها النحويون من قبله، فنقل منها ومن أهم هذه الكتب كتاب سيبويه الذى كثر اعتماد النحاس عليه ونقله منه فلا تكاد تخلو مناقشة من مناقشاته من نقل من الكتاب، سواء كان المنقول نصا أو رأيا أو شاهدا أو نحو ذلك.

ومن المؤلفات النحوية التى اعتمد عليها ونقل منها فى توجيهاته "كتاب المسائل الكبير" للأخفش سعيد بن مسعدة، ومن أمثلة ذلك قوله في : قوله تعالي :"ان الذين آمنوا [١]...) اسم "ان"، (الذين هادوا) عطف عليه و(الصائبون) وقرأ سعيد بن جبير (والصابئين) بالنصب [٢] والتقدير (إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله منهم وعمل صالحا لهم أجرهم، والصابئون والنصارى كذلك.

... وقال الكسائى - والأخفش ذكره فى "المسائل الكبير" (والصابئون) عطف على المضمر الذى فى (هادوا) [٣].

ومنها كتاب "ما يتصرف وما لا يتصرف" لاستاذه أبى اسحاق الزجاج فقد نقل عنه فى بعض المواطن، مثل قوله :"وحكى أبو اسحاق

---

(١) آية ٦٩ من المائدة

(٢) وهى أيضا قراءة الجحدرى انظر المحتسب ٢١٧/١.

(٣) اعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣١، ٣٢.

فى كتابه فيما يجرى وما لا يجرى أنه يجوز أن يقول "طسين ميم"، يفتح النون وضم الميم، كما يقال (هذا معد يكرب يا هذا) [(١)].

ومن هذه المؤلفات كتاب "المقصور والممدود" للفراء، ومن أمثلة نقله عند قوله :"وواحد "الاناء" : إنى، لا يعرف البصريون غيره، وحكى الفراء فى واحد الإناء "إنى" مقصورة واحد "الآنية" اناء ممدود، وللفراء فى هذا الباب فى كتاب "المقصور والممدود" [(٢)] أشياء قد جاء بها على أنها فيها مقصور وممدود مثل الإناء والآنى، والوراء والورى، وقد أنكرت عليه، ورواها الأصمعى وابن السكيت والمتقنون من أهل اللغة على خلاف ما روى، والذى يقال فى هذا أنه مأمون على ما رواه، غير أن سماع الكوفيين أكثره من غير الفصحاء" [(٣)].

ومن المؤلفات النحوية التى نقل عنها النحاس فى هذا الكتاب المصادر فى القرآن للفراء، مثل قوله :"قال أبو حاتم : وسمعت يعقوب يذكر "كدأب" بفتح الهمزة، وقال لى ، وأنا غليم : على أى شئ يجوز "كدأب"، فقلت : أظنه من "دئب يدأب دأبا"، فقبل ذلك منى، وتعجب من جودة تقديرى على صغرى ولا أدرى أيقال ذلك أم لا قال أبو جعفر: هذا القول خطأ، لا يقال ألبتة "دئب" وإنما يقال : "دأب يدأب دؤبا ودأبا"، هكذا حكى النحويون، منهم الفراء، حكى

(١) انظر ما ينصرف ومالا ينصرفه ص ٦٣.

(٢) طبع الكتاب بعنوان (المنقوص والممدود) أنظر ص ١٢، ١٩.

(٣) انظر إعراب القرآن ٣/ ٦٠.

ذلك في كتاب المصادر أما الدأب فانه يجوز، كما يقال : شعر وشعر ونهر ونهر، لأن فيه حرفا من حروف الحلق".

وقد نقل عن عدد من أئمة النحو، مثل قطرب، والجرمي، والمازني، وأبي حاتم السجستاني، والمبرد وآخرين من غير إشارة الى الكتب التي ينقل منها آراءهم وكلامهم، عن طريق الروايات.

مصادر لغوية :

كما أعتمد النحاس على مؤلفات لغوية تتعلق بتوجهاته النحوية أو التصريفية ومن هذه كتاب العين للخليل بن أحمد، ومن أمثلة نقله منه قوله ".. وقد ذكرنا معناها، إلا أن في كتاب العين للخليل رحمه الله أن أصلها "هل أؤم"، أي أهل أقدمك، ثم كثر استعمالهم أياها حتى صار المقصود بقولها، كما أن "تعالى" أصلها أنه بقولها المتعالي للمتسافل، فكثر استعمالها اياها، حتى صار المستافل يقولها للمتعالي.

ومن المؤلفات اللغوية التي نقل عنها كتاب الغريب المصنف، ومثاله : قوله في أثناء مناقشات التوجيهات التصريفية للكلمة "قرن" بفتح القاف من قوله تعالى :"وقرن في بيوتكن"[1] ... فاما (وقرن) فقد تكلم فيه جماعة من أهل العربية فزعم أبو حاتم أنه لا مذهب له في كلام العرب، وزعم أبو عبيد أن أشياخه كانوا ينكرونه من كلام العرب. قال أبو جعفر أما في قول أبي عبيد إن

---

(١) آية ٣٣ من الأحزاب.

أشـيـاخـه انكروه، ذكـر هذا فى كـتـاب القـراءات، فـانه قـد حكى فى "الغـريب المصنف" نقض هذا، حكى عن الكسـائى أن أهل الحـجـاز يقـولون (قـررت فى المكان أقـر) والكسـائى من أجل مـشـايخـه، ولغـة أهل الحجاز هى اللغة القديمة الفسيحة. (١)

وقد ينقل شواهد نحوية من مؤلفات اللغويين، إلا أنه لا يصرح باسم الكتـاب كـقـوله :"ونسق الكلام يدل على ذلك، لأن قـبله (إذا اكـتـالوا على الناس) (٢). فـيـجب أن يكون بعـده (وإذا كـالوا لـهم)، وحذفت اللام، كما قال - أنشده أبو زيد :

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا ولقد نهيتك عن بنات الأوبر (٣)

كتب المعانى والتفسير :

ومن أهم مـصـادر النحـاس فى هذا الكتـاب كـتـب ألفت فى معانى القـرآن الكريم وتفسيره، ومن هذه الكتب معـانى القرآن للفراء، فـقد أكـثـر النقل عنه، فـلا تكاد مناقـشـاته تخلو من نقل عن الفـراء. أحيانا يصرح بأنه ينقل عن كتابه فى القرآن مثل قوله :"وحكى الفراء

---

(١) ٣/٣١٣، ٣١٤.

(٢) آية ٢ من المطففين.

(٣) استشهد به غير منسوب فى مجالس ثعلب ٢/٦٢٤ تفسير أرجوزه أبى نواس ١٩٢ والمعنى رقم ٧١ والمقـاصـد النحـوية ١/٤٩٨ والنحاس فى ٥/١٧٤.

(من قبل ومن بعد) مخفوضين بغير تنوين وللفراء فى هذا الفصل فى كتابه في القرآن أشياء كثيرة، الغلط فيها بين، فمنها أنه زعم أنه يجوز (من قبل ومن بعد، كما قال الشاعر :

الا علالـــة أو بداهـة سابـح نهـد الجـــزارة(١)

وكما قال :

يا من رأى عارضا اكفكفه بين ذراعى وجبهة الأسد(٢)

والغلط فى هذا بين لأنه ليس في القرآن لله الأمر من قبل وم بعد ذلك : فيكون مثل قوله : بين ذراعى وجبهة الأسد(٣).

وكثير ما ينقل عن الفراء دون ذكر الكتاب الذى ينقل منه فيكتفى بمثل قوله "زعم الفراء" (ينظر مثــلا ٤/٢٦٦، ١/٢٩٤)؛

---

(١) ذكره ابن النحاس فى ٢٦٣/٣ وهو للاعشى ميمون بن قيس وانظره فى ديوانه ١٥٩ وسيبويه ٩١/١ والخزانه ٨٣/١، ٢٤٦/٢، ١٣١ وقد استشهد به على الفصل بين المتضايفين باسم يقتضى الاضافة أيضا وانظر معانى القرآن للفراء ٣٢٢/٢.

(٢) فى رواية سيبويه ٩٢/١ : يا من رأى عارضا أسربه، وهو للفرزدق وأنظره فى الديوان ٢١٥ وشرح الشواهد للشنتمرى ٩٢/١ وإعراب القرآن ٢٦٣/٣ والخزانة ٢٤٦/٢ ومعانى القرآن للفراء ٣٢٢/٢ ورواية الفراء (يا من يرى ..)

(٣) انظر اعراب القران ٢٦٣/٣.

"قال الفراء" (ينظر مثلا ١/ ٢٢٥، و ١/ ٢٦٣، و١/ ٢٧٠، و١/ ٢٩١)، "عند الفراء" (ينظر مثلا ٣/ ٢٤٠، و٢٩٢ ٤٤) ونحو ذلك، والظاهر أنه ينقله من "معانى القرآن".

ومن مؤلفات المعانى والتفسير كتاب معانى القرآن وإعرابه للزجاج، فهو من أهم مصادره التى اعتمد عليها في موقفه من النحاة فقد يصرح بأنه ينقل من "كتاب أبى اسحاق" كقوله : (إذا) في موضع نصب، والمعنى (واذكر)، وحكى أبو اسحاق فى كتابه[1] فى القرآن أن "إذ" فى موضع نصب بـ "أتينا"، وأن المعنى (ولقد آتينا لقمان ......وإذ قال)[2].

ونحوه قوله :"قال أبو اسحاق: من قرأ (السلاسل) بالخفض فالمعنى عنده (وفى السلاسل يسحبون وفى الحميم والسلاسل) وهذا فى كتاب أبى اسحاق فى القرآن كذا، والذى يبين لى أنه غلط.[3]

وفى الغالب يكتفى بمثل قوله "قال أبو اسحاق" (ينظر مثلا ٢/ ٣٦٣، و ٣٤١ ٤)، أو "زعم أبو اسحاق" (ينظر مثلا ٣/ ٣٥٢)، أو نحو ذلك من العبارات، والظاهر انه ينقل كثيرا من هذه النقول عن الزجاج من كتابه "معانى القرآن واعرابه، مما يقتضى التوثيق[4].

---

(١) معانى الزجاج ورقة ٦٦٦ أ واعراب القرآن ٣/ ٢٨٤.

(٢) آية ١٢ من لقمان .

(٣) معانى القرآن ٤٤ ب.

(٤) أنظر مثلا فى إعراب القرآن صفحات: ١/ ١٦٦، ١٧١، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٢، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٧٢، ٢٢٤، ٢٢٥، ١١٣، ١٢٤، ٢٢٧، ٢٥١، ٢٧٩، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣/ ٣٢٤، ٣٢٥.

وفى إعراب قوله تعالى :"لكن الراسخون فى العلم منهم" (١)
وقال الكسائي :(والمقيمين) معطوف على (ما) ونقل ما قاله الطبرى اذ يقول "قال أبو جعفر هذا بعيد، لأن المعن يكون (يؤمنون بالمقيمين) وحكى محمد بن جرير أنه قيل :انه المقيمين هنا الملائكة عليهم السلام لدوامهم على الصلاة والتسبيح والاستغفار واختار هذا القول، وحكى أن النصب على المدح بعيد، لأن المدح إنما يأتى بعد تمام الخبر، وخبر (الراسخون فى العلم) فى (أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما) ، فإنة ينتصب على المدح، ولم يتم خبر الابتداء، لأنه جعل (والمؤتون) عطفا، وجعل الخبر ما ذكر" (٢).

وعند قوله تعالى "فطرة الله التى فطر الناس عليها"
ذكر اقول الزجاج تعالى :"قال أبو اسحاق : (فطرة الله) نصب بمعنى (اتبع فطرة الله) كما نقل قول ابن جرير فقال : قال محمد بن جرير : (فطرة) مصدر من معنى (فأقم وجهك)، لأن المعنى ذلك (فطر الله الناس على ذلك فطرة) (٣) .

وقد نقل النحاس كثيرا عن الأخفش سعيد بن مسعدة الا أننى لم أجده يصرح بانه ينقل من كتابه "معانى القرآن" إلا أن الظاهر أن أغلب هذه النقول من "معانى القرآن" للأخفش.

---

(١) آية ١٦٢ من النساء.
(٢) انظر ١/٥٠٤، ٥٠٥.
(٣) انظر ٣/٥٠٤، ٥٠٥.

اعتماد على كتب القراءات :

ومن اهم مصادر اعتماد النحاس فى هذا الكتاب "كتب القراءات منها "كتاب القراءات" لابن عبيد القاسم بن سلام، اذا أكثر من النقل عنه فى بيان القراءات أو توجيهها أو تلحينها أو تضعيفها أو الدفاع عنها .

فعند قوله تعالى :"وقرن فى بيوتكن يقول: قرئت بكسر القاف وهذه قراءة أبى عمرو والأعمش وحمزة والكسائى، وقرأ أهل المدينة وعاصم (وقرن) بفتح القاف[1].

و(قرن) بكسر القاف فيه تقديران، أما مذهب الفراء وأبى عبيد فإنه من الوقار ويقال وقر يقر وقورا اذا ثبت فى منزله، والقول الآخر أن يكون من (قر) في المكان يقر بكسر القاف، فيكون الأصل وقررت حذفت الراء الأولى استقالا للتضعيف والقيت حركتها علي القاف فصار وقرن كما يقال : ظلت أفعل بكسر الظاء. فأما و(قرن) فقد تكلم فيه جماعة من أهل العربية فزعم أبو حاتم أنه لا مذهب له من كلام العرب، وزعم أبو عبيد أن اشياخه كانوا ينكرونه من كلام العرب، قال ابو جعفر: أما فى قول ابى عبيد آن أشياخه انكروه ذكر هذا فى (كتاب القراءات) فإنه حكى فى الغريب المصنف نقض هذا"[2].

---

(١) النشرفى القرآن العشر ١٩٢/٢.

(٢) أنظر ٣١٣/٣

ونحوه قوله فى توجيه القراءات وإعرابها لقوله تعالي : (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) (١) "وقد تكلم أبو عبيد القاسم بن سلام فى هذا بكلام كثير التخليط، ونمليه على نص ما قال اذ كان كتابه أصلا من الأصول ليوقف على نص ما قاله، ويعلم موضع الغلط منه، قال أبو عبيد : وهى قراءتنا التى نختار، يعني (من سبأ بنبأ يقين) يجرها بالفتحه لمنعها الصرف، قال أبو عبيد: لان "سبأ اسم مؤنث لا مرأة أو قبيله ليس بخفيف فيجرى لخفته، والذى يجريه يذهب به إلى أنه اسم رجل، ومن ذهب إلى هذا لزمه أن يجرى "ثمود" فى كل القرآن". (٢).

ومثله قوله :"وأما (لات حين مناص) (٣) فقد تكلم النحويون فيه، وفى الوقوف عليه، وكثر فيه أبو عبيد القاسم بن سلام فى "كتاب القراءات" ، وكل ما جاء به الا يسيرا- مردود" (٤).

اعتماده على النقل مشافهة:

وقد نقل فى هذا الكتاب عن عدد من شيوخه مشافهة كثيرا من الآراء النحوية والحجج والبراهين أو الشواهد التى أيد بها مذهبه واختياره وابرز هؤلاء الذين نقل عنهم مشافهة أستاذه أبو اسحاق الزجاج، فقد صرح فى كثير من المواطن أن ما ينقله من الزجاج ينقله مشافهة منه، ومن أمثلة ذلك قوله فى مذهب الكوفيين أن "ربا" يائى

---

(١) آية ٢٢ من النمل

(٢) انظر ٣/٢٠٥.

(٣) آية ٣ من ص.

(٤) انظر ٣/٤٥٠-٤٥١

اللام : "قال أبو جعفر : سمعت أبا اسحاق يقول : ما رأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع، لا يكفيهم الخطأ فى الخط حتى يخطئون فى التثنيه، هم يقرءون (وما أتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس) [١]... ١/٣٤١، وينظر ٣٧٦٣.

ومثله قوله فى الرد على سيبويه فى رأيه أن "أيا" فى مثل (أيهم أشد على الرحمن عتيا) [٢] مبنى : "سمعت أبا اسحاق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه الا فى موضعين، هذا أحدهما، وقال : وقد علمنا أن سيبويه أعرب (أيا) وهى منفردة، لانها تضاف، فكيف يبنيها وهى مضافة[٣].

ومنهم أستاذه أبو الحسن على بن سليمان الأخفش الصغير فقد نقل عنه الكثير، ومن أمثله نقوله عنه مشافهة قوله فى خلاف النحويين فى كتابة (ألا "المركبة من "أن" و"لا" : "وسمعت أبا الحسن على بن سليمان يقول : لا يجوز أن يكتب من هذا شئ إلا مفصولا، لأنها (أن "دخلت عليها"لا") [٤].

ومثله قوله فى بعض الاعرابات :"وسمعت على بن سليمان يقول : حروف الخفض لا تحذف، ولكن تقدر فيه الهاء فقط"[٥].

---

(١) آية ٣٩ من الروم

(٢) آية ٦٩ من مريم.

(٣) انظر ٢/٢٤.

(٤) ٢/١٤١.

(٥) ٣/٢٦٨

ويقول فى موطن آخر :"سمعت على بن سليمان يقول غير هذا وينكر ما قال الفراء لانه بطلان البيان ..."(١)

ومنهم أبو الحسن بن كيسان، ومن أمثلة نقله عنه مشافهة عند قوله تعالى :"وأمرنا لنسلم لرب العالمين(٢) أبا الحسن بن كيسان يقول : هى لام الخفض، واللامات كلها ثلاث : لام الخفض، ولام أمر، ولام توكيد، لا يخرج شئ عنها" ٧٤/٢٠ وينظر : ٢١١/٣

ومثله قوله فى أوجه إعراب قوله تعالى(إن هذان لساحران) (٣): "وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية فقال ... وإن شئت أجبتك بقولى، فقلت : بقولك :"القول عندى أنه لما كان يقال "هذا" فى موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحد وكانت التثنيه يجب أن لا يغير لها الواحد، أجريت التثنيه مجرى الواحد"(٤)

ومنهم استاذه ابو بكر بن شقير، ومن أمثله نقله عند قوله : "وقد قال بعض النحويين، جوابا لمن سأل: لم حركت المضمرات، ولم تحرك المبهمة؟ : ان المضمرات فى مواضع الأسماء المعربه، وكانت لها مزيه فحركت. قال أبو جعفر : وسمعت ابا بكر بن شقير يحكى هذا، وهو جواب حسن محصل.(٥)

---

(١) ٢٤٣/٣.

(٢) آية ٧١ الأنعام.

(٣) آية ٦٣ من طه

(٤) انظر ٤٦/٣.

(٥) انظر ٢٥٥/٥.

ومنهم أستاذه محمد بن الوليد بن ولاد المصري، ومن أمثله نقله عنه مشافهه عند قوله تعالى : "وأنه أهلك عادا الأولى" (١) يقول: "وسمعت محمد بن الوليد يقول : لا يجوز ادغام التنوين فى هذه اللام، لأن هذه اللام أصلها السكون، والتنوين ساكن، فكأنه جمع بين ساكنين (٢).

ومن هؤلاء ابن رستم احمد بن محمد الطبرى النحوى، ومن أمثله نقله عنه قوله :"حدثنى أحمد بن محمد الطبرى النحوى، يعرف بابن رستم عن أبى عثمان المازنى، قال قلت للأخفش كيف تصغر "أشياء" ؟ فقال :"فقلت له يجب على قولك أن تصغر الواحد، ثم تجمعه، فانقطع (٣)..."

النقل بطريق الروايه :

هذا وقد اعتمد النحاس على بعض مصادر الائمة الاعلام عن طريقة الرواية ومن أبرز هؤلاء أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، فقد نقل عنه فى مواطن كثيرة رواية عن طريق شيوخه، ومن أمثله ذلك قوله :"قال أبو جعفر : سمعت على ابن سليمان يقول : سمعت أبا العباس محمد بن يزيد يقول : أشتهى أن أكوى يد من يكتب "اذن" بالالف، لانها مثل "لن"، و" أن" ، ولا يدخل التنوين فى الحروف (٤).

---

(١) آية ٥ من النجم

(٢) ٤/٢٨٠

(٣) ٢/٤٢.

(٤) ٢/٤٦٣.

ومثله قوله : "إذا دخلت اللام لم يكن في "إن" الا الكسر... هذا قول جميع النحويين إلا أن علي بن سليمان حكى لنا عن محمد بن يزيد أنه قال : يجوز الفتح في "إن" هذه، وان كان بعدها اللام..." [١].

ومنهم ثعلب، ومن أمثله نقله عنه رواية قوله :".. لان الفاعل اذا كان قبل الفعل لم يرتفع بالفعل، هذا قول جميع النحويين، الا شيئا حكاه لنا علي بن سليمان عن أحمد بن يحيى أنه أجاز "زيد قام" بمعنى (قام زيد).. [٢]

ومنهم المازني، فقد نقل عنه في - موطن عن طريق بعض مشايخه، ومن أمثله ذلك قوله :"قال أبو جعفر : حدثنا علي بن سليمان، قال : سمعت محمد بن يزيد يقول : حدثني ابو عثمان المازني، قال : قال لي اللاحقي : لقيني سيبويه فقال لي : اتعرف بيتا فيه "فعل" ناصبا ؟ [٣] فلم أحفظ فيه شيئا ، ففكرت فعملت له فيه هذا البيت :

حذر أمورا لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار [٤]

---

(١) ١٥٥/٣.

(٢) ٣٦٤/٣-٣٦٥

(٣) ١٨١/٣.

(٤) استشهد به غير منسوب في اعراب القرآن ٢/ ٢٥ وسيبويه ٥٨١ وشرح الشواهد للشنفري ٥٨/١، ومعجم شواهد العربية ١٨٩ وشرح ابيات سيبويه للنحاس ص ٧٤ والشاهد اعمال (فعل) عمل اسم الفاعل.

وعند قوله تعالى :"قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة"(١)

قال ابو جعفر : وسمعت على بن سليمان يقول : حدثنا محمد بن يزيد عن المازنى قال : التقدير (قل للذين آمنوا أقيموا الصلاة يقيموا) هذا قول حسن لان المؤمنين اذا أمروا بشيئ قبلوه"(٢).

وكثيرا ما كان يصرح بالمصدر الذى ينقل عنه، سواء كان كتابا أوشخصا.

وهذا أسلوب من أساليبه فى النقل عن المصادر يسلكه فى أحيان كثيره فى هذا الكتاب. فقد صرح بنقله من كتاب القراءات لابى عبيد، والكتاب لسيبويه.

وفى كثير من الاحيان لا يذكر اسم المصدر الذى ينقل منه ما ينقله، بل يكتفى بمثل قوله "وذهب الكوفيون" ، أو "الكوفيون يقولون " (ينظر مثلا ١/٢١٩، و٣/١٥٣، و٢/٢٠٥)، ولا يصرح بالمصدر الذى نقل عنه ذلك.

وكثيرا ما كان يذكر اسم من ينقل عنه دون التصريح باسم الكتاب الذى يأخذ منه، فيقول مثل ، قال قطرب "(ينظر مثلا ١/٢٢٥)" وقال ابو العباس محمد بن يزيد" (ينظر مثلا ١/٢٢٦) ، أو "قال الكسائى"، (ينظر مثلا ١/٢٢١ ، ٢٢٢) وقال الفراء (ينظر مثلا ٢/٢٦٢).

---

(١) آية ٣١ من إبراهيم.

(٢) ٢/٢٧٠.

أو "قال الاخفش سعيد" (ينظر مثلا ١/ ٢٣١ و ٢٥٣١)، أو "قال ابو عبيد (ينظر مثلا ١/ ٢١٣)، أو "قال أحمد بن يحيى" (ينظر مثلا ٢/ ٣٢٧-٣٢٨ و ٤/ ٣٧٢) أو نحو ذلك من الألفاظ التى يصرح فيها بالعالم الذى ينقل عنه دون مصدر نقله. وهذا النهج يغلب عليه فى الكتاب.

النقل بالنص أو بالتصرف:

وقد وجدت أن النحاس فى بعض المواطن يصرح بانه ينقل ما ينقله نصا، ومن أمثله ذلك قوله :"ورأيت أبا اسحاق يذهب إلى أن قول أبى العباس هذا خطأ، ولا يجوز عنده فيه إلا ما قال سيبويه، ونملى كلام ابى اسحاق فى الاستثناء الذى ذكره فى الآية نصا لحسنه، وانه قد شرح فيه أشياء من هذا الباب. قال ابو اسحاق...... [(١)]

وقد تبين لى من خلال قراءتى للكتاب أن النحاس فى مواطن من كتابه يصرح بانه ينقل ما ينقله بالتصرف، أو بالمعنى، ومن أمثلة ذلك قوله :"قال أبو سحاق - وهذا معنى كلامه - ما أعظم هذا الخطأ، يعنى قولهم : (يكتب ذوات الياء بالياء، وذوات الواو بالالف، فلا هم اتبعوا اللفظ كما يجب فى الخط، ولا هم اتبعوا المصحف فقد كتب فى المصحف (مازكى) بالياء... [(٢)]

---

(١) ٣/ ٢٥٠-٢٥١.

(٢) ٥/ ٢٤٧-٢٤٨ فى قوله تعالى :" مازكى منكم من أحد ابدا " ٢١ النور.

هذا إلى جانب الحقيقة المتمثلة فى أن ما نقله النحاس فى هذا الكتاب يحتاج إلى توثيق لمعرفة مدى التزامه بالنقل الحرفى، أو التصرف فيما ينقل.

اكتفاؤه بالنقل دون تعليق :

وقد لوحظ أن موقف النحاس ازاء ما ينقله يتعدد ويتنوع، فقد يكتفى بالنقل دون تعليق حيث إنه فى بعض الاحيان لا يفصل المناقشة ازاء ما ينقله، ومن أمثلة ذلك قوله : (نعبد) [١] فعل مستقبل، وهو مرفوع عند الخليل وعند سيبويه لمضارعته الأسماء.

قال الكسائى : الفعل المستقبل مرفوع بالزوائد التى فى أوله. وقال الفراء : هو مرفوع بسلامته من الجوازم والنصب" ١٧٣/١. هكذا نراه ينقل عند هؤلاء الائمة آراءهم دون تعليق ونراه فى مواطن كثيرة لا يكتفى بالنقل، بل يضيف إليه شرحا وتوضيحا ومن أمثله ذلك قوله :"لغة تميم وبكر بن وائل" (لا يستحى) [٢]، بياء واحدة، وهكذا قرأ ابن كثير وابن محيصن وشبل [٣]. وفيه قولان. قال الخليل: سكنت الياء الأولى كما سكنت فى (باع)، وسكنت الثانية لانها لام الفعل. قال سيبويه : وقال غيره : لما كثر وكانتا ياءين حذفوها، والقوا حركتها على الحاء.

---

(١) فى قوله تعالى :(اياك نعبد) آية ٤ من الفاتحة.

(٢) فى قوله تعالى :"ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضه فما فوقها" البقرة ٢٦.

(٣) انظر المحتسب ١٤٦/٢

قال ابو جعفر : شرح قول الخليل أن الاصل "استحيى" فاعله من جهتين، اعل الياء الأولى كما يقال "استباع" واعل الثانية كما يقال "يرمى" فاعله لئلا يلتقى ساكنان. (١)

وهذا بعيد جدا، لأنهم يجتنبون الاعلال من جهتين. والقول الآخر هو قول سيبويه. سمعت أبا اسحاق يقول : رذا قال سيبويه بعد قول الخليل (وقال غيره) فانما يعنى نفسه، ولا يسمى نفسه بعد الخليل اجلالا منه له.

وشرح قول سيبويه أن الأصل (استحيى "كثر استعمالهم اياه فحذفوا الياء الاولى والقوا حركتها على الحاء، فاشبه "افتعل"، نحو "اقتضى"، فصرفوه تصريفه فقالوا "استحى، يستحى" (٢) ومثله عند قوله تعالى :"ولاتلبسوا بالباطل (٣) يقول أبو جعفر :"والكوفيون يقولون : هو منصوب على الصرف، وشرحه أنه صرف عن الاداة التى عملت فيما قبله، ولم يستأنف فيرفع فلم يبق الا النصب (٤)، فشبهت الواو والفاء بكى فنصبت بها كما قال :-

لاتنه عن خلق وتأتي مثله .. عار عليك إذا فعلت عظيم (٥)

---

(١) اعراب القرآن ٢٠٣/١.

(٢) ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) آية ٤٢ من البقرة

(٤) ٢١٩/١.

(٥) الشاهد لابى الاسود الدؤلى انظر ديوان ابى الاسود ٢٣٣، والخزانة ٦١٧/٣ واعراب القرآن ٢١٩/١، والمقاصد النحوية ٣٩٣/٤ والكتاب ٤٢٤/١ وورد غير منسوب فى معانى القرآن للفراء ٣٤١، ١١٥ وتفسير الطبرى ١٨٥/١، ٢٥٥، ٢٢٢/٩.

مناقشته بعض المسائل :

وفي الغالب يناقش ما ينقله ويبدى فيه رأيه من تأييد أو رد أو نحو ذلك ومن أمثله تأييده ما ينقل قوله :"قرأ عيسى بن عمر [١] والسارق والسارقه [٢]" نصبا وهو اختيار سيبويه. قال : إلا أن العامة ابت الا الرفع [٣]، يريد بالعامة الجماعة ونصبه باضمار فعل أى (اقطعوا السارق والسارقة). وانما اختار النصب لأن الأمر بالفعل أولى. وقد خولف سيبويه فى هذا، فزعم الفراء [٤] أن الرفع أولى، لانه ليس يقصد به إلى سارق بعينه فينصب، وإنما المعنى (كل من سرق فاقطعوا يده). وهذا قول حسن غير مدفوع، يدل عليه أنهم قد أجمعوا على أن قرؤوا (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) [٥].

كما أنه فى مواطن عديدة ينقل عن بعض مصادر قد ضعفت أو انتقدت، فيدافع عنها أو يبحث لها عن اعتذاره، ومن أمثلة ذلك عند قوله تعالى :"واتقوا يوما لا تجزى عن نفس شيئا [٦]" وفى الكلام حذف، بين النحويين فيه اختلاف. قال البصريون : التقدير (يوما لا

---

(١) أنظر مختصر ابن خالويه ٣٢.

(٢) آية ٣٨ من المائدة.

(٣) سيبويه ١٤٤١ هارون.

(٤) أنظر معانى القرآن للفراء ٣٠٦/١.

(٥) آية ١٦ من النساء وانظر اعراب القرآن ١١٩/١.

(٦) آية ٤٨ من البقرة.

تجزى فيه نفس عن نفس شيئا) ، ثم حذف (فيه) قال الكسائى[١] هذا خطأ ، لا يجوز حذف (فيه) ، ولو جاز هذا لجاز (الذى تكلمت زيدا) بمعنى (تكلمت فيه) ، قال : ولكن التقدير (واتقوا يوما لا تجزيه نفس) ثم حذف الهاء .. قال أبو جعفر : الذى قاله الكسائى لا يلزم، لأن الظروف يحذف منها ، ولا يحذف من غيرها . تقول : (تكلمت فى اليوم) ، و(تكلمت اليوم)[٢].

وعند قوله تعالى :"الم" مذهب الخليل وسيبويه[٣] فى (الم) وما أشبهها أنها لم تعرف لانها بمنزلة حروف التهجى، فهى محكية، ولو أعربت ذهب معنى الحكاية، وكان قد أعرب بعض الاسم.. وقال احمد بن يحيى : لا يعجبنى قول الخليل فيها لانك اذا قلت (زاي) فليست هذه الزاى التى فى (زيد) ، لانك قد زدت عليها

قال ابو جعفر : هذا الرد لا يلزم لانك لن تنطق بحرف واحد حتى تزيد عليه[٤] ومن أعتذاراته لما ينقل قوله :"عند قوله تعالى : "يا ايها النبى"[٥] "ضممت" أيا " لأنه نداء مفرد ، والتنبيه لازم لها ، و(النبى) نعت لـ (أى) عند النحويين. الا الأخفش، فإنه يقول : إنه صله لـ (أي) ، وهو خطأ عند أكثر النحويين، لان الصلة لا تكون إلا

(١) معانى القرآن للفراء ٣٢/١.

(٢) إعراب القرآن ٢٢١١.

(٣) الكتاب ٣٠/٢، ٣١، ٣٤

(٤) المصدر ١٧٧/١.

(٥) آية ما من الاحزاب.

جمله. والاحتيال له أنه لما كان نعتا لازما سماه صلة، فهكذا الكوفيون يسمون نعت النكرة صلة لها [١].

تعليقه على ما ينقل بالرد أو التضعيف أو التخطئه:

وكثيرا ما كان النحاس يعلق على ما ينقله إما بالرد أو التضعيف أو التخطئة ومن أمثله ذلك قوله : "وزعم الفراء [٢] أن المعنى (فاستوى محمد - صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام، فجعل "هو" كتابه عن جبريل صلى الله عليه وسلم، وعطف به على المضمر قال ابو جعفر : فى هذا من الخطأ ما لاحقا به، عطف على مضمر مرفوع لا علاقة له، مثله (مررت بزيد جالسا وعمرو) ، ويعطف به على الضمير المرفوع، وهذا ممنوع من الكلام حتى يؤكد المضمر أو يطول الكلام. ثم شبهه بقوله : (إذا كنا ترابا وآباؤنا) [٣] وهذا التشبيه غلط من جهتين، إحداهما أنه قد طال الكلام ههنا، وقام المفعول به مقام التوكيد، والجهة الاخرى ان النون والألف قد عطف عليهما ههنا، وقولك (قمنا وزيد) أسهل من قولك (قام وزيد) وأيضا فليس المعنى على ما ذكر" [٤].

---

(١) ٣٠١/٣.

(٢) معانى القرآن ٩٥/٣.

(٣) آية ٦٧ النمل

(٤) ٢٦٦/٤

ومثله قوله :"وحكى الاخفش (وقولوا للناس حسنى)[١] على "فعلى"، قال أبو جعفر: وهذا لا يجوز فى العربية، لا يقال من هذا شئ إلا بالالف واللام نحو (الفضلى)، و(الكبرى)، و(الحسنى)[٢].

هذا وقد عرض كثيرا من آراء أئمة النحو العربى فى إعراب أى الذكر الحكيم وفى توجيه قراءاته، كما اجتهد النحاس فيه لتقديم اعرابات آيات القرآن الكريم وعرضها ومناقشاتها والاختيار مما يذكره أو ينقله من الأوجه الاعرابية والتوجيهات المختلفة.

اختيار بعض الاوجه الاعرابية :

وقد يذكر النحاس للعبارة القرآنية وجها إعرابيا واحدا ويكتفى بذلك مما يدل على أنه الإعراب المختار، ولا يناقش وجوها أخرى منقوله أو محتمله فيها.

ومن أمثلة ذلك قوله : عند قوله تعالى :"والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[٣] (والذين) رفع بالابتداء، (كفروا) من صلته، و(كذبوا) عطف على (كفروا)، (بآياتنا) خفض بالباء، (أولئك) مبتدأ (أصحاب النار) خبره والجملة خبر "الذين"، (هم فيها خالدون) ابتداء وخبر في موضع نصب على[٤] ونحو قوله : عند قوله تعالى :"وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما

(١) آية ٨٣ من البقرة.
(٢) ٢٤١/١.
(٣) آية ٣٩ من البقرة
(٤) ٢١٧/١.

معكم ولا تكونوا أول كافر به[١] محذوف لطول الاسم، أى بما أنزلته، (مصدقا) على الحال، (لما) خفض باللام (معكم) صله لـ ، (ولا تكونوا) جزم بـ"لا" فذلك حذفت منه النون، (أول) خبر "تكونوا"، ولم ينونه لأنه مضاف، ولو لم يكن مضافا جاز فيه التنوين على أنه اسم ليس بنعت، وجاز الضم بغير تنوين على انه غايه وجاز ترك التنوين على أنه نعت.[٢]

وقد يذكر بعض الأوجه الإعرابية مع التصريح باختيار بعضها أو رده.

فإن النحاس فى كثير من المواطن لا يكتفى بذكر وجه إعرابى واحد، بل يورد أكثر من وجه، وقد يصرح أن تلك الاوجه الاعرابية أو التوجيهات أو بعضها منقوله عن النحويين السابقين، وربما لا يصرح بمثل ذلك، بل يظهر أنها من اجتهاده. وأيا كان الامر فإنه فى الغالب يبدى رأيه فى هذه الاوجه مختارا أو رادا.

ومن أمثله ذلك قوله :"(والله ورسوله أحق أن يرضوه) [٣] ابتداء وخبر فيذهب سيبويه أن التقدير "والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه"، ثم حذف. وقال محمد بن يزيد : ليس فى الكلام حذف، والتقدير"[٤] والله أحق أن يرضوه ورسوله" على التقديم

---

(١) آية ٤١ من البقرة.

(٢) ٢١٨/١.

(٣) آية ٦٢ من التوبة.

(٤) المقتضب ٢١٥/٣.

والتأخير. وقال الفراء : المعنى : ورسوله أحق أن يرضوه والله افتتاح كلام، كما تقول : ما شاء الله وشئت[١].

قال أبو جعفر : وقول سيبويه أولاها ، لأنه قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم النهى عن أن يقال " ماشاء الله وشئت" ، ولا يقدر فى شئ تقديم ولا تأخير ومعناه صحيح"[٢].

ومثله قوله :"قرأ ابن محيصن وعبد الله بن عامر والكسائى" (إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) [٣] بالنصب[٤] قال أبو اسحاق : النصب من وجهين: أحدهما على العطف، أى فأن يكون، والآخر أن يكون جوابا لـ "كن".

قال أبو جعفر : الوجه "فيكون" مرفوع، وتقديره عند سيبويه "فهويكون" [٥] والنصب على العطف جائز، فأما أن يكون جوابا فمحال، لأنه اخبار، لا يجوز فيه الجواب، كما تقول :"انا أقول لعمرو مضى فيجلس أو فيمضى"، ولا معنى للجواب هنا ، وإنما الجواب أن يقول :"إمض فاكرمك"، ومثل الأول (فلا تكفر فيتعلمون) [٦]، وانما الجواب (لا تكفر فتدخل النار) [٧].

---

(١) معانى القرآن ١/٤٤٥.

(٢) ٢/٢٢٣-٢٢٤.

(٣) آية ٤٠ من النحل وانظر تيسيرالدانى ١٣

(٤) قراءة باقى السبعة بالرفع.

(٥) الكتاب ١/١٣٨.

(٦) آية ١٠٢ من البقرة.

(٧) ٢/٣٩٦.

ونحـوه قـولـه : "(والذين يتـوفـون منكم ويذرون أزواجـا . . . [١])
يقال : أين خبر "الذين" ؟ ففيه أقوال قال الأخفش سعيد : التقدير (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن بعدهم، أو بعد موتهم) ثم حذف هذا كما يحذف شئ كثير.

وقال الكسائى فى التقدير (يتربص أزواجه) كما قال جل وعز (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا [٢] لا تقم فيه أبدا) [٣] أى لا تقم فى مسجدهم.

وقال الفراء : [٤] اذا ذكرت أسماء، ثم ذكرت أسماء مضافة إليها فيها معنى الخبر، وكان الاعتماد فى الخبر على الثانى أخبر عن الثانى وترك الأول. قال أبو اسحاق : هذا خطأ، لا يجوز أن يبتدأ باسم، ولا يحدث عنه. قال أبو جعفر : ومن أحسن ما قيل فيها قول ابى العباس محمد بن يزيد قال : التقدير (والذين يتوفون أزواجا أزواجهم يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشرا)، ثم حذف، كما قال الشاعر :

وما الدهر إلا تارتان فمنهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح [٥]

---

(١) آية ٢٣٤ من البقرة.
(٢) آية ١٠٧ من التوبه.
(٣) آية ١٠٨ من التوبة.
(٤) معانى القرآن ١/١٥٠.
(٥) قاله متمم بن مقبل وانظره ديوانه ٢٤ واعراب القرآن ١/٣١٨، وسيبويه ١/٣٧٦ وشرح الشواهد للشنفرى ١/٣٧٦ ومعانى القرآن للفراء ١/٣٢٣ الكامل ٩٠٨ تفسير الطبرى ٢١/٣٣.
وقد استشهد به على حذف الاسم لدلالة الصفة عليه والتقدير يرغمنها تارة اموت فيها.

عرض بعض الأوجه الاعرابية دون التصريح برأيه فيها :

وقد يعرض النحاس أوجها إعرابيه، سواء أكانت منقوله عن النحويين السابقين أم من اجتهاده، ولا يصرح برأيه فيها، والظاهر أنها كلها أوجه جائزه عنده.

ومن أمثله ذلك قوله : عند قواه تعالى "ذلك الكتاب لا ريب فيه"[١] " (ذلك ...) فيه سته أوجه : يكون بمعنى (هذا ذلك الكتاب فيكون خبر هذا، ويكون بمعنى (الم ذلك)، هذا قول الفراء[٢]، أى حروف المعجم ذلك الكتاب، واجتزئ ببعضها من بعض، ويكون هذا رفعا بالابتداء، والكتاب خبره، والكوفيون يقولون[٣]: رفعنا هذا بهذا وهذا بهذا، ويكون الكتاب عطف البيان الذى يقوم مقام النعت و"هدى" خبرا، ويكون "لا ريب فيه" الخبر، والكوفيون يقولون: الهاء العائدة الخبر.

والوجه السادس : أن يكون الخبر "لاريب فيه"، لأن معنى "لاشك" حق، ويكون التام على هذا (لا ريب)[٤].

ونحوه قوله : (ما بعوضة)[٥] فى نصبها ثلاثة أوجه : تكون "ما" زائدة وبعوضة بدلا من (مثل)، ويجوز أن تكون "ما" في موضع

---

(١) آية ٢ من البقرة.

(٢) معانى القرآن ١/ ١٠.

(٣) انظر المصدر السابق.

(٤) ١/١٧٨.

(٥) آية ٢٦ من البقرة.

نصب نكرة و"بعوضة" نعتا لـ "ما"، وصلح أن تكون نعتا لأنها بمعنى "قليل". والوجه الثالث قول الكسائى والفراء، قال: التقدير: (أن يضرب مثلا ما بين بعوضه)، حذفت "بين"، وأعربت "بعوضة" بإعرابها، والفاء، بمعنى "الى"، أى (إلى ما فوقها) [١]....

اختياره بعض الاوجه الاعرابية التى تحمل النص على المعنى الصحيح:

ولا يكتفى النحاس بمناقشة الجوانب اللفظية والصناعية، بل يهتم بما يؤدى إليه الإعراب من معنى فيناقشه ويختار الإعراب او التوجيه الذى يحمل النص على المعنى الصحيح فمن ذلك مثلا عند قوله تعالي "وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان" [٢] يقول: "(وإذ آتينا...) بمعنى (أعطينا)، (موسى الكتاب) مفعولان (والفرقان)، عطف على "الكتاب". قال الفراء وقطرب: يكون "وإذ آتينا موسى الكتاب، أى التوراة، ومحمدا صلى الله عليه وسلم الفرقان"، قال أبو جعفر هذا خطأ فى الإعراب والمعنى. فأما الاعراب فان المعطوف على الشئ مثله، وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشئ خلافه.

وأما المعنى فقد قال فيه جل وعز: (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) [٣] قال أبو اسحاق: يكون الفرقان هذا الكتاب أعيد ذكره. وهذا بعيد، وإنما يجى فى الشعر، كما قال:

---

(١) ٢٠٣/١.

(٢) آية ٥٣ من البقرة.

(٣) آية ٤٨ من الانبياء.

"وألفـــى قولهـــا كذبـــا ومينـــا"[1]

وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد : (فرقا بين الحق والباطل الذي علمـــه اياه) [2] ومن أمـثلة مناقــشـتـه المعنى في الاعــراب والاعتماد عليه في الاختيار قوله في قوله تعالى (وما أهلكنا من قـريه الا لهـا منذرون ذكـرى ومـا كنا ظالمين) [3] :"قـال الكسـائي : ذكرى) [4] في مـوضع نصب على القطع، وهذا لا يحـصل، والقـول فيها هو قول الفراء وأبي اسحاق انها في موضع نصب على المصدر. قال الفراء : أي يذكرون ذكرى وهذا قول صحيح، لأن معنى (إلا لها منذرون) إلا لها مذكرون"[5].

---

(١) قاله عدي بن زيد العبادي وصدره :

وقدمـــت الاديـــم لراهشيـــه

وانظره في ديوانه ١٨٣ واعراب القرآن ١/ ٢٢٥ ومـعـاني القـرآن للفراء ١/ ٣٧ والمستقصى في أمثال العرب ١/ ٢٤٣ وقد استشهد به على اجتماع كلمتين اختلف لفظهما واحد بقول الفراء :"وان العرب لتجمع بين الحرفين وانهما لواحد اذا اختلف لفظاهما" معاني القرآن ١/ ٣٧.

(٢) ١/ ٢٢٥.

(٣) آية ٢٠٨ من الشعراء .

(٤) معاني القرآن ٢/ ١٨٤.

(٥) ٣/ ١٩٣-١٩٤.

ومثله ما قاله فى أثناء حديثه عن قراءة "تساءلون به والارحام[١] بالجر، حيث قال :"وقال بعضهم : (والأرحام) قسم، وهذا خطأ من المعنى والإعراب، لأن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على النصب، روى شعبه عن عون بن أبى جحيفه عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى جاء قوم من مضر حفاة عراة فرأيت وجه النبى صلى الله عليه وسلم يتغير لما رأى من فاقتهم، ثم صلى الظهر، وخطب الناس، فقال: يأ ايها الناس اتقو ربكم والارحام" ثم قال تصدق رجل بديناره، تصدق رجل بدرهمه، تصدق رجل بصاع[٢] تمره وذكر الحديث فمعنى هذا على النصب، لأنه حضهم على صلة أرحامهم. وأيضنا فلو كان قسما كان قد حذف منه، لأن المعنى (ويقولون : بالارحام)، أى (ورب الأرحام) ولا يجوز الحذف إلا أن لا يصح الكلام الا عليه. وايضا فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم. "من كان حالفا فليحلف بالله" [٣]، فكما لا يجوز أن تحلف إلا بالله، كذا لا يجوز أن تستحلف إلا بالله. فهذا يرد قول من قال المعنى (أسألك بالله وبالرحم) [٤].

---

(١) آية ١ من النساء.

(٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة.

(٣) الترمذى - كتاب النذور وانظر سنن ابن ماجه باب /٢ حديث ٢٠٩٤ وسنن أبى داود كتاب الإيمان والنذور حديث ٣٢٤٩.

(٤) ١/٤٣١، ٤٣٢.

اختياره بعض الأوجه الاعرابية التى تحمل النص على الأغلب والافصح:

وإذا كان النحاس يختار الإعراب الذى يحمل النص على المعنى الصحيح، فإنه كان شديد العناية باختيار التوجيه والاعراب الذى يحمل النص على الأغلب والأفصح كالرد، على من يأتى باعرابات أو توجيهات تبنى على النادر أو القليل أو الشاذ من كلام العرب.

ومن أمثله ذلك قوله فى قوله تعالى (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) [(١)] :"ومن نصب فتقديره (الدين يوم لا تملك) [(٢)]، ومثله (وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس) [(٣)]، أى (القارعة يوم يكون الناس) ويجوز أن يكون التقدير "يصلونها يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا فهذان قولان الأول أولاهما: وللفراء : قول ثالث، أجاز أن يكون (يوم) في موضع [(٤)] رفع فبناه، قال أبو جعفر: وهذا غلط.لا يجوز

---

(١) آية ١٩ من الانفطار.

(٢) قرأ بالنصب زيد بن على والحسن وأبو جعفر وشيبه والأعرج وباقى السبعة (البحر المحيط ٨/٤٣٧). وقرأ بالرفع بابن ابى اسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وابو عمرو (البحر المحيط ٨/٤٣٧) وأجاز الزمخشرى فيه أن يكون بدلا مما قبله أو على هو يوم لا تملك (الكشاف ٤/١٩٣).

(٣) آية ٣، ٤ من القارعة.

(٤) قال ابو زكريا الفراء : والرفع جائز لو قرئ به، زعم الكسائى : أن العرب تؤثر الرفع إذا أضافوا اليوم إلى يفعل وتفعل وأفعل ونفعل، فيقولون : هذا يوم نفعل ذاك وأفعل ذاك، فإذا قالوا : هذا يوم فعلت، وأضافوا يوم الى فعلت أو الى إذ أثروا النصب وأنشدونا :

على حين عاتبت المشيب على الصبا … وقلت ألما تصح والشيب وازع

أن يبنى الظروف عند الخليل وسيبويه مع شئ معرب[١]، والفعل المستقبل معرب. فأما الكسائى فأجاز ذلك فى الشعر على الاضطرار. [٢]

ولا يحمل كتاب الله جل وعز على مثل هذا. ولكن تبنى ظروف الزمان مع الفعل الماضى كما مر فى البيت[٣] لان ظروف الزمان منقضية غير ثابته، فلك أن تبنيها مع ما بعدها اذا كان غير معرب، وأن تعربها على أصلها" [٤]

ونحوه قوله :"وقال الأخفش وأبو حاتم (يا ابن أم) [٥] كما يقول (يا غلام غلام أقبل) قال أبو جعفر : (يا غلام غلام) لغة شاذة، لأن الثانى ليس بمنادى فلا ينبغى أن تحذف منه الياء، فالقراءة بكسر الميم على هذا القول بعيده. ولكن لها وجه حسن جيد يكون بمنزلة قولك (يا خمسة عشر أقبلوا)، لما جعل الاثنين اسما واحدا أضاف[٦].

ومثله قوله فى قوله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) [٧]: :"وقال أبو عبيدة : [٨] " هو مخفوض على الجوار.

---

(١) أنظر الكتاب ٢ /٣٣٠.

(٢) معانى القرآن للفراء ٣/٣٤٥.

(٣) يقصد بالبيت ما ذكره النحاس فى قوله الشاعر :
على حين عاتبت المشيب على الصبا ....

(٤) ٥/ ١٧٠-١٧١.

(٥) آية ٩٤ من طه.

(٦) ٢/١٥٢ وانظر البحر المحيط ١٣٧/٦.

(٧) آية ٢١٧ من البقرة.

(٨) مجاز القرآن ١/ ٧٢.

قال أبو جعفر : لا يجوز أن يعرب شئ على الجوار فى كتاب الله عز وجل، ولا فى شيء من الكلام، وانما الجوار غلط، وانما وقع في شئ شاذ وهو قولهم (هذا جحر ضب خرب).

والدليل على أنه غلط قول العرب فى التثنية : (هذان جحرا ضب خربان). وإنما هذا بمنزلة الاقواء. (١)

ويقول :"ولا يحمل شئ من كتاب الله عز وجل على هذا، ولا يكون إلا بأفصح اللغات وأصحها. (٢) ويقول :"علي أن هذا ليس بكثير فى كلام العرب، وانما يحمل كتاب الله على الكثير والفصيح، ولا يجوز أن يقاس عليه ما لا يشبهه"(٣).

اهتمامه بالقراءات القرآنية :

وقد تعرض النحاس فى كتابه هذا لكثير من القراءات القرآنية، متواترها وشاذها وناقشها من الوجهة النحوية والتصريفية، وكان له فيها مواقف متباينه، فأحيانا يرجح قراءة على أخرى، وأحيانا يدافع عن قراءات ضعفت أو خطئت ويذكر لها توجيهات نحوية أو تصريفية، وأحيانا يحكم على بعض القراءات بالضعف او الخطأ أو اللحن، وقد يرد على ما قيل فى توجيهه.

ومن الملاحظ أن النحاس قد يرجح قراءة على أخرى لاسباب نحوية ويختارها دون تضعيف أو تخطئة للوجه الآخر. ومن أمثلة ذلك

---

(١) ٣٠٧/١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) ٣٦٣/٣.

ترجيحه قراءة "يقول الرسول"[١] بالرفع[٢] على قراءة "يقول الرسول" بالنصب، حيث يقول "وقرأ اهل الكوفة والحسن وابن ابى اسحاق وأبو عمرو (حتى يقول الرسول) بالنصب، وهو اختيار أبى عبيد وله فى ذلك حجتان: احداهما عن ابى عمرو، قال : (زلزوا) فعل ماضى و(يقول) فعل مستقبل فلما اختلفا كان الوجه النصب.

والحجة الاخرى حكاها عن الكسائى، قال : إذا تطاول الفعل الماضى صار بمنزلة المستقبل[٣]، قال أبو جعفر : أما الحجة الأولى بان "زلزلوا" ماضى و(يقول) مستقبل لشئ فليس فيه علة الرفع ولا النصب، لان (حتى) ليست من حروف العطف فى الأفعال، ولا هى البتة من عوامل الأفعال، كذا قال الخليل وسيبويه[٤] فى نصبهم ما بعدها على اضمار (أن) : إنما حذفوا أن لانهم قد علموا أن (حتى) من عوامل الاسماء. هذا معنى قولهما وكأن هذه الحجة غلط، وانما تتكلم بها فى باب الفاء.

وحجة الكسائى بان الفعل إذا تطاول صار بمنزلة المستقبل كلا حجة، لانه لم يذكر العلة في النصب، ولو كان الأول مستقبلا لكان السؤال بحاله، ومذهب سيبويه فى (حتى) أن النصب فيما بعدها من

---

(١) آية ٢١٤ من البقرة.

(٢) وهى قراءة نافع لأن الفعل ماض بالنسبة الى زمن الاخبار أو حال باعتبار حكاية الماضى والناصب يخلص الفعل للاستقبال فتنافيا.

(٣) معاني القرآن للفراء ١٣٣/١.

(٤) الكتاب ١٧/٣.

جهتين، والرفع من جهتين. تقول : سرت حتى أدخلها ، على أن السير والدخول جميعا قد مضيا ، أى سرت إلى أن أدخلها وهذا غاية، وعليه قراءة من قرأ بالنصب. والوجه الآخر فى النصب فى غير الآية (سرت حتى أدخلها) أى كي أدخلها.

والوجهان فى الرفع (سرت حتى أدخلها) أى سرت فادخلها، وقد مضيا جميعا أى كنت سرت فدخلت، ولا تعمل حتى ها هنا باضمار (أن) ، لان بعدها جملة[١] فعلى هذه القراءة بالرفع وهى أبين واصح معنى، أى (زلزلوا حتى الرسول يقول) أى حتى هذه حاله، لأن القول إنما كان عن الزلزلة غير منقطع منها ، والنصب على الغاية ليس فيه هذا المعنى.

والوجه الآخر فى الرفع فى غير الآية (سرت حتى ادخلها) على أن يكون السير قد مضى والدخول الآن"[٢].

ونحوه قوله فى ترجيح قراءة الرفع فى "يرثنى"[٣] :"قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة (يرثنى ويرث من آل يعقوب)

---

(١) واستشهد سيبويه على ذلك بقول الفرزدق:

فيا عجبا حتى كليب تسبنى   كأن أباها تهشل أو مجاشع

يقول سيبويه "فحتى هنا بمنزلة (اذا) وانما هى ههنا كحرف من حروف الابتداء فدخلت على الجملة الاسمية "الكتاب ١٨/٣ وقد نقل أبو جعفر هذا فى ٣٠٤/١، ٣٠٥.

(٢) انظر ٣٠٥/١.

(٣) آية ٦ من مريم.

برفعهما [١] وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائى (يرثنى من آل يعقوب) بالجزم فيها. [٢] قال أبو جعفر : القراءة الأولى بالرفع أولى فى العربية وأحسن. والحجة فى ذلك ما قاله أبو عبيد فان حجته حسنة. قال : المعنى : فهب لى من لدنك الولى الذى هى حاله وصفته، لان الاولياء منهم من لا يرث، فقال : هب الذى يكون وارثنى ورد الجزم لان معناه: ان وهبته لى ورثنى، فكيف يخبر الله جل وعز بها وهو أعلم به ؟ وهذه حجة مقتضاة لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة تقول : أطع الله يدخلك الجنة، والمعنى إن تطعه يدخلك الجنة[٣].

ورغم كثره هذا النوع من الترجيح عنده نجده أحيانا لا يرغب فى ترجيح قراءة على أخرى، يقول :"(وما أدراك ما العقبة، فك رقبه) [٤]... وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو عمرو وابن كثير والكسائى (فك رقبة[٥]. أو أطعم فى يوم ذى مسغبة[٦] ثم تكلم النحويون فى

---

(١) أنظر الاتحاف ٢٩٧.

(٢) السابق.

(٣) أنظر ٦/٣.

(٤) آيتا ١٣، ١٤ من البلد.

(٥) بفتح الكاف فعلا ماضيا ورقبة بالنصب مفعوله وأطعم بفتح الهمزة والميم فعلا ماضيا أيضا والفعل بدل من قوله : افتحم فهو تفسير وبيان كأنه قبل فلا فك ... الخ
انظر الاتحاف ٤٣٩ وتفسير القرطبى ٧٠/٢٠.

(٦) آية ١٥ من البلد.

هذا فاختار الفراء هذه القراءة[١] واحتج بان بعده (ثم كان) [٢] أي فلما عطف بـ (كان)، وهي فعل ماضى، على الاول وجب أن يكون (فك) ليعطف فعلا ماضيا على فعل ماض. واختار الاخفش وابو حاتم وابو عبيد القراءة الأخرى. [٣]

قال أبو جعفر : الديانه تحظر الطعن على القراءة التي قرأ بها الجماعة، ولا يجوز أن تكون مأخوذة إلا عن النبى صلى الله عليه وسلم، [٤] وقد قال عليه السلام (أنزل القرآن على سبعة أحرف) [٥]، فهما قراءتان حسنتان، لا يجوز أن تقدم إحداهما على الأخرى.

فأما اعتراض الفراء بـ (كان)، وبالنسق على الأول فلا يلزم، لأنه لا يجوز أن يكون معطوفا على المعنى، لأن المعنى (فعل هذا) [٦].

---

(١) ونص ما قاله الفراء "وهو اشبه الوجهين بصحيح العربية لأن الإطعام اسم وينبغى أن يرد على الأسم اسم مثله، ثم إن كان اشكل للاطعام والفك، فاخترنا: فك رقبه لقوله (ثم كان) "معانى القرآن ٣/٢٦٥.

(٢) فى قوله تعالى :"ثم كان من الذين آمنوا".

(٣) التيسير ٢٢٣.

(٤) ٥/٢٣١.

(٥) سنن أبى داود حديث ١٤٧٥ المجازات النبوية للرضى ص ٥١.

(٦) وقد نقض هو قوله بأن اجازة القراءة الأخرى على اضمار (أن) ومضى ما قاله الفراء :"والوجه الآخر جائز تضمر فيه (أن) وتلقى فيكون مثل قول الشاعر :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى=

توجيه بعض القراءات والأسس التيبنى عليها قبولها أوردها:

ويرى قارئ هذا الكتاب أن النحاس في مواطن كثيرة قد وجه قراءات ظاهرها الضعف أو البعد أو الخطأ، وقد يرد على من انتقدها من العلماء، ويدافع عنها.

ومن أمثلة ذلك قوله في قوله تعالى (قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا...) [(١)]

"وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع (الا أن تكون ميتة) بالرفع[(٢)]، (أو دما) بالنصب. وبعض النحويين يقول: هو لحن، لانه عطف منصوبا على مرفوع، سبيل المعطوف سبيل المعطوف عليه.

يقول النحاس والقراءة جائزة، وقد صحت عن إمام، على أن يكون (أو دما) معطوفا على (أن) لان (أن) في موضع نصب، وهي اسم، والتقدير (إلا كون ميتة) أو دما مسفوحا نعت"[(٣)].

= يريد (أن أحضر) ويقول: "ألا ترى أن ظهور (أن) في آخر الكلام يدل على أنها معطوفة على أخرى مثلها في أول الكلام وقد حذفها "معاني القرآن ٢٦٥/٣ يقول ابو جعفر النحاس: "ولو كان الامر كما قال لنصب أحضر، واضمار أن لا يجوز الا بعوض لانها بعض اسم" اعرب القرآن ٢٣٢/٥.

(١) آية ١٤٥ من الأنعام.

(٢) قراءة الرفع على جعلها تامة، ويجوز أن يكون خبرها محذوفا أي: وان يكون هناك متية فتكون ناقصة ايضا. وقراءة النصب على انها خبر لكان الناقصة "الانحاف ٢١٨-٢١٩".

(٣) اعراب القرآن ١٠٣/٢-١٠٤ وانظر تيسير الداني ١٠٨.

ومثله قوله :"وقرأ ابن سيرين (لا تنفع نفسا إيمانها) [١]. قال ابو حاتم هذا غلط من ابن سيرين. قال ابو جعفر : فى هذا شيئ دقيق من النحو ذكره سيبويه [٢] وذلك أن الايمان والنفس كل واحد منهما مشتمل على الآخر، فجاز التأنيث [٣]، وفيه قول آخر أن يؤنث الايمان لأنه مصدر، كما يذكر المصدر المؤنث، مثل (فمن جاءه موعظه) [٤] لان موعظة بمعنى الوعظ [٥].

ونحوه قوله :"وقرأ طلحة ويحيى بن وثاب والأعمش وحمزة (وأرسلنا الريح لواقح) [٦] وهذا عند أبى حاتم لحن لأن الريح واحدة فلا تنعت بجمع، قال أبو حاتم : يقبح أن يقال: الريح لواقح. قال : وأما قولهم : اليمين الفاجرا تدع الدار بلاقع، فانما يعنون بالدار البلد،

---

(١) آية ١٥٨ الانعام وهى ايضا قراءة ابن عمر انظر مختصر ابن خالوية ص ٤٢.

(٢) انظر الكتاب ٥٢/١.

(٣) وقد أنشد سيبويه فى هذا قول الشاعر :

مشين كما اهتزت رياح تسفهت   اعاليها مر الرياح النواسم

ونقل أبو جعفر فى كتابه ١٠٩/٢ ويقول :"لان المر والرياح كل واحد منهما مشتمل على الآخر".

(٤) آية ٢٧٥ البقرة.

(٥) انظر ١٠٩/٢.

(٦) آية ٢٢ من الحجر وانظر التيسير ٧٨، ١٣٦.

كما قال عز وجل: (فاصبحوا فى دارهم جاثمين) [١] وقال أبو جعفر : هذا الذى قاله أبو حاتم فى قبح هذا غلط بين. [٢]

وقد قال الله جل وعز : (والملك على أرجائها) [٣] يعنى الملائكة، لا اختلاف بين أهل العلم فى ذلك. وكذا الريح بمعنى الرياح. وقال سيبويه: (أما الفعل فامثله أخذت من لفظ احداث الأسماء) [٤].

وحكى الفراء فى مثل هذا (جاءت الريح من كل مكان) [٥]، يعنى الرياح اعتمادا على قواعد اللغة الثابتة المأخوذة من الأغلب والأشهر من كلام العرب أو مخالفتها اياها. وقد رأينا فى الأمثلة لتوجيهه أو تخطئته القراءة نماذج واضحة لذلك.

ومن هذا القبيل أيضا - قوله (... وقد قرأ يحيى بن وثاب والاعمش وحمزة (بمصرحى إنى) [٦] بكسر الياء. قال الاخفش سعيد: ما سمعت هذا من أحد من العرب، ولا من النحويين [٧]. وقال الفراء : لعل الذى قرأ بهذا ظن أن الباء تخفض الكلمة كلها [٨].

---

(١) ٣٧ من العنكبوت.

(٢) انظر ٢٠/٣٧٩.

(٣) آية ١٧ من الحاقة.

(٤) الكتاب ١/١٢.

(٥) معانى القرآن ٢/٨٧.

(٦) آية ٢٢ من ابراهيم وانظر هذه القراءة فى معانى القرآن ٢/٧٥.

(٧) ٢/٣٦٩.

(٨) معانى القرآن ٢/٧٥.

قال أبو جعفر : فقد صار هذا باجماع لا يجوز [١]، وان كان الفراء قد نقض هذا، وأنشد :

قال لها هل لـك ياتافيي قالت له ما أنت بالمرضـى [٢]

ولا ينبغى أن يحمل كتاب الله جل وعز على الشذوذ" [٣]

وينكر قراءة حكاها الكسائى لمخالفته المعروف فى اللغة والنحو فيقول :"وحكى الكسائى (ايه المؤمنون) [٤] بضم الهاء وهذه لغة شاذة لا وجه لها، لان "ها" للتبيه" [٥].

ومن هذه الأسس ثبوت الرواية، ولاسيما رواية الجماعة أو العامة. ومن أمثلة تمسكه بهذا الاساس قوله :... الديانة تحظر الطعن على القراءة التى قرأ بها الجماعة، ولا يجوز أن تكون مأخوذة الا عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقد قال عليه السلام (أنزل القرآن على سبعة أحرف) [٦].

---

(١) انظر ٢/٣٦٩.

(٢) من أرجوزه للأغلب العجلى وانظر فى الخزانه ٢/٢٥٧ ومعانى الفراء ٣/٧٦ واعراب القرآن للنحاس ٢/٣٦٩.

(٣) اعراب القرآن ٢/٣٦٩.

(٤) آية ٣١ من النور وانظر كتاب السبعة لابن مجاهد ٤٥٥ وتيسير الدانى ١٦٢.

(٥) انظر ٣/١٣٤.

(٦) ٥/٢٣.

ومثله ما سبق من قوله :"وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع (الا أن تكون ميتة) بالرفع، (أودما) بالنصب. وبعض النحويين يقول : هو لحن، لأنه عطف منصوبا على مرفوع، وسبيل المعطوف سبيل المعطوف عليه. والقراءة جائزة، وقد صحت عن امام، على أن يكون (أودما) معطوفا على (أن) لان (أن) فى موضع نصب، وهى أسم، والتقدير (الا كون ميتة أو دما مسفوحا) [١].

ويقول فى قوله تعالى :(ولا تفرحوا بما آتاكم) [٢]، وهو الفرح الذى يؤدى إلى المعصية وقرأ أبو عمرو (ولا تفرحوا بما آتاكم) [٣] وهو اختيار أبى عبيد، واحتج أنه لو (اتاكم) لكان الأول[٤] (أفاتكم) ، قال : أبو جعفر : وهذا الاحتجاج مردود عليه من العلماء وأهل النظر، لأن كتاب الله عز وجل لا يحمل على المقاييس، وانما يحمل بما تؤديه الجماعة. فاذا جاء رجل فقاس بعد أن يكون متبعا، وانما تؤخذ القراءة كما قلنا أو كما قال نافع بن أبى نعيم: ما قرأت حرفا حتى يجتمع عليه رجلان من الأئمة أو أكثر فقد صارت

---

(١) ١٠٣/٢-١٠٤.

(٢) آية ٢٣ من الحديد.

(٣) فأبو عمرو بقصر الهمزة من الاتيان أى بما جاءكم وفاعله ضمير ما وافقه الحسن والباقون بالمد من الاتياء، أى بما أعطاكم الله اياه ففاعله ضمير اسم الله المقدم والمراد الفرح الموجب للبطر والاختيال ولذا عقبه بقوله : لا يحب كل مختال فخور، وأمالها حمزة والكسائى وخلف "الاتحاف ٤١١".

(٤) المراد قوله تعالى : (لكى لا تأسوا على ما فاتكم).

قراءة نافع عن ثلاثة أو اكثر، ولا نعلم احدا قرأ بهذا الذى اختاره أبو عبيد الا أبا عمرو، ومع هذا فالذى رغب عنه معروف المعنى صحيح"(١).

ويرفض القراءة التى فى إسنادها ضعف من الرواة، يقول:"وروى عصمة عن الاعمش (قمرا) بضم القاف واسكان الميم، وهذه قراءة شاذة، ولو لم يكن فيها الا أن أحمد بن حنبل، وهو إمام المسلمين فى وقته قال : لا تكتبوا ما يحكيه عصمه الذى يروى القراءات وقد اولع ابو حاتم السجستانى بذكر ما يرويه عصمه هذا"(٢).

وعند قوله تعالى :"فأقبلوا اليه يزفون" يقول :"قال أبو حاتم : وزعم الكسائى أن قوما قرأوا (فأقبلوا اليه يزفون)(٣) من زف يزف مثل وزن يزن ويقول :(... فهذا حكاية أبى حاتم، لم يسمع من الكسائي شيئا ، وروى الفراء وهو صاحب الكسائى أنه لا يعرف "يزفون"مخففة..."(٤).

ومن أسس قبوله القراءة موافقتها لرسم المصحف، ومما يدل على ذلك قوله :"قال : الفراء : وفى أحدى القراءتين (وأن اتل القرآن(٥) وزعم أنه فى موضع جزم الأمر، فلذلك حذفت منه الواو .

---

(١) انظر ٤/٣٦٥، ٣٦٦.

(٢) انظر ٣/١٦٦.

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ٢/٣٨٩.

(٤) ٣/٤٢٩.

(٥) آية ٩٢ من النمل.

قال أبو جعفر: ولا نعرف أحدا قرأ بهذا القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف..."[١].

ويقول :"وقرأ الأعمش (ولا يضار كاتب ولا شهيد[٢] بكسر الراء قال أبو جعفر : كسر الراء لالتقاء الساكنين، وكذلك من فتح، الا أن الفتح أخف. وقرأ بن الخطاب وابن عباس وابن أبى اسحاق (ولا يضار) بكسر الراء الأولى، وقرأ ابن مسعود (ولا يضارر) بفتح الراء. وهاتان القراءتان على التفسير ولا يجوز أن تخالف التلاوة التى في المصحف **اسس رده القراءة** : ومن أسس رده القراءة مخالفة قراءة الجماعة، حيث رأيناه يقول :"وقرأ اليزيدى (خافضة رافعة). وهذه القراءة شاذه متروكة من غير جهة، منها أن الجماعة الذين تقوم بهم الحجة على خلافها..."

ومن هذه الأسس مخالفة تفسير السلف، حيث رأيناه يقول فى رد القراءة السابقة "وهذه القراءة شاذة متروكة من غير جهة، ومنها أن الجماعة الذين تقوم بهم الحجة على خلافها، ومنها أن المعنى على الرفع فى قول أهل التفسير والمحققين من أهل العربية فأما أهل التفسير فان ابن عباس قال :(خفضت أناسا ورفعت آخرين)، فعلى هذا لا يجوز الا الرفع[٣]...".

---

(١) ٣/٢٢٥.

(٢) آية ٢٨٢ من البقرة.

(٣) ٤/٣٢٢.

ومثل ذلك ما رأينا فى كلامه في تخطئة قراءة حمزة (والارحام) بالبحر، حيث رأيناه يستدل بالحديث المروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم على أن المعنى على النصب ولا يصح الجر... [١].

ومن هذه الاسس موافقة نسق الكلام أو مخالفته. ومن كلماته فى الشأن قوله : "حدثنا أحمد بن شعيب بن على قال أخبرنى عمران بن بكار قال حدثنا ابراهيم بن العلاء الزبيدى قال حدثنا شعيب بن اسحاق عن هارون عن حنظلة عن الحارث بن أبى ربيعة قال :(ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره) [٢] قال أبو جعفر : هذا على السؤال والأصل "اضطرره"، ثم أدغم ففتح لالتقاء الساكنين، لخفة الفتحة، ويجوز الكسر قال أبو جعفر : وهذه القراءة شاذة، ونسق الكلام والتفسير جميعا يدلان على غيرها. فأما نسق الكلام فان الله جل وعز أخبر عن إبراهيم أنه قال :"رب اجعل هذا بلدا آمنا" [٣] ثم جاء بقوله، ولم يفصل بيده... فكان هذا جوابا من الله جل وعز ولم يقل بعد : قال إبراهيم. أما التفسير فقد صح عن ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب، وهذا لفظ ابن عباس : دعا إبراهيم لمن آمن دون الناس خاصة، فاعلم الله جل وعز انه يرزق من كفر، كما يرزق من آمن، وأنه يمته قليلا ثم يضطره إلى عذاب النار" [٤].

---

(١) انظر ١/٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) آية ١٢٦ من البقرة.

(٣) آية ١٢٦ من البقرة.

(٤) انظر ١/٢٦١.

فنراه هنا يعتمد على نسق الكلام الى جانب تفسير السلف لتضعيف هذه القراءة التى رواها باسناده.

تنوع أساليب الاختيار لدى النحاس :

هذا وقد تنوعت اساليب الاختيار لابى جعفر النحاس فى اعراب القرآن فتراه فى كثيرا من الأحيان يصرح بأنه اختيار واردا فى أثناء مناقشاته لمسائل النحو أو الأعراب بالفاظ وعبارات مختلفة مصرحا بما يقصده من اختيار أورد ، وقد سبق لنا نماذج من ذلك فيما سبق من نقول عنه، مثل قوله مختارا مذهب الفراء[١] :"قرأ عيسى بن عمر (والسارق والسارقة) نصبا ، وهو اختيار سيبويه[٢]. قال : الا أن العامة أبت الا الرفع، يريد بالعامة الجماعة. ونصبه باضمار فعل. أي (اقطعوا السارق والسارقة. وانما اختار النصب لأن الأمر بالفعل أولى.

وقد خولف سيبويه فى هذا ، فزعم الفراء أن الرفع أولى، لأنه ليس يقصد به الى سارق بعينه فنصب، وإنما المعنى (كل من سرق فاقطعوا يده) وهذا قول حسن غير مدفوع يدل عليه انهم قد أجمعوا على أن قرءوا (واللذان باتيانها منكم فآذوهما)[٣].

---

(١) معانى القرآن ٣٠٦/١.

(٢) الكتاب ٧١/١-٧٢.

(٣) آية ١٦ من النساء.

ومن هذا القبيل قوله :"(قل اللهم مالك الملك)[١] : الفراء يذهب فيما يرى الى أن الاصل فى "اللهم" (يا الله آمنا منك بخير)[٢] فلما كثر واختلط حذفوا منه، أن الضمة التى فى الهاء، هى الضمة التى كانت فى آمنا"، لما حذفت انتقلت قال أبو جعفر[٣]: هذا عند البصريين من الخطأ العظيم، حتى قال بعضهم : هذا إلحاد فى اسم الله عز وجل. قال أبو جعفر : القول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه[٤] ان الأصل "يا الله"، ثم جاءوا بحرفين عوضا من حرفين، وهما الميمان، عوضا من "يا" والدليل على هذا انه ليس أحد من الفصحاء يقول :"يااللهم لأنهم لا يجمعون بين الشئ وعوضه. والضمة التى فى "اللهم" عندهما هى ضمة المنادى المرفوع. فاما قول الفراء : أن الاصل :"ياالله أمنا" فلو كان كذا الوجب أن يقال : "اؤمم"، وان يدغم فيضم ويكسر، وكان يجب أن تكون الف وصل لا حكم لها، وكان يجب أن يقال "يا اللهم"، وأيضا فكيف يصح المعنى أن يقال (ياالله أمنا منك بخير)[٥].

ومثله قوله فى اختيار رأى الخليل وسيبويه فى تعليل قلب الذال دالا عند الادغام فى التاء فى باب الافتعال، حيث يقول:

---

(١) آية ٢٦ من آل عمران.

(٢) معانى القرآن ٢٠٣/١.

(٣) انظر ٣٦٤/١.

(٤) الكتاب ٣١٠/١.

(٥) انظر ٣٦٤/١.

"قال الفراء[١]: أصلها (أى أصل الدال فى نحو يدخر ويدكر ومدكر) الذال، يعنى تذخرون من ذخرت، فالاصل تذتخر فثقل على اللسان الجمع بين الذال والتاء، فأدغموا ،وكرهو أن تذهب التاء فى الذال فيذهب معنى الافتعال بحرف عدل بينهما وهو الدال فقال (تدخرون) قال أبو جعفر[٢]: هذا القول غلط بين، لانهم لو أدغموا على ما قال لوجب أن يدغموا الذال فى التاء، وكذا باب الادغام أن يدغم الأول فى الثانى فكيف تذهب التاء؟...

والصواب فى مذهب الخليل وسيبويه[٣]أن الذال حرف مجهور يمنع النفس أن يجرى والتاء حرف مهموس يجرى معه النفس فأبدلوا من مخرج التاء حرف مجهور يشبه الذال فى جهرها فصار (تذدخر) ثم أدغمت الذال فى الدال فصار تدخر. قال الخليل وسيبويه ان شئت أدغمت الدال فى الذال فقلت (تذخرون) وليس هذا بالوجه"[٤].

ونحوه قوله فى اختيار رأى الكوفيين فى توجيه قولهم (مت) بالكسر و(أموت) حيث يقول "قول سيبويه انه شاذ جاء على (مت) (أموت) ومثله عنده (فضل يفضل) وأما الكوفيون فقالوا : من قال: مت قال : يمات، مثل خفت تخاف، ومن قال : مت قال يموت. وهذا قول حسن"[٥].

---

(١) معانى القرآن ٢١٥/١.
(٢) انظر ٣٧٩/١.
(٣) الكتاب ٤٠٥/٢، ٤٢٢.
(٤) انظر ٣٧٩/١.
(٥) انظر ٤١٥/١.

اختياره أحد الرأيين دون الآخر :

وقد يصرح برد أحد الرأيين مختار للاخر، وذلك مثل قوله "..
ثم اختلفوا فى العلة لحذف الواو. فقال البصريون: حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة وهى ساكنة، ولم تحذف فى (يوجل) لأن بعدها فتحة، والفتحة لا تستثقل، وقال الكوفيون: حذفت الواو للفعل المتعدى، وأثبت فى اللام فرقا. فقالوا فى المتعدى وعد يعد، وفى اللازم يوجل. وعارضوا البصريين بقول العرب : وسع يسع، فحذفت الواو وبعدها فتحة، وكذا ولغ يلغ. والاحتجاج للبصريين أن الأصل وسع يوسع، فحذفت الواو لما تقدم، وفتحت السين، لأن فيه حرفا من حروف الحلق. وقال الكوفيون: حذفت الواو لأنه فعل متعد، ورد عليهم البصريون بقول العرب ورم يرم، فهذا لازم قد حذفت منه الواو، وكذا (يثق) فقد انكسر قولهم انه انما يحذف من المتعدى. قال أبو جعفر وهذا رد بين"[1].

وقد يختار النحاس رأيا واحدا دون غيره، ومن أمثلة ذلك اختياره جواز حذف حرف الجر من المفعول الثانى الذى يتعدى اليه الفعل بحرف جر، حيث ذكر هذا الرأي والتزم به فى مواطن كتابه، ولم يذكر أن هناك رأيا مخالفا.

---

(١) انظر ٤/٤٦٣.

حيث يقول فى قوله تعالى :"فسواهن سبع سموات"[١] :"ويجوز عندى ان يكون "فسوى منهن" كما قال جل وعز "واختار موسى قومه[٢] "أى من قومه"[٣].

ويقول: [٤] فى قوله تعالى "(وان أردتم ان تسترضعوا اولادكم)[٥] : التقدير فى العربية (وإن أردتم ان تسترضعوا أجنبيه لأولادكم). وحذفت اللام لأنه يتعدى إلى مفعولين احدهما بحرف. أنشد سيبويه:

امرتك الخير فافعل ما أمرت بـــه

فقد تركتك ذا مال وذا نشـــب[٦]

يقول :"ويامركم بالفحشاء[٧] ويجوز في غير القرآن (يأمركم الفحشاء) بحذف الباء .

---

(١) آية ٢٩ من البقرة.

(٢) آية ١٥٥ من الأعراف.

(٣) انظر ٢٠٦/١.

(٤) انظر ٣١٧/١.

(٥) آية ٢٣٣ من البقرة.

(٦) الشاهد لعمرو بن معد يكرب انظر ديوانه ٣٥ الكتاب ١٧/١، واعراب القرآن : ٣١٧/١ شرح الشواهد للشنفرى ٤/١ المحتسب ١٧/١، شرح أبيات سيبويه لابن النحاس ٤٦.

(٧) آية ٢٦٨ من البقرة.

ويقول في قوله تعالى (تبغونها عوجا) [١] :"أي تبغون لها ، وحذف اللام مثل (واذا كالوهم) [٢] أي كالوا لهم.." [٣].

ويقول :"وقرأ أهل الكوفة (نرفع درجات من تشاء) [٤] بتقدير (ونرفع من نشاء إلى درجات، ثم حذفت (إلى) [٥].

ويقول في قوله تعالى "قراطيس تبدونها"

ويقول :"(جعلونه قراطيس) أي في قراطيس مثل (واختار موسى قومه) [٧] ويقول : "لاقعدن لهم صراطك المستقيم" [٨] أي لاقعدن لهم في الغي على صراطك، حذفت (على) [٩]، كما حكى سيبويه (ضرب الظهر والبطن).

يقول :"(قال أغير الله أبغيكم...) [١٠]: مفعولان أحدهما بحرف، والأصل (أبغي لكم)، (إلها) نصب على البيان..." [١١].

---

(١) آية ٩٩ من آل عمران.

(٢) آية ٣ المطففين.

(٣) انظر ٧٩/٢.

(٤) آية ٨٤ الأنعام.

(٥) انظر الاتحاف ٢١٢.

(٦) آية ٩٠ من الأنعام.

(٧) انظر ٢: ١١١٧.

(٨) آية ١٦ الاعراف.

(٩) ١٤٧/٢.

(١٠) آية ١٤٠ الاعراف.

(١١) ١٥٤/٢.

ويقول :"وأختار موسى قومه سبعين رجلا" مفعولات احدهما حذفت منه (من)" [١].

ويقول في قوله تعالى (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع :"ما" في نصب على أن يكون المعنى (بما كانوا)، كما يقول (جزيته ما فعل وبما فعل).

ويقول في قوله تعالى :"(بادى الرأى) [٢] : قال أبو إسحاق : نصبة بمعنى في باديء الرأى. قال أبو جعفر: لم يشرح النحويون نصبه فيما علمت بأكثر من هذا. فيجوز أن يكون (في) حذفت [٣] كما قال جل وعز (واختار موسى قومه).

ويقول في قوله تعالى (ويبغونها عوجا) :"قال أبو اسحاق : عوجا مصدر في موضع الحال. قال أبو جعفر: وسمعت على بن سليمان يقول : هو منصوب على انه مفعول ثان. وهذا ما يتعدى الى مفعولين أحدهما بحرف، والتقدير (يبغون بها عوجا) [٤]

ويقول في قوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) [٥]:"ويجوز أن تكون ما في موضع نصب، ويكون التقدير (وصدها الله جل وعز عن عبادتها، أى وصدها سليمان عن عبادتها، فحذف (عن) وتعدى الفعل. [٦]

---

(١) ٢٧٦/٢.
(٢) آية ٢٧ من هود.
(٣) انظر ٧٨٠/٢.
(٤) ٣٦٣/٢ والآية ٣ من إبراهيم.
(٥) آية ٤٣ النمل.
(٦) انظر ٢١٣/٣.

ويقول فى قوله تعالى (ويستجيب الذين آمنوا)[١]:"... ويجوز أن يكون (الذين) فى موضع نصب، أى (ويستجيب الله للذين آمنوا)، وحذف اللام من هذا جائز كثير. ومثله (وإذا كالوهم)، أى كالوا لهم. قال أبو جعفر: هذا أشبه بنسق الكلام لأن الفعل الذى قبله والذى بعده لله جل وعز، وثم حديث عن معاذ ابن جبل يدل على هذا..."[٢].

ويقول فى قوله تعالى (ما كذب الفؤاد ما رأى)[٣]:"التقدير فى التخفيف (ما كذب فؤاد محمد محمدا فيما رآه). وحذفت (فى) كما حذفت (من) في قوله جل وعز (واختار موسع قومه سبعين رجلا)، لأنه مما يتعدى إلي مفعولين بحرف. قال أبو جعفر : هذا شرح بين، لا نعلم أحدا من النحويين بينه".[٤]

ذكره المسائل الخلافية دون اختيار أورد:

وقد يذكر النحاس الارا ء الخلافية فى المسألة فى مواطن دون اختيار أورد، وفى مواطن أخرى تطبيقيه يلتزم احد الآراء مما يدل على اختياره اياه ومن أمثلة ذلك اختياره مذهب سيبويه فى "أو" حيث يقول فى (أو كلما عاهدوا)[٥]:"قال الاخفش : الواو زائدة، ومذهب

---

(١) آية ٢٦ الشورى.

(٢) ٤/٨٢.

(٣) آية ١١ من النجم.

(٤) انظر ٤/٢٦٨.

(٥) آية ١٠٠ من البقرة.

سيبويه أنها واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام[١]. ومذهب الكسائى انها (أو) حركت الواو منها"[٢].

فهو هنا لا يختار، ولا يبدى رأيه. وانما يذكر الآراء فى المسألة. ولكنه فى مواطن أخرى اختار رأى سيبويه والتزم به.

يقول فى (أو من كان ميتا)[٣]:"ومن فتح الواو يجعلها" واو عطف دخلت ألف الاستفهام"[٤]

ويقول فى (أوعجبتم)[٥] :"فتحت الواو لأنها واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام للتقرير. وانما سبيل الواو أن تدخل على حروف الاستفهام إلا الألف لقوتها.[٦]

ذكره بعض الآراء منسوبة وغير منسوبة :

وقد نجد النحاس يذكر رأيا من الآراء دون نسبة، بلفظ يوحى بانه هو رأيه ويذكر غيره من الآراء منسوبا إلى أصحابها، وانما يظهر منه أن الرأي الذى يذكره دون نسبه هو الرأى المختار عنده، وإنما يذكر الآراء الأخرى اثراء لمناقشته باطلاع قارئه على الآراء الأخرى. ومن

---

(١) الكتاب ١٤٢/٣.

(٢) معانى القرآن للفراء ١٧٢/١. وانظر النحاس ٢٥٢/١.

(٣) آية ١٢٢ الأنعام.

(٤) ٩٤/٢.

(٥) آية ٦٣ الاعراف.

(٦) ١٣٥/٢، ١٣٦.

أمثلة ذلك قوله فى قوله تعالى(ألا تكلم الناس: [١] (ويجوز رفع (تكلم) بمعنى (أنك لا تكلم الناس) مثل (ألا يرجع اليهم قولا) [٢] والكوفيون يقولون : الرفع على أن تكون (لا) بمعنى (ليس) [٣].

فهو يذكر الرأي الأول دون نسبة إلى طائفته، على أنه رأي الكوفيين للإفادة ونحوه قوله فى نحو (يا أيها الناس): (يا) حرف النداء، و(أي) نداء مفرد، ضم لأنه كان يجب أن لا يعرب فكرهوا أن يخلوه من حركة لأنه قد كان متمكنا فاختاروا له الضمة لأن الفتحة تلحق المعرب فى النداء والكسرة تلحق المضاف اليه، وأجاز أبو عثمان المازنى "يا أيها الناس (بالفتح)" على الموضع، كما يقال : يازيد الظريف وزعم الأخفش أن (الناس) فى صلة "أي" والهاء" للتنبيه، إلا أنها لا تفارق "أيا" لأنها عوض من الإضافة" [٤].

وقد يظهر المختار من النحاس من حيث أنه يذكر رأيا من الاراء الخلافيه منسوبا إلى الجماعة أو الجمهور ويذكر الرأي المخالف منسوبا إلى صاحبه على أنه شذ عن الجماعة ولا يصرح باختيار أو رد، ولكن يظهر من أسلوبه أنه يختار رأي الجماعة وإنما يذكر الرأي المخالف من باب الفائدة.

---

(١) ٤١ آل عمران.

(٢) ٨٩ طه.

(٣) ٣٧٥/١.

(٤) انظر ١٩٧/١.

ومن أمثلة ذلك قوله :"(فالق الاصباح) [١] نعت، وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند أحد من النحويين إلا عند الكسائى [٢]

ونحوه قوله :"قرأ أهل المدينة (ومحياى) [٣]باسكان اليا ء فى الادراج، وهذا لم يجزه أحد من النحويين الا يونس، لأنه جمع بين ساكنين، وإنما أجازه يونس لأن قبله ألفا ، والألف المدة التى فيها تقوم مقام الحركة. أجاز يونس (اضربان زيدا) وإنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين وليس فى الثانى إدغام[٤].

تعقيب على بعض الآراء:

وقد يذكر بعض الآرا ء في المسألة النحوية معقبا على ذلك بأيراد رأي مخالف ومن أمثلة ذلك ما سبق من حديث عن علة بناء مثل "آلم"، حيث قال : مذهب الخليل وسيبويه فى (ألم) وما أشبهها أنها لم تعرب لأنها بمنزلة حروف التهجى فهى محكية، ولو أعربت ذهب معنى الحكاية، وكان قد أعرب بعض الاسم... وقال أحمد بن يحيى : لا يعجبنى قول الخليل فيها ، لانك إذا قلت و(زاي) فليست هذه الزاي التى فى (زيد) ، لأنك قد زدت عليها. قال أبو جعفر : هذا الرد لا يلزم لأنك لا تقدر أن تنطق بحرف واحد حتى تزيد عليه"[٥].

---

(١) آية ٩٦ الانعام.

(٢) انظر ٢/٨٤ وانظر مختصر ابن خالويه ٣٩.

(٣) آية ١٦٢ الانعام.

(٤) ٢/١١١.

(٥) ١/١٧٧.

ومثله قوله :"روى الخليل رحمه الله عن عبد الله بن كثير (غير المغضوب) بالنصب قال الأخفش : هو نصب على الحال، وان شئت على الاستثناء. قال ابو العباس : هو استثناء ليس من الاول. قال الكوفيون: لا يكون استثناء، لان بعده "ولا" ولا تزاد "لا" فى الاستثناء. قال أبو جعفر : وذا لا يلزم، "لان فيه معنى النفى"[١].

اعتماده على السماع:

وكان أبو جعفر النحاس يعتمد على السماع اعتمادا كبيرا فى فكره النحوي فهو يختار الرأى لموافقته السماع، ويرده لمخالفته اياه، ويقوى ما يختاره بانه مسموع، ويرد ما يرده بانه لم يسمع، أو لم ينطق به العرب.

ومن أمثلة ذلك مارأينا من اعتماده على الشواهد السماعية فى اختيار صحة حذف حرف الجر من المفعول الثانى الذى يتعدى اليه الفعل بحرف، إلى الأول مباشرة.

ومن أمثلة ما رأينا من اختياره رأي الخليل وسيبويه ورده رأى الفراء فى "اللهم" اعتمادا على أن احدا من الفصحاء لا يقول "يا اللهم".

وهو يرد الرأى الذى يخالف المسموع الثابت، مثل قوله فى الرد على الكوفيين فى رأيه أن "الربا" يائى اللام: "وسمعت أبا اسحاق يقول ، وقد ذكر الكوفيين : لا يكفيهم فى قولهم "ربيان" أن يخطئوا فى الخط، فيكتبوا "الربا" بالياء، حتى يخطئوا فى التثنية، واستعظم هذا.

---

(١) ١/١٧٦.

وقد قال الله عز وجل (ليربوا في اموال الناس) فهذا ابين أنه من ذوات الواو، وان القول كما قال أبو اسحاق"[١].

ويقول :"ولا يصح ان يكون "الا" بمعنى الواو، ولا يعرف ذلك في كلام العرب..."[٢]

وهو قد يعتمد في ذلك على القرآن الكريم وقراءاته، مثل قوله: (متى) عند الكوفيين في موضوع نصب، وكذا الجواب عندهم في المعرفة اذا قيل : متى وعدك، قيل يوم الجمعة. فإن كان نكرة رفعت، فقلت (موعدك يوم قريب. وكذا ظروف المكان وحكى الفراء (اجتمع الجيشان فالمسلمون جانب والكفار جانب صاحبهم)، والثاني منصوب لأنه معرفة، والأول مرفوع لأنه نكرة.

فاعتل في النصب مع المعرفة، لان الخبر مسند اليها لانها معرفة فحسنت الصفة. وبنو المسائل على هذا فتقول : عبد الله جانب المسجد، وزيد جانب منه[٣]. وأما البصريون فالرفع عندهم الوجه اذا كان الظرف متمكنا. قال سيبويه[٤]: وتقول : موعدك غدوة وبكرة، وموعدك بكرا، لأن (بكرا) لا يتمكن.

والدليل على صحة قول البصريين قراءة القراءة الا من شذ منهم: (قال موعدكم يوم الزينة)[٥].

---

(١) ٣/٢٧٦.

(٢) ١/٤٨٠.

(٣) ٣/٧٠-٧١.

(٤) الكتاب ١/١١٢.

(٥) آية ٥٩ طه.

ومثله قوله في "ثمود": لم ينصرف لأنه جعل اسما للقبيلة. وقال أبو حاتم لم ينصرف لانه أعجمي. وهذا غلط: لأنه مشتق من الثمد. وقد قرأ الفراء "إلا أن ثمودا كفروا ربهم"[١] على أنه اسم للحى. وقرأ يحيى بن وثاب "وإلى ثمود أخاهم صالحا"[٢] بالصرف[٣].

وقد يعتمد على الحديث النبوى الشريف، مثل اختياره صحة مجئ "ان" بمعنى "نعم" اعتمادا على شواهد منها حديث نبوى[٤] رواه هو باسناده، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: "ان الحمد لله نحمده ونستعينه..."[٥]

وقد يعتمد على كلام العرب "مثل قوله :"... ودخلت الفاء، ولا يجوز زيد فمنطلق"، ولان في الكلام معنى الجزاء، أى من أجل نفقتهم فلهم أجرهم. هذا كلام العرب..."[٦]

ونحو قوله :"... نعم المولى" رفع بـ "نعم"، لانها فعل. قال أبو عمر الجرمى[٧]: والدليل على انها فعل قول العرب :"نعمت"،

---

(١) آية ٦٨ هود.

(٢) آية ٧٣ الأعراف.

(٣) انظر ١٣٧/٢.
وبها قرأ الاعمش أيضا مختصرا ابن خالويه ٤٤.

(٤) ٤٤/٣.

(٥) تفسير الطبرى ٢١٨/١١.

(٦) ٣٤٠/١.

(٧) هو صالح بن اسحاق أبو عمر الجرمى تتلمذ على الأخفش وقرأ عليه كتاب سيبويه توفى سنة ٢٢٥ هـ.

التاء"[١] وقد يعتمد على الشعر، ومن هذا القبيل إجازته زيادة "أن" فى خبر "كاد" اعتمادا على السماع، حيث يقول : ويجوز فى غير القرآن "يكاد أن يفعل "، "كما قال ...

.... "كاد من طول البلى أن يمصحا"[٢]

ومن أمثلة اعتماده على السماع ولو كان لغة بعض العرب اختياره صحة حذف "أن" من خبر" عسى" دون قيد، وإجازة مجيئ الاسم الظاهر خبرا لـ:"عسى" اعتمادا على السماع على أنه لغة لبعض العرب، ومن العرب من يحذف (أن) من الخبر.

ومن العرب من يأتى بالاسم فى خبرها، فينصبه فيقول : (عسى زيد قائما)[٣].

اهتمامه بالقياس :

وكان اهتمامه بالقياس لا يقل عن اهتمامه بالسماع فى توجيه آرائه فقد يختار الحكم اعتمادا على القياس، مثل قوله :(انما المؤمنون) ابتداء، (ما) كافة ويجوز فى القياس النصب ومنعه سيبويه)[٤].

---

(١) ١٨٧/٢.

(٢) انظر فى ديوان رؤبة بن العماج ١٧٢ وقبله.
(ارسم عفا من بعد ما قد امنحا) الكتاب ٤٧٨/١ اعراب القرآن ١٩٥/١.

(٣) ١٨٧/٤.

(٤) ١٧٥/٢.

ومثله اختيار صحة ضم التاء من (يا أبت) قياسا على قوله سيبويه وعليه، حيث يقول :(وزعيم ابو اسحاق أنه لا يجوز "يا أبت"، بالضم، قال ابو جعفر: ذلك عنده لا يمتنع، كما أجاز سيبويه الفتح تشبيها بها أيضا)[١].

ومثله اختياره عدم صرف العلم المؤنث مطلقا، حيث يقول : ......أما أبو اسحاق فكان يقول : إذا سميت امرأة بهند لم يجز الصرف البته. وهذا هو القياس لأنها مؤنثة، وهي معرفة"[٢].

أسس القياس عند النحاس :

ومن أسس القياس عنده أن يكون المقيس عليه غير شاذ فى العربية، وقد صرح بذلك في مواطن عديدة، ومن ذلك قوله عند قوله تعالى :"يا أيها الذين آمنوا إذ قمتم إلى الصلاة[٣]" إلى أن الخفض على الجوار، والمعنى للغسل. قال الأخفش: ومثله "هذا حجر ضرب خرب". وهذا القول غلط عظيم، لأن الجوار لا يجوز فى الكلام أن يقاس عليه، وإنما هو غلط، ونظيره الاقواء..."[٤].

ومن أسس قبول القياس عنده أن تكون العلة جامعة، فلا يصح القياس مع الفارق ومن هنا نراه يرفض كثيرا الآراء التى اعتمد فيها اصحابها على القياس بحجة ان هذا القياس لا يسمح، اذ المقيس عليه يختلف عن المقيس فى العلة. [٥]

---

(١) ٢/٣١٢.
(٢) ٤/١٦٧-١٦٨.
(٣) آية ٦ من المائدة.
(٤) ٢/٩.
(٥) ينظر مثلا ٢/٥١، ٣/٢٦٢، ٥/٢٥.

الإستصحاب عن النحاس :

وقد يعتمد النحاس فى أفكاره على ما يسمى فى أصول النحو باستصحاب الحال أو استصحاب الأصل، وذلك مثل اختياره صحة أمر المخاطب باللام بأنه مراعاة للأصل حيث يقول :"فإن شئت حذفت اللام فى المخاطب لكثرة استعمالهم ذلك، وهو أجود وإن شئت اثبتها على الأصل" [١].

ويقول :"قال أبو جعفر : سبيل الأمر أن يكون باللام، ليكون معه حرف جازم كما أن مع النهى حرفا ، إلا أنهم يحذفون من الامر للمخاطب استغناء بمخاطبته، وربما جاءوا به على الأصل [٢]، ومنه (فبذلك فالتفرحوا) [٣].

ومن ذلك اختياره أحد التوجيهات فى قوله تعالى :"ان هذان لساحران بحجج منها الاعتماد على استحصاب الحال الاصلية، حيث يقول : قرأ المدنيون والكوفيون (ان هذان لساحران)... قال أبو جعفر: (للعلماء فيها ستة أقوال : منها أن يكون (إن) بمعنى (نعم)... فهذا قول.

الكسائى والأخفش والفراء: هذا على لغة بنى الحارث بن كعب قال الفراء يقولون : رأيت الزيدان، ومررت بالزيدان: ... وحكى أبو الخطاب أن هذه لغة بنى كنانة [٤].

---

(١) ٣٤٤/١.

(٢) ٢٥٩/٢.

(٣) آيه ٥٨ من يونس.

(٤) وهى لغة من يلزم المثنى الألف انظر ٤٥/٣ وشرح التصريح ٨٦/١.

وللفراء قول آخر [١] ... قال أبو جعفر : القول الأول أحسن إلا أن فيها شيئا لأنه انما يقال : نعم زيد خارج، ولا يكاد اللام ههنا.... والقول الثانى من أحسن ماحملت عليه الآية، إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى علمه وصدقه وأمانته، منهم أبو زيد الانصارى... وأبو الخطاب الأخفش... ومن بين ما فى هذا قول سيبويه : واعلم انك اذا ثبت الواحد زدت عليه زائدتين الأولى منهما حرف مد ولين، وهو حرف الإعراب[٢]. قال أبو جعفر : فقول سيبويه (وهو حرف الإعراب) يوجب أن الأصل أن لا يتغير، (إن هذان) جاء على أصله ليعلم ذلك.

وقد قال الله جل وعز :"استحوذ عليهم الشيطان"[٣]، ولم يقل: (استحاذ) فجاء على هذا ليدل على الأصل اذ كان الأئمة قد رووها وتبين أنها الأصل وهذا بين جدا"[٤].

اعتماده على مراعاة وجود النظرة:

وقد يؤسس النحاس بعض آرائه على مراعاة وجود نظائر لما يختاره فى العربية ومن ذلك اختياره رأي الأخفش فى نحو "بئسما"، حيث يبين الخلاف فيه بأنهم اختلفوا فى (ما) فى قوله تعالى "بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا"[٥].

---

(١) انظر معانى القرآن للفراء ١٨٣/٢.

(٢) الكتاب ١٥٢/٣.

(٣) آية ١٩ المجادلة.

(٤) ٤٣/٣، ٤٧.

(٥) آية ٩٠ البقرة.

فذهب سيبويه إلى أنها تامة بمعنى "الشى"، وذهب الكسائى إلى أنها مصدرية وذهب الاخفش إلى أنها نكرة موصوفة، وذهب الفراء إلى أنها كافة مع بئس، مثل (ما) فى "كلما"، ثم يقول "أبين هذه الأقوال قول الاخفش، نظيره ما حكى عن العرب (بئسما تزويج ولا مهر)، (ودققته دقا نعما) [١].

وهو يرفض الرأي الذى يؤدى إلى مخالفة النظائر، وذلك مثل رفضه رأي الكوفيين فى قوله فى "صيب" : الاصل عند البصريين "صيوب ثم أدغم، مثل "ميت" وعند الكوفيين الاصل "صويب، ثم أدغم، ولو كان كما قالوا لماجاز ادغامه، كما لا يجوز إدغام (طويل) [٢].

ومثل رفضه نقل الكوفيين فى جمع "صديق" لمخالفته نظائره، حيث يقول "وحكى الكوفيون أن يقال فى جمعه"صدقان" وهذا بعيد، لأن هذا جمع ما ليس بنعت، نحو "رغيف ورغفان" [٣].

وكثرا ما يعتمد النحاس الرأي لموافقته ما تقتضيه الأصول النحوية والقواعد المعروفة ويرد الرأي لمخالفته إياها. ومن أمثلة ذلك اختياره رأى سيبويه ورفضه رأي الأخفش والفراء فى توجيه نصب مثل "استعجالهم" في قوله تعالى :

---

(١) انظر ٢٤٧/١.

(٢) ١٨٥/٣.

(٣) ٢٤٧/٣.

(ولويعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) [١]، وذلك لأن رأى سيبويه يوافق القواعد النحوية والاستعمال المعروف، وأيهما يخالف ما عرف لدى النحاة من الاستعمالات والقواعد اللغوية، حيث يقول :"استعجالهم على قول الأخفش والفراء بمعنى (كاستعجالهم)، ثم حذف الكاف ونصب. قال الفراء : كما تقول : ضربت زيدا ضربك، أى كضربك فأما مذهب الخليل وسيبويه [٢]، وهو الحق، فان التقدير فيه (لو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثلا استعجالهم بالخير ثم حذف تعجيلا وأقام صفته مقامه ثم حذف صفته وأقام المضاف اليه مقامه، مثل (واسأل القرية) وحكى سيبويه (زيد شرب الابل). ولو جاز ما قال الأخفش والفراء "زيد الاسد" أي كالأسد فهذا بين جدا " [٣].

ومثله رفضه رأي قطرب فى توجيه " يا أبت" بالفتح لمخالفته القاعدة النحوية المعروفة بـ "أن" لا يقال في النكرة، واختياره رأيا آخر لموافقته القواعد النحوية حيث يقول :"وقال قطرب أيضا فى (يا أبت) بالفتح يكون الاصل (يا ابتا) ثم حذف التنوين. وقال أبو جعفر : هذا الذى لا يجوز، لان التنوين لا يحذف لغير عله، وأيضا فانما يدخل التنوين فى النكرة، ولا يقال فى نكرة (يا أبة).

---

(١) آية ١١ يونس.

(٢) الكتاب ١٠٨/١.

(٣) ٢٤٧/٢.

وفي الفتح قول رابع كانه احسنها ، يكون الاصل الكسر ، ثم أبدل من الكسرة فتحة كما تبدى من الياء ألفا ، فيقال في (يا غلامي أقبل) : (يا غلاما أقبل) [١].

ومن هذا القبيل رفضه رأى الفراء في جواز رفع المنادى المضاف والشبيه به والنكرة لان قوله يؤدى إلى بطلان القواعد الثابتة في باب النداء، حيث يقول : (يا حسرة...) منصوب، لانه نكرة لا يجوز فيه الا النصب عند البصريين وزعم الفراء أن الاختيار النصب وانها لو رفعت النكرة الموصولة بالصفة لكان صوابه واستشهد باشياء منها انه من العرب (يا مهتم بامرنا لا تهتم).

قال أبو جعفر : في هذا بطلان باب النداء، لأنه يرفع النكرة المحضه ويرفع ما هو بمنزلة المضاف في طوله. ويحذف التنوين متوسطا ويرفع ما هو في المعنى مفعول بغير عله أوجبت ذلك. فأما ما حكاه من العرب فلا يشبه ما أجازه، لانه تقدير (يا مهتم بامرنا لا تهتم) على التقديم والتأخير، والمعنى (يا أيها المهتم لا تهتم بأمرنا). [٢]

الاجماع عند النحاس :

وقد يعتمد النحاس في حكمه على اجماع النحويين، فيرفض ويرد الرأى الذى يؤدى إلى مخالفة ما أجمع عليه النحويون ويختار ما ليس فيه هذا المخالفة، ومن أمثلة ذلك أنه رفض رأي الفراء في

---

(١) ٢/٣١١-٣١٣.

(٢) ٣/٣٩١-٣٩٢.

توجيه قوله تعالى (ان كلا لما ليوفينهم ربك) لانه يخالف ما أجمع النحويون على منعه، حيث يقول :"وقراءة نافع على هذا التقدير الا أنه خفف (ان) واعملها عمل الثقيلة. وقد ذكر هذا الخليل وسيبويه وهو عندهما كما يحذف من الفعل ويعمل، وانكر الكسائى أن تخفف (ان) وتعمل)، وقال : ما أدرى على أى شئ قرأ (وان كلا) وقال الفراء : نصب كلا بقوله (ليوفينهم)، وهذا من كثير الغلط، لا يجوز عند أحد (زيدا لاضربنه) [١].

ومثله ما رأينا من رفضه قراءة (وما أنتم بمصرخى) بكسر الياء لمخالفته إجماع النحويين. [٢]

ومثله ما رفضه ما أجازه الأخفش الصغير من استعمال ضمير الغائبات للمذكر يقول فى قوله تعالى :(تكاد السموات يتفطرون من فوقهن) [٣] :"وسمعت على بن سليمان يقول : الضمير للكفار، اى يتفطرون من فوق الكفار لكفرهم. قال أبو جعفر: ولا نعلم أحدا من النحويين أجاز فى بنى آدم (رأيتهن) إلا أن يكون للمؤنث خاصة فهذا يدل على فساد هذا القول ... [٤].

---

(١) ٢/٢٠٥.

(٢) ينظر ٢/٣٦٨-٣٦٩، ٤/٤٢١.

(٣) آية ٥ من الشورى.

(٤) ٤/٧٢.

انتصاره لسيبويه :

وفى أحيان كثيرة يؤيد النحاس الرأي أو يرفضه اتباعا لمذهب معين، أو لرأى نحوى من النحويين، ولاسيما المذهب البصرى، وبخاصة الخليل وسيبويه، فانه يختار الرأى قائلا مثلا "هذا قول سيبويه"، أو "كذا قال الخليل وسيبويه"، ويرد قائلا "هذا خطأ عند سيبويه "أو "هذا لحن عند الخليل وسيبويه"، أو "هذه لا يجوز عند البصريين" أو نحو ذلك.

ومن أمثلة ذلك اختياره جواز حذف الواو من ضمير الغائب اتباعا لسيبويه ورده على أبى حاتم اعتمادا على ذلك فى قوله : "وحكى ابن حاتم أن أبا عمرو وعيسى وطلحة قرءوا (انه هو التواب) مدغما [١]، وان ذلك لا يجوز، لان بين الهاءين واوا فى اللفظ، لا فى الخط. قال أبو جعفر: أجاز سيبويه ان تحذف هذه الواو [٢] فعلى هذا يجوز الادغام" [٣].

ومنه رده رأى الفراء فى مجئ التمييز معرفة اتباعا للبصريين على كلام سيبويه، حيث يقول :"وقول الفراء : انه نفسه مثل (ضقت به ذرعا) محال عند البصريين لانه جعل المعرفة منصوبة على التمييز. قال سيبويه [٤] وذكر الحال، وأنها مثل التمييز : وهذا لا يكون إلا

---

(١) الاتحاف ١٣٤.

(٢) الكتاب ١/١١.

(٣) انظر ١/٢١٥.

(٤) الكتاب ١/٢٦٣.

نكرة يعنى ما كان منصوبا على الحال، كما أن ذلك لا يكون الا نكرة يعنى التمييز. قال أبو جعفر: فإن جئت بمعرفة زال معنى التمييز لانك لا تبين بها ما كان من جنسها. [١]

يقول فى قوله تعالى (بطرت معيشتها) [٢]: "منصوب عند المازنى بمعنى (فى معيشتها) فلما حذف (فى) تعدى الفعل. وهو عند الفراء منصوب على التفسير [٣] ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين، لان معنى التفسير والتمييز أن يكون واحدا نكرة يدل على الجنس" [٤].

ومنه رده مذهب الفراء والأخفش فى جواز مجئ "أن" بمعنى "لو".

حيث يقول :"... قال الأخفش والفراء : أجيبت (إن) بجواب (لو) لأن المعنى (ولو أتيت الذين اوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) [٥].

وكذا تجاب (لو) بجواب (إن)، تقول : (لو أحسنت أحسن اليك) ومثله (لئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا)، أى لو أرسلنا ريحا. قال أبو جعفر: هذا القول خطأ على مذهب سيبويه، وهو الحق.

---

(١) انظر ٢٦٣/١.

(٢) آية ٥٨ من القصص.

(٣) معانى القرآن ٣٠٨/٢.

(٤) انظر ٢٤٠/٣.

(٥) آية ١٤٥ من البقرة.

لان معنى (إن) خلاف معنى (لو)، يعنى أن معنـى (إن) يحببهـا الشيئ لجواب غيره، تقول أن أكرمتنى أكرمتك ومعنى (لو) أنه يمتنع بها الشئ لامتناع غيره، فلا تدخل واحدة منها على الاخرى"(١).

ومن هذا القبيل رده على أبى عبيد فى اختياره لقراءة النصب فى (حتى يقول الرسول) حيث يقول : (... ... لأن (حتى) ليست من حرف العطف فى الأفعال ولا هى ألبتـه من عوامل الأفعال. كذا قال الخليل وسيبويه فى نصبهم ما بعدها على اضمار (أن)، انما حذفوا (أن) لأنهم قد علموا أن (حتى) من عوامل الاسماء، هذا معنى قولهما....) (٢).

اعتماده على العلل النحوية :

كما كان يعتمد على العلل النحوية. ومن أمثلة ذلك صحة قراءة (الحمد لله) و(الحمد لله)، والرد على الأخفش الصغير، حيث يقول :"وحكى الفراء (الحمد لله) و(الحمد لله) قال أبو جعفر : وسمعت على بن سليمان يقول : لا يجوز من هذين شيئ عند البصريين. قال أبو جعفر: وهاتان لغتان معروفتان، وقراءتان موجودتان فى كل واحدة منهاعلة.

روى اسماعيل بن عياش عن زريق عن الحسن أنه قرأ (الحمد لله) وقرأ إبراهيم بن عبلة (الحمد لله)، وهذه لغة بعض بنى ربيعة،

---

(١) ١/٢٧٠.

(٢) ١/٣٠٤.

والكسر لغة تميم. فأما العلة فى الكسر فإن هذه اللفظة تكثر فى كلام الناس، والضم ثقيل، ولاسيما إذا كانت بعده كسرة فأبدلوا من الضمة كسرة، وجعلوها بمنزلة شئ واحد. والكسرة مع الكسرة أخف وكذلك الضمة مع الضمة، فلهذا قليل (الحمد لله) [١].

ومن ذلك تعليله جواز النصب فى المضارع المعطوف على الجواب للشرط - على ضعفه بعلة المشابهة، حيث يقول : (فأما النصب (ونكفر) فضعيف، وهو علي اضمار (أن) وجاز على بعد لأن الجزاء إنما يجب به الشىء لوجوب غيره، فضارع الاستفهام) [٢].

ومن ذلك اعتماده مذهب البصريين فى علة حذف الواو فى نحو "وثق يثق" و"وهب يهب" انه لعلة الاستثقال [٣].

ومن أمثلة اعتماده على العله قوله :"وأجاز الفراء (على آن يحي الموتى" [٤] يقلب حركة الياء الاولى على الحاء ويدغم الياء في الياء [٥]. وهذا خطأ عند الخليل وسيبويه [٦]، والعلة في ذلك - وهو

---

(١) ١/١٧٠.

(٢) ١/٣٣٩.

(٣) جاء فى كتاب الانصاف للانبارى ص ٧٨٢ :"وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : انما قلنا ان الواو حذفت لوقوعها بين ياء وكسرة وذلك لا اجتماع الياء والوا والكسرة مستثقل فى كلامهم".

(٤) انظر ٥/٩٤ وهى آية ٤٠ من القيامة.

(٥) معانى القرآن للفراء ٣/٢١٣.

(٦) الكتاب ٢/٣٨٨.

معنى كلام ابى اسحاق- أنك إذا قلت : (يحيى) لم يجز الإدغام باجماع النحويين لئلا يلتقى ساكنان. فاذا قلت (أن يحيى) لم يجز الإدغام أيضا ، لأن الياء وإن كانت قد تحركت فحركتها عارضة. وايضا فكيف يجوز ان يكون حرف واحد يدغم فى موضع لعامل دخل عليه غير ملازم، ولا يجوز أن يدغم وهو فى موضع رفع، والرفع الأصل" (١).

الاطراد شرط من شروط قبول الحكم عند النحاس :

ويرى النحاس أن من شروط قبول الحكم واختياره أن يكون مطردا ، لا ينكسر، ولا يتناقض، بحيث ينطبق على بعض الظواهر، ولا ينطبق على الباقى، ومما يبين لنا ذلك أننا نراه يرد رأي الكوفيين فى علة حذف الواو من مثل (وثق يثق) بحجة انكساره وعدم اطراده، حيث يقول :"... ثم اختلفوا فى العلة لحذف الواو. فقال البصريون حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة وهى ساكنة، ولم تحذف فى (يوجل) لأن بعدها فتحة، والفتحة لا تستثقل. وقال الكوفيون: وحذفت الواو للفعل المتعدى، وأثبت فى اللازم فرقا . فقالوا فى المتعدى وعد يعد، وفى اللازم وجل يوجل. وعارضوا البصريين بقول العرب : وسع يسع، فحذفت الواو وبعدها فتحة، وكذا ولغ يلغ والاحتجاج للبصريين أن الأصل وسع يوسع، فحذفت الواو لما تقدم ، وفتحت السين لأنّ فيه حرفا من حروف الحلق. (٢)

---

(١) انظر ٥/٩٤.

(٢) انظر ٤/٤٦٢ وانظر الانصاف ٧٨٢.

وقـال الكوفـيـون : حـذفت الواو لأنـه فـعل مـتـعـد. ورد عليـهم البصريون بقول العرب ورم يرم، فـهذا لازم قد حذفت منه الواو، وكذا (يثق)، فقد انكسر قولهم انه إنما يحذف من المتعدى. قال أبو جعفر: وهذا رد بين. (١)

ومن هذا القبيل رده على الفراء إجازته زيادة "من" فى النفي على المفعول الثانى لرأى "، وفى مناقشة طويلة، يقول فيها "... حكى الفراء عن العرب أنهم لا يقولون (ما رأيت عبد الله من رجل)، غير أنه أبطل هذا وترك ما روى عن العرب وأجاز ذلك من قبل نفسه فقال : ولو أرادوا (ما رأيت من رجل عبد الله) لجاز إدخال "من"، تتأول القلب. قال أبو اسحاق: وهذا خطأ لا يجوز ألبته وهو كما قال. ثم رجع الفراء، فقال : العرب إنما تدخل (من) فى الأسماء. وهذه مناقضة بينة..." (٢)

ومثله اختياره رأى الخليل فى زيادة الألف على واو الجماعة فى "كتبوا" ورفض رأي الأخفش وثعلب لأن رأيهما ينكسر، ولا يطرد خلافا لرأي الخليل فإنه مطرد.." (٣) كما أن النحاس كثير العناية بالمعنى والاعتماد عليه فى الاختيار فيرد الرأى الذى "يؤدى إلى فساد المعنى، ويقبل الرأي إذا أيده المعنى وقواه".

---

(١) ٤/٤٦٣-٤٦٣ وانظر الانصاف ٧٨٢.

(٢) ٣/١٥٤-١٥٥. وانظر معانى القرآن للفراء ٢/٢٦٤.

(٣) ٤/١٧٧-١٧٨.

(٤) الحجة لأبى على الفارسى ١/١٠٥.

ومن أمثلة ذلك ما رأينا من قوله :(يروى الخليل رحمه الله عن عبد الله بن كثير (غير المغضوب) النصب[١] قال الاخفش: هو نصب على الحال، وان شئت على الاستثناء. قال أبو العباس : هو إستثناء ليس من الأول. قال الكوفيون : لا يكون إستثناء لأن بعده (ولا)، ولا تزاد (لا) فى الاستثناء. قال أبو جعفر: ولا يلزم، لأن فيه معنى النفى"[٢] فهو يجيز حمله على الاستثناء اعتمادا علي المعنى.

ومن أمثلة اعتماده على المعنى رده مذهب الفراء والأخفش فى جوازم مجئ "أن" بمعنى "لو" واختياره مذهب سيبويه المانع منه، حيث يقول :"وهذا القول خطأ على مذهب سيبويه[٣] وهو الحق، لأن معنى "إن" خلاف معنى "لو" بعنى أن معنى "إن" يجب بها الشئ لوجوب غيره... ومعنى "لو" أنه يمتنع بها الشيئ لامتناع غيرة، فلا تدخل واحدة منها على الأخرى... [٤].

ومن هذا القبيل إنكار مجئ اللام بمعنى "على" حيث يقول: "وان أسأتم فلها أي العقاب لها ، (ولها) بمعنى (عليها) لا بقوله النحويون الحذاق، وهو قلب للمعنى..."[٥].

---

(١) الحجة لأبى على الفارسى ١/١٠٥.

(٢) ١/١٧٦.

(٣) الكتاب ١/٤٥٦.

(٤) انظر ١/٢٧٠.

(٥) انظر ٢/٤١٥، ٤١٦.

تأييده للآراء التى جاءت موافقة للنصوص الشرعية :

وقد يؤسس النحاس تأييده لرأي أورده على مدى موافقته ما ورد عن الشرع من النصوص، وما جاء عن السلف من تفسيرات. ومن أمثلة ذلك ما رأينا من رفضه إعراب (الأرحام) بالجر قسما فى قوله تعالى :(تساءلون به والأرحام) لأن ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على النصب، لا على القسم.(١)

ومثله ما رأيناه من اختياره رأى سيبويه، ورفضه رأى الفراء في إعراب نحو قوله تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) لمخالفة توجيه الفراء ما صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم من نهيه عن أن يقال : ما شاء الله وشئت".(٢)

ومثله رده رأي في قوله تعالى (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع)(٣) حيث يقول : (للكافرين) قوله الفراء(٤) ان التقدير (بعذاب للكافرين) ولا يجوز عنده أن يكون (للكافرين) متعلقا بـ "واقع" قال أبو جعفر: وظاهر القرآن على غير ما قال، وأهل التأويل على غير قوله، قال مجاهد: وواقع فى الآخرة. وقال الحسن:

---

(١) انظر ١/٤٣١-٤٣٢.

(٢) انظر ٢/٢٢٤ وانظر معانى القراء ١/٤٤٥.

(٣) آية ٢ من سورة سزل.

(٤) معانى القرآن للفراء ٣/١٨٣.

أنزل الله جل وعز (سائل سائل بعذاب واقع) فقالوا : لمن هو ؟ على من يقع ؟ فأنزل الله تعالى : (للكافرين ليس له دافع) [١].

اختياره ما يدل عليه نسق الكلام :

ويختار النحاس الحكم الذى يوافق ما يدل عليه نسق الكلام وسياقه، ويرد ما يخالف ذلك، ومن أمثلة ذلك أنه يختار أن تكون (أن) تفسيرية ويرجحه لموافقته نسق الكلام، فى قوله تعالى :"ألا تطغوا فى الميزان" [٢] حيث يقول "أن" فى موضع نصب، والمعنى (بأن لا تطغوا) ، و(تطغوا) في موضع نصب بـ "أن" ويجوز أن يكون (أن) بمعنى (أى) فلا يكون لها موضع من الاعراب، ويكون (تطغوا) في موضع جزم بالنهى. قال أبو جعفر: وهذا أولى، لأن بعده (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) [٣].

ومثله قوله :"ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات..." [٤] يجوز أن يكون "الذين" فى موضع رفع بفعلهم، أي ويجيب الذين آمنوا ربهم فيما دعاهم إليه" ويجوز أن يكون فى موضع نصب، أي ويستجيب الله للذين آمنوا" ، وحذف اللام من هذا جائز كثير، ومثله

---

(١) آية (١) من سورة المعارج.

(٢) آية ٨ من الرحمن.

(٣) انظر ٣٠٤/٤.

(٤) آية ٢٦ من الشورى.

"واذا كالوهم"، أى كالوا لهم. قال أبو جعفر : هذا أشبه بنسق الكلام، لأن الفعل الذى قبله والذى بعده لله جل وعز. [١]

اختياره الآراء التى لا تؤدى الى تعسف أو تقدير :

ويرفض النحاس الرأي الذى يؤدى إلى تعسف أو تكلف أو تقديرات لا حاجة إليها ويختار ما ليس فيه ذلك، ومن أمثلة ذلك ما رأينا من اختياره مذهب سيبويه فى توجيه نحو قوله تعالى :(والله ورسوله أحق أن يرضوه) ورفض رأي المبرد قائلا :"ولا يقدر فى شئ تقديم ولا تأخير ومعناه صحيح"[٢]

ومن هذا القبيل رده رأى الفراء للتكلف، واختياره رأي الزجاج لبعده عنه فى قوله : "وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم"[٣] قول الفراء ان "فى" زائدة والمعنى[٤] ولقد تركناها آيه.

ومثله عنده (لقد كان فى يوسف واخوته آيات للسائلين)[٥] وهذا المتناول البعيد مستغنى عنه. قال أبو اسحاق: ولقد تركنا فى مدينة قوم لوط عليه السلام آية للخائفين"[٦].

---

(١) انظر ٨٢/٤.

(٢) انظر ٢٢٣/٢، ٢٢٤.

(٣) آية ٣٧ الذاريات.

(٤) معانى الفراء ٨٧/٣.

(٥) آية ٧ من يوسف.

(٦) انظر ٢٤٥/٤.

ومثله إنكاره توجيهه في فتح همزة (أنا) من قوله تعالى: (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) [(١)] بأنه متعسف يقول: "... وزعم الفراء أن فتحها من جهتين [(٢)]، احداهما أن تردها على (كيف) قال أبو جعفر: وهذا لا يحصل لأن (كيف) للاستفهام، و(أنا) غير داخل في الاستفهام. والجهة الأخرى عنده أن تكر عليها كان، كأنك قلت: كان عاقبة امرهم تدميرهم. قال أبو جعفر وهذا متعسف. وفي فتحها خمسة أوجه، منها أن يكون التقدير (لأنا دمرناهم) وتكون (أن) في موضع نصب، ويجوز أن تكون في موضع رفع بدلا من (عاقبة)، ويجوز أن تكون في موضع نصب على خبر (كان) ويجوز أن تنصب (عاقبة) على خبر (كان) وتكون (أن) في موضع رفع على أنها اسم (كان)، ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ تبيينا للعاقبة، والتقدير من أنا دمرناهم" [(٣)] ويختار الاعراب الذى ليس فيه حذف أو اضمار، مثل قوله: "وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر وشيبة ونافع (الله ربكم) بالرفع [(٤)]. قال أبو حاتم: بمعنى (هو الله ربكم). قال أبو جعفر: واولى مما قال أنه مبتدأ وخبر بغير اضمار ولا حذف. [(٥)]

---

(١) النمل ٥١.

(٢) معانى القرآن للفراء ٢/٢٩٦.

(٣) انظر ٣/٢١٥، ٢١٦.

(٤) انظر ٣/٤٣٦.

(٥) كتاب السبعة لابن مجاهد ٥٤٩.

إستئناسه فى بعض أحكامه برسم المصحف :

وقد يستأنس النحاس في أحكامه برسم المصحف، مثل قوله عند قوله تعالى :"واذا كالوهم" والصواب أن الهاء والميم فى موضع نصب، لانه فى السواد بغير ألف...."(١)

ويقول :"وفى حرف عبد الله فيما روى (ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوثا ويعوقا ونسرا)(٢) قال أبو جعفر :"هذا عند الخليل وسيبويه لحن، وهو أيضا مخالف للسواد الأعظم"(٣).

تأسيس أحكامه وفق للقواعد النحوية :

فى كثير من الاحيان نجد النحاس يؤسس حكمه على الكثير من الأسس السابقة ومن أمثلة ذلك رده توجيها للفراء اعتماد على المعروف فى النحو، وعلى المعنى وعلى السياق، حيث يقول :"نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا"(٤) : قال الفراء(٥) : هو على التقديم والتأخير، والمعنى عنده : جعلنا الإنسان سميعا بصيرا لنبتليه، أى لنخبتره. وقال فى هذا : وهو خطأ من غير جهة فمنها أنه لا يكون مع الفاء تقديم ولا تأخير، لأنها تدل على الثانى بعد الأول، ومنها أن

---

(١) انظر ٥/١٧٤، ١٧٥.

(٢) آية ٢٣ من نوح.

(٣) انظر ٥/٤١.

(٤) آية ٢ من هل أتى.

(٥) معانى القرآن ٣/٢١٥.

الانسان إنما يبتلى، أي يختبر ويؤمر وينهى ءاذا كان سوى العقل، كان سميعا بصيرا ولم يكن كذلك ومنها أن سياق الكلام يدل على غير ما قال، وليس فى الكلام لام كى ..." [١].

ومثله اختياره عدم صحة مجئ "ان" بمعنى "اذ" اعتماد على إجتماع النحويين وعلى المعنى، حيث يقول :"وقد زعم أهل اللغة أن المعنى (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله [٢]) وزعم أنه مثله قوله (وزروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين [٣] وأنه مثله "إنا إن شاء الله بكم لاحقون" وهذا قول لايفوج عليه لا يعرف أحد من النحويين "ان" بمعنى "إذ" وانما تلك "أن" فغلط وبينهما فصل فى اللغة والأحكام عند الفقهاء والنحويين" [٤].

ومن هذا القبيل اختياره عدم صحة مجئ "إلا" بمعنى الواو عند قوله تعالى :"وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ [٥] اعتمادا على كلام العرب، وعلى المعنى حيث يقول :"ولا يجوز أن يكون "الا" بمعنى الواو، ولا يعرف ذلك فى كلام العرب، ولا يصح فى المعنى لأن الخطأ لا يحظر" [٦] ومثله رد رأي الفراء استنادا إلى القاعدة النحوية

---

(١) انظر ٥/٩٥، ٩٦.

(٢) آية ٢٧ من الفتح.

(٣) آية ٢٧٨ البقرة.

(٤) إنظر ٤: ٢٠٤.

(٥) آية ٩٢ من النساء.

(٦) انظر ١: ٤٨٠.

المعروفة، وعلي المعنى والسياق وعلى رسم المصحف، حيث يقول: "...وأجاز الفراء[1] في الوصل (يا حسرتاه على كذا)، و(يا حسرتاه على كذا، وذكر هذا القول في الآية وشبهه بالنداء... واثبات الهاء في الوصل خطأ عند جميع النحويين غيره، وليس هذا موضع ندبه، ولا في. السواد هاء، ولا قرأ به أحد"..

ومن هذا القبيل إنكاره الجزم بـ "ما" النافية اعتمادا على الاصل النحوي في العوامل، وعلى المعنى، حيث يقول :"وزعم قوم أن الياء حذفت من "تغن" في السواد، لأن "ما"، جعلت بمنزلة "لم" قال أبو جعفر : هذا خطأ قبيح، لأن "ما" ليست من حروف الجزم، وهي تقع على الأسماء والأفعال، فمحال أن تجزم، ومعناهما أيضا مختلف، لأن (لم) تجعل المستقبل ماضيا و"ما" تنفي الحال.[2]

ومثله اعتماده على تفسير السلف وسياق الكلام والقاعدة النحوية في اختياره في قوله : (رب إني نذرت لك ما في بطني محررا)[3] منصوب على الحال، وقيل : هو نعت لمفعول محذوف، أي نذرت لك ما في بطني غلاما محررا، أي يخدم الكنيسة قال أبو جعفر: القول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب ..."[4]

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٣٧٥.

(٢) انظر ٤/٢٨٦.

(٣) آية ٢٥ من آل عمران.

(٤) ٣/ ٢٨٩.

ومثله اعتماده على السماع والقياس فى ترجيح الوقوف على المنقوص بالياء، يقول : "قال الخليل وسيبويه رحمهما الله فى "قاض" و"جاز" : يوقف عليهما بغير ياء وعلتهما فى ذلك أن يعرف أنه فى الوصل كذلك. وكان القياس أن يوقف عليهما بالياء لأن التنوين يزول فى الوقف، وحكى يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقف بالياء فيقول : (جاءنى قاضي، وجازي) [(١)].

كما كان يثرى مناقشاته بإيراد حجج المذاهب وعللهم وشواهدهم ومصطلحاتهم فإن عنايته بالمذاهب النحوية وآرائها المختلفة أدت إلى تفهمه لحجج المذاهب وعللهم، وهو لا يكتفى بإيراد حجج الرأي الذى يختاره، بل يورد حجج الآراء الأخرى ويشرحها ويوضحها وإن كان قد يردها أو بعضها. ومن أمثلة ذلك شرحه وتوضيحه فى نصب اسم "لا" النافية للجنس، حيث يقول :"(لا ريب فيه "نصب" ريب "لأن" لا عند البصريين مضارعة لـ "ان" فنصبوا بها، وأن "لا" لا تعمل الا فى نكرة، لأنها جواب نكره فيها معنى "من" بنيت مع النكرة فصيرا شيا واحدا، وقال الكسائى : سبيل النكرة أن يتقدمها أخبارها، فتقول : قام رجل، فلما تأخر الخبر فى التبرئة نصبوا، ولم ينونوا لأنه نصب ناقص، وقال الفراء سبيل "لا" أن تأتي بمعنى "غير"، تقول: مررت بلا واحد، ولا اثنين. فلما جئت بها بغير معنى "غير و"ليس"، نصبت بها، ولم تنون لئلا يتوهم أنك قمت الصفة مقام

---

(١) ٣/٥٠.

الموصوف. انما نصبت لأن المعنى (لا أجد ريبا)، فلما حذفت الناصب حذفت التنوين."[١]

ومن هذا القبيل قوله فى قوله تعالى :".. ولا هم يحزنون الذين آمنوا.."[٢] وفيه (أى فى "الذين") قول رابع، قال الكسائى : يكون النعت تابعا للمضمر فى الفعل. قال الفراء [٣] هذا خطأ، لأن المضمر لا ينعت بالمظهر. قال أبو جعفر: أما قوله : المضمر لا ينعت بالمظهر فصواب، ولكن يجوز أن يكون الكسائى أراد أن هذا الذي يكون نعتا تابع للمضمر، كما يقول البصريون "بدل" ولأن الكوفيين لا يأتون بهذه، اللفظة أعنى البدل.[٤]

وقد اكثر النحاس فى كتابه هذا من عرض الآراء الخلافية فى مسائل النحو المختلفة ولم ينهج فى ذلك منهجا معينا، بل اختلفت اساليبه فى عرضها والاختيار منها.

فانه من مواطن من كتابه يورد المسألة الخلافية بحيث يذكر آراء العلماء المختلفة فيها بما يشبه الإستقصاء، ويوضح ما يختاره منها وقد مر بنا أمثلة من هذا القبيل فيما مضى. ومنه عرضه الخلاف فى علة النصب بـ "ما" الحجازية، حيث يقول: "(ما هذا بشرا)[٥]: شبهت

---

(١) إعراب القرآن ١٧٨/١-١٧٩.

(٢) آية ٦٢ من يونس.

(٣) معانى القرآن ٤٧١/١.

(٤) انظر ٢٦٠/٢، ٢٦١.

(٥) آيه ٣٢ يوسف.

(ما) بـ (ليس) عند الخليل وسيبويه [١] اذا كان الكلام مرتبا قال سيبويه[٢]: ورب حرف هكذا، أي يشبهه بغيره في بعض المواضع .. ثم قال الكوفيون لما حذفت الباء نصبت. وشرح هذا على ما قاله أحمد بن يحيى انك اذا قلب (مازيد بمنطلق) فموضع الباء موضع نصب[٣]. وهكذا سائر حروف الخفض. قال : فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها. قال : وهذا قول الفراء[٤]، وما تعمل (ما) شيئا. فألزمهم البصريون أن يقولوا (زيد القمر) لأن المعنى كالقمر. فرد هذا أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل في حروف الخفض من الكاف، لأن الكاف تكون اسما. قال أبو جعفر : لا يصح الا قول البصريين. وهذا القول (أي قول الكوفيين) يتناقض لأن الفراء أجاز نصا (ما ينطلق زيد) ومنع نصا النصب. ولا نعلم بين النحويين اختلافا أنه جائز (ما فيك براغب زئد) و(ما اليك بقاصد عمر) ثم يحذفون الباء ويرفعون[٥] ...".

والنحاس في مواطن من كتابه يورد الخلاف النحوى في المسألة، ولا يصرح برأيه اختيار أو ردا، وكأنه يختار صحة كل هذه الآراء، ولا يري داعيا لرفض بعضها.

ومن أمثلة ذلك قوله : "الحمد لله" : رفع بالابتداء على قول البصريين، وقال الكسائي: "الحمد" رفع بالضميرالذى في الصفة، والصفة

---

(١) إعراب القرآن ٣٢٧/٢.
(٢) الكتاب ١٢٨/١.
(٣) اعراب القران ٣٢٧/٢.
(٤) أنظر معانى القرآن للفراء ٤٢/٢.
(٥) اعراب القرآن ٣٢٨/٢.

اللام، جعل بمنزلة الفعل. وقال الفراء: "الحمد" رفع بالمحل، وهو اللام، جعل اللام بمنزلة الاسم، لانها لا تقوم بنفسها. والكسائى يسمى حروف الخفض صفات، والفراء يسميها محال، والبصريون يسمونها ظروفا" (١).

ومن هذا القبيل قوله :"قال ابو اسحاق: ويجوز (وأن سعيه سوف يرى) (٢)، قال : هذا عند الكوفيين لا يجوز، منعوا : ان زيد ضربت، واعتلوا فى ذلك بأنه خطأ لأنه لا يعمل فى "زيد" عاملان، و هما "ان" و"ضربت". وأجاز ذلك الخليل وسيبويه وأصحابهما ومحمد بن يزيد. قال أبو جعفر : وسمعت على بن سليمان يقول : سألت محمد بن يزيد فقلت له : أنت لا تجيز "زيد ضربت" ، وتخالف فيه سيبويه، فكيف أجزت "ان زيدا ضربت" و"ان" تدخل على المبتدأ؟ فقال: هذا مخالف لذاك، لأن "ان" لما دخلت اضطررت الى اضمار الهاء، لأن في الكلام عاملين" (٣).

والنحاس عندما يختار رأيا في المسألة الخلافية فإنه فى كثير من الأحيان يرد الرأى المعارض وقد مر بنا نماذج من ذلك فيما مضي، ولاسيما فى أمثلتنا على أساليب الاختيار والرد عند النحاس.

ومن أمثلة ذلك أنه عرض الخلاف فى حذف الواو من مضارع مثل "ودع"، و"وثق" وبين الكوفيين والبصريين، وعرض حججهم وعللهم، صرح برد رأي الكوفيين وارتضائه رأي البصريين" (٤)

---

(١) الانصاف مسألة ٥ وأنظر اعراب القرآن ١٦٩/١.

(٣) آيه ٤٠ النجم.

(٣) ٢٧٧/٤.

(٤) ٤٦٣/٤، ٦/٣، ٢٧٨/٣، ٢٧٩/٣.

ومثله عرضه الخلاف في شرح الادغام في نحو "يدخر" و"يدكر" واختياره مذهب سيبويه [١] ومثله عرضه الخلاف في "أشياء" واختيار رأي الخليل وسيبويه، ورد ما عداه. [٢]

وقد يجيز النحاس أكثر من رأي من الآراء الخلافية التي يذكرها. ومن أمثلة ذلك إجازته رأي سيبويه والأخفش في "ما" في "بئسما" و"نعما". [٣]

ومن هذا القبيل أن شرح الخلاف في نصب المضارع في جواب الطلب بعد الواو والفاء ثم في التطبيق تارة يحمل النص على رأي البصريين، وتارة على رأي الكوفيين، يقول في قوله تعالى : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق) : (وتكتموا) عطف على (تشتروا) وإن شئت كان جوابا للنهي في موضع نصب على اضمار (أن) عند البصريين، والتقدير (لا يكن منكم أن تشتروا وتكتموا). والكوفيون يقولون : هو منصوب على الصرف. وشرحه أنه صرف عن لاداة التي عملت فيما قبله، ولم يستأنف فيرفع فلم يبق إلا النصب، فشبهت الواو والفاء بكي فنصبت بها ..." [٤]

وفي قوله تعالى "ونكفر عنكم" يقول :"فأما النصب" وتكفر فضعيف، وهو على إضمار (أن) وجاز على بعد لأن الجزاء إنما يجب به الشيء لوجوب غيره فضارع الاستفهام". [٥]

---

(١) ١/ ٣٨٠، /٢٨٦.

(٢) ٢/ ٤٢-٤٣.

(٣) ٢/ ٢٤٧.

(٤) ١/ ٢١٩.

(٥) ١/ ٣٣٩.

وفى قوله تعالى "ويذهب غيظ قلوبهم" يقول :"ويجوز النصب على اضمار (أن) وهو محمول على المعنى. والكوفيون يقولون : على الصرف...."[١].

ويقول :"ويغفر لكم" عطف، ويجوز رفعه بقطعه من الأول، ونصبه على الصرف"[٢] ومثله إجازته رأي الخليل وسيبويه، ورأي الفراء فى علة رفع المضارع.[٣]

ومن هذا القبيل أنه قد يعرض الآراء فى مسألة خلاف، فيستحسن رأيا دون رد ما عداه ومن أمثلته قوله :"(من الله) : فتحت النون لالتقاء الساكنين. هذه اللغة الفصيحة وللنحويين فيها أقوال. قال الكسائى : أصل "من" :"منا"، وحذفوا الألف وأبقوا الفتحة وقيل : كرهوا الجمع بين كسرتين فحركوها فى أكثر المواضع بالفتح.

قال ابو جعفر : وأحسن ما قيل فى هذا قول سيبويه، قال : لما كثر استعمالهم لها، ولم يكن فعلا، وكان الفتح أخف عليهم فتحوا وشبهوها بـ "أين"، و"كيف".[٤]

وعلى الرغم من أن علماء النحو العربى قد اختلفوا فيما بينهم منذ القدم، فاختلف البصريون فيما بينهم، وكذلك الكوفيون، كما اختلف البصريون والكوفيون فى أصول النحو وفروعه، وألف فى

---

(١) ٢/٢٠٥.

(٢) ٤/٤٧.

(٣) ينظر ١/١٧٣، ٢/٢٧٠، ٤/١٧٤، ٤/٣٥٠، ٣/٨٣.

(٤) ٢/٢٠٢.

ذلك مؤلفات منذ القرن الثالث، الا أنه لم يصل إلينا من هذه التأليفات إلا تأليفات المتأخرين مثل أبى البركات الأنبارى (ت ٥٧٧هـ)، وأبى البقاء العكبرى (ت ٦١٦هـ)، وكان الاعتماد فى الغالب على أمثال هذه الكتب فى درس الخلاف النحوى والمدارس النحوية. وللنحاس كتاب "المقنع" فى اختلاف البصريين والكوفيين، ولم يصلنا. ولكن كتابه "إعراب القرآن" قد احتوى على مادة غزيرة فى هذا الباب، وهو من أقدم المصادر وأوثقها فى هذا الباب، فما ينقله من الآراء له القيمة الكبيرة من حيث قرب زمان النحاس ممن ينقل عنهم، ومن حيث أنه ينقل جل هذه الآراء بأسانيدها مشافهة أو رواية، أو من مؤلفات أصحابها.

ويظهر أن ما ذكره النحاس قد يختلف عما أثبته الأنبارى والعكبرى والمتأخرون وما اشتهر لدى الدارسين. ومن أمثلة ذلك أن الأنبارى قد ذكر أن الضمير عند الكوفيين فى "إياك" ونحوه الكاف ونحوها، وعند بعضهم "إياك" هو الضمير، وأن الضمير فيه عند البصريين هو أيا "، والكاف ونحوها لا محل لها من اعراب[١] أما النحاس فيختلف نقله فى هذه التفاصيل، إذ ينقل أن الضمير عند الكوفيين "إياك" بكماله، وعند الخليل وسيبويه الأسم من"إياك" هو "ايا" والكاف فى موضع خفض.[٢]

---

(١) الانصاف ٢/٦٩٥.

(٢) ١/١٧٣.

وقد ذكر الانبارى أن المستثنى منصوب عند الكوفيين، والمبرد، والزجاج بـ "إلا" وحكى عن الكسائى أنه منصوب لانه مشبه بالمفعول، وأنه منصوب عند البصريين بالفعل أو معنى الفعل بتوسط "الا"... [١].

وذكر النحاس خلاف ذلك، حيث يقول :"(إلا ما يتلى عليكم): فى موضع نصب بالاستثناء، وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول، وعند أبى العباس بمعنى "استثنيت" قال أبو اسحاق : لا يجوز إلا ما قال سيبويه والذى قال أبو العباس لا يصح[٢].

ويقول :"إلا خمسين" منصوب على الاستثناء من الموجب، وهو عند سيبويه بمنزلة المفعول، لأنه مستثنى منه، كالمفعول. وعند الفراء بـ (ان) لأنها (ان) دخلت عليها (لا) فالنصب عنده بـ (ان) والرفع بـ (لا) إذا رفعت. فأما أبو العباس محمد بن يزيد فهو عنده مفعول محض، كأنك قلت عنده : استثنيت زيدا.

قال أبو جعفر : ورأيت أبا اسحاق يذهب إلى أن قول أبى العباس هذا خطأ، ولا يجوز عنده فيه الا ما قال سيبويه..."[٣]

من هذا القبيل أن المشهور عند المتأخرين أن الكوفيين أجازوا بناء الظرف المضاف الى الجملة الاسمية أو الفعلية التى فعلها معرب. [٤]

---

(١) الانصاف ١/ ٢٦١.

(٢) ٢/ ٤.

(٣) ٣/ ٢٥٠.

(٤) انظر. شرح الجمل لابن عصفور ١/ ١٠٦، ٢/ ٣٢٨ والتصريح ٢/ ٤٢.

ولكن النحاس نقل أن الذى أجازه مطلقا هو الفراء وذهب الكسائى الى جوازه فى ضرورة الشعر فقط.

وبعد :

فهذه دراسة موجزة عن فكر أبى جعفر النحاس انتقيتها من كتابه (إعراب القرآن وقد اتضح لى من خلال دراسة هذا الكتاب أنه صاحب فكر متميز فى منهجه فهو باحث منهجي لا يترك كتابا دون أن يوضح للقارئ خطته.

ولقد نشأ النحاس فى بيئة نحوية مليئة بالنشاط والحيوية والمناقشات والمنافسات وكان عصر اندماج المذاهب والآراء والاجتهاد، فقد تتلمذ على أبرز النحويين الذين أخذوا من المبرد وثعلب وأمثالهم من أئمة المذهب البصرى والكوفى وتأثروا بالمدرستين تأثرا اختلفوا فى مداه فالكل يناقش والكل يحتج والكل يرد ويختار ويجتهد وأخذ النحاس عنهم وتأثر بهذه البيئة العلمية الثرية وكان لذلك - إلى جانب العوامل الشخصية- أثر في عناية النحاس بآراء المدارس النحوية وعلماء النحو جميعا مناقشة واختيارا وردا فى كتبه الأخرى وفى كتابه هذا وقد اعتنى أبو جعفر بإيراد الخلافات النحوية حيث لا تكاد تخلو إعراباته ومناقشاته من إيراد الآراء المختلفة لعلماء المذاهب النحوية ومصطلحاتهم، فقد انتشرت في كتابه هذه العبارات قال الكسائى قال سيبويه قال أبو العباس، قال الفراء، أجاز الجرمى قال الأخفش، ذهب الكوفيون، ذهب البصريون مما يجعل هذا السفر العظيم من أعظم المراجع التى جمعت آراء السابقين.

ولقد اهتم أبو جعفر - فى كتابه هذا - بالخلاف النحوى مما نتج عنه أنه يتردد فى اختيار بعض المسائل فأحيانا يختار رأيا لمذهب، وحينا يختار الرأي المقابل للمذهب الآخر وذلك لاطلاعة على هذه الآراء وقد يورد الخلاف النحوي فى المسألة ولا يصرح برأيه اختيارا أوردا وكأنه يختار كل هذه الآراء، ولا يرى داعيا لرفض بعضها وقد ضربنا أمثلة لهذا.

والملاحظ - أيضا - أن أبا جعفر كثيرا ما كان ينتصر لسيبويه فى آرائه ويدافع عنها كما كان يرد على الرأى المخالف بما قاله سيبويه هذا، وقد عارض الكوفيين فى بعض آرائهم ووصف رأيهم بالقبح ففى قوله تعالى :"يمحق الله الربا" يقول :"الأصل في الربا الواو قال سيبويه: تثنيته ربوان، قال الكوفيون تكتبه بالياء وتثنيته الياء. وقال أبو جعفر سمعت أبا اسحاق يقول : ما رأيت خطأ أقبح من هذا ولا أشنع لا يكفيهم الخطأ فى الخط حتى يخطئون فى التثنية"[1].

واهتمامه بلغات بعض القبائل العربية لا يقل عن اهتمامه بالخلافات النحوية فقد احتوى هذا الكتاب لغات بعض العرب. كلغة الحجازيين والتميميين، ولغة أزد شنوءة وغيرها من اللغات الأخرى.[2]

ويعتبر هذا الكتاب مصدرا من مصادر البحث أو جلها فهو مصدر من مصادر الكسائى والفراء وقطرب والمبرد وابن كيسان

---

(١) انظر ٣٤١/١.

(٢) انظر ١٨٧/١، ١٨٨.

وغيرهم من العلماء الذى ضاعت كتب جماعة منهم أوضاع منها ما يتصل بهذا الموضوع على أقل تقدير. كما أن الكتاب قد ضمن بالإضافة إلى ذلك مادة لغوية ضخمة لا يستهان بها بالإضافة إلى الشواهد الشعرية وأقوال العرب وأمثالهم التى امتلأ الكتاب بها .

هذا الكتاب وأهمية ارتباطه بهذا العلم الشهير وما ضمن من آراء واختيارات وترجمه فى مجالات شتي ومتنوعة مما يدل على قيمته وأهميته فلم يعد الكتاب كغيره مجرد نقولات جمعها من هناك وهناك. لاحظ لمؤلفها إلا الجمع والترتيب وانما جاء هذا الكتاب معبرا عن شخصية مؤلفه بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى يستطيع المرء الوقوف على شخصية أبى جعفر النحاس بل ومذهبه من خلال هذه الآراء المتناثرة عبر هذا الكتاب وكما هى سنه الله فى خلقه انه لاتمام ولاكمال إلا له سبحانه وتعالى فإن عمل ابن آدم لابد أن يشوبه شيئ من القصور والنقصان ولو بلغ من درجات الجودة والاحسان أعلاها أبى الله التمام إلا لكتابه وكتاب إعراب القرآن كغيره من الكتب والمؤلفات لابد له من هفوات وعثرات ولكنها لا تخل بقيمة الكتاب إذا كانت ميزاته وايجابياته أكثر من ذلك فان الحسنات يذهبن السيئات وهى لا تتجاوز العد وكما قيل :

كفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه ....

ولعل من أبرز هذه العيوب والمأخذ انه كثيرا ما ينقل أسماء أصحاب الآراء فيقول : وهذا لبعض النحويين- وقرئ أو ويقرأ أو

وقيل وذهب بعض أهل النحو ومما يلاحظ عليه أنه قلما ينسب شعرا إلى أصحابه بل يطلقه أطلاقا فيقول :

وأنشد سيبويه أو وأنشد الشاعر - أو كما قيل - ولعل ذلك عائد لشهرة الأبيات المستشهد بها فإن جلها يمكن معرفته لدارس اللغة وعموما فجهود أبي جعفر النحاس واضحة في كتابه هذا فجزاه الله عن الاسلام والعربية خيرا.

أ.د. أحمد محمد السعيد نافع

أستاذ اللغويات المساعد بكلية اللغة العربية

بإيتاي البارود

المصادر:

- إئتلاف النصرة - عبد اللطيف الزبيدى، تحقيق طارق الجنابى، مكتبة النهضة العربية الطبعة الأولى- ١٤٠٧-١٩٨٧م.
- ابن الطراوة النحوى - عياد بن عيد الشيشى، مطبوعات نادى الطائف الأدبى الطبعة الأولى ١٤٠٣/١٩٨٣م.
- الابهاج فى شرح المنهاج- على بن عبد الكافية السبكى وولده تاج الدين عبد الوهاب بعناية جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- أبو الحسين بن الطراوة وأثره فى النحو - محمد البناء، دار الاعتصام، القاهرة الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- أبو حيان النحوى - خديجة الحديثى، مكتبة النهضة بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٥، ١٩٦٦م.
- اتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربع عشر - أحمد البنا - شعبان اسماعيل- مكتبة الكليات الأزهرية - الطبعة الأولى ١٠٧ اهـ-١٩٨٧م.
- الإتقان في علوم القرآن- جلال الدين السيوطى، تقديم وتعليق مصطفى ديب البقا، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الاحاطة فى أخبار غرناطة - لسان الدين الخطيب، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- الاحكام فى أصول الاحكام - أبو سعيد محمد على بن حزم الاندلسى، دار الاعتصام.

- الاحكام فى أصول الاحكام - على بن محمد الامد- تحقيق سيد الجميلى، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- أخبار النحويين البصريين - أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى، تحقيق محمد ابراهيم البنا، دار الاعتصام، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- أدب الكاتب - عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق محمد الدانى، مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- الأدوات المفيدة للتنبية فى كلام العرب - فتح الله صالح المصرى- دار الوفاء، مصر الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٠م،
- ارتضاف الضرب - أبو حيان محمد يوسف الاندلسى- تحقيق مصطفى النحاس الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- الارشاد الى علم الاعراب - محمد بن أحمد العرشى تحقيق عبد الله البركتى، محسن العميرى، مطبوعات جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- الازهية فى علم الحروف- على بن محمد الهروى- تحقيق عبد المعين الملوحى- مطبوعات مجمع اللغة العربى بدمشق ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- الاستغناء فى الاستثناء - شهاب الدين أحمد القرافى، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- أسرار العربية - أبو بركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى- تحقيق محمد بهجت البيطار- مطبعة الترقى بدمشق ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.
- الانصاف فى مسائل الخلاف لأبى البركات الانباريط الحلبى.
- معانى القران للفراء ط الحلبى.

"من آثار العامية في العربية وأبنائها"

بقلم

د/ أبو السعود أحمد الفخراني
الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية
(قسم النحو والصرف وفقه اللغة)
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
فرع الجنوب

" بسم الله الرحمن الرحيم "

مقدمة

لقد شرف الله تعالى- جل وعلا - العربية وعظمها ، ورفع خطرها وكرمها ، وأوحى بها إلى خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم، وجعلها لسان أمينه على وحيه ، وحفظها بحفظ كتابه حين قال عز اسمه "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" . وكلما بدأت معارفها تتنكر ، أو كادت معالمها تتستر ، رد الله تعالى لها الكرة. وفى هذه الآونة تزداد الشكوى من تفشى الضعف فى تلك اللغة الجميلة، داخل دور التعليم وخارجها ، وعلى ألسنة كثير من المثقفين والمتخصصين فى شتي العلوم ، وبعض المتخصصين فى اللغة ذاتها.

من هنا يأتى هذا البحث، غيرة من صاحبه على تلك اللغة الشريفة، وإيمانا منه بقوتها ومقدرتها وصلاحيتها فى كل وقت، وإسهاما فى إظهار الداء ووصف الدواء ، عل الله عز وجل ينفع به.

وإنى لأعلم أن لهذا الضعف أسبابا متداخلة؛ ولكن المقام لايتسع لها كلها ، لذا آثرت أن أتناول سببا مهما ألا وهو العامية، ولن أتناول كل جوانبها واثارها فى الفصحى؛ وإنما حاولت قدر الجهد والطاقة - بعد الإشارة بإيجاز إلى بعض مظاهر الضعف وأسبابه -

أن أظهر جملة من آثارها في الفصحى من خلال الاستعمال المفرط لها والطاغى على لغة الضاد ، وذلك على ألسنة المدرسين فى قاعات الدرس وبخاصة فى الجامعة، وعلى ألسنة كثير من أفراد الأسرة والمجتمع ، وعبر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية ، ولذا جعلت عنوان هذا البحث المتواضع "من آثار العامية فى العربية وأبنائها" ، راجيا من الله عز وجل أن يغفر لصاحبه زلل الفكر وخطأ القلم ، وهو حسبى ونعم الوكيل.

من مظاهر الضعف اللغوى فى الجامعة وخارجها:

ترتبط اللغة بالفكر ارتباطا وثيقا ، والعلاقة بينهما علاقة متبادلة من حيث التأثير والتأثر ، فكل منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، ولانستطيع أن نتكلم بما لانقدر أن نفكر فيه، ولا نستطيع أن نفكر بعيدا عن قدرتنا اللغوية.

هذا هو المشهور عند كثير من علماء اللغة فى القديم والحديث . وهناك اتجاهات أخرى تذهب إلى أكثر من ذلك فى الربط بين اللغة والفكر [١].

وعلى أية حال فإن الإنسان المتصف بالقوة اللغوية هو الذى يستطيع التعبير عن فكره بطلاقة توافق النظام اللغوى الفصيح ، والإنسان المتصف بالضعف اللغوى هو الذى لايستطيع التعبير عن فكره بطلاقة ، ولاتسمع منه - إن تلفظ - إلا عبارات ركيكة يمجها صاحب الذوق السليم.

وإذا نظرنا إلى حال الناطقين بلغة الضاد في كثير من ديار العرب فإننا نرى " قصورهم عن الحديث بلغة فصيحة مبرأة من اللحن، وعجزهم عن أن يتعلموا قواعدها ويحكموا أساليبها" [٢].

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا : البحث اللغوى عند إخوان الصفاء ص ٢١ ومابعدها . الطبعة الأولى ١٤١١هـ /١٩٩١م مطبعة الأمانة.

(٢) انظر : د. محمد عبد الرحمن المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها فى الجامعات العربية ص ٢٢١ فى =

إن كثيرا من أبناء العربية يحسون بأنهم لايملكون أداة التعبير السليم الطلق عن أفكارهم وآرائهم ولا يجيدون النطق الصحيح، يستوى فى ذلك العامة وكثير من المتخرجين فى المدرسة أو الجامعة ، وقد يصل هذا الأمر إلي بعض الخاصة[١].

فالمشاهد أن الطالب الضعيف لايقرأ كما ينبغى له أن يقرأ، ولا يكتب كما ينبغى له أن يكتب ، بل لايسمع كما ينبغى له أن يسمع، " فقد يستمع إلى محاضرة فلا يتمكن من استصغاء الموضوع الذى تدور عليه فى تلخيص بارع دال، أو تجده منكبا على نسخ مايسمع حسب"[٢].

وهذا يدل على فقره فى الحصيلة اللغوية ، علاوة علي عدم تمكنه من التعبير عن الفكرة البسيطة بأسلوب سليم.

إن المتتبع لغة كثير من الطلاب فى بعض ديار العرب ، المصغى إلى قراآتهم ، الناظر إلى كتاباتهم وعباراتهم فى دفاتر إجاباتهم

= مجلة كلية اللغة العربية بالرياض (العددان ١٣ ، ١٤) ١٤٠٣هـ/ ١٤٠٤هـ.

(١) انظر ذلك بالتفصيل : د. عائشة عبد الرحمن : لغتنا والحياة ص٢٠٣ ومابعدها معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩م.

(٢) انظر : د. نهاد الموسى : مقدمة فى علم تعليم اللغة العربية ، ط. دار العلوم ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤.

ومعروضاتهم وغيرها ، ليقف على شيوع كثير من الأخطاء اللغوية لديهم على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والإملائية ، وهو مايؤكد ضعف الملكة اللغوية لديهم :

فعلى المستوى الصوتى : نراهم لايخرجون بعض الأصوات من مخارجها فتسمع القاف كافا ، والصاد سينا ، والطاء تاء ، والذال زايا .. إلخ ، فضلا عن أنهم لايحسنون أداءها علي مستوى التركيب والأداء ، فيقصرون فى النبر ونظامه ، والتنغيم وقوالبه ، وسرعة الكلام وبطئه ... إلخ.

وعلى المستوى الصرفى : نراهم يخطئون فى الأبنية الصرفية على مستوى الضبط أو الصياغة ، حيث يعدلون بها عن وجهها الصحيح.

وعلى المستوى النحوى : لانكاد نجد أثرا للإعراب في كلمات اللغة.

وعلى المستوى الدلالى: نجد كثيرا من الألفاظ لاتستخدم فى غير المشهور من معانيها.

وعلى مستوى الرسم : نجد الخطب أكثر ، إذ المعروف أن أحكام الرسم مبني معظمها علي معرفة بالنظم الصوتية والصرفية والنحوية.

هذا قليل من كثير ، ولايتسع المقام لسرد المزيد، ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق [١].

وإذا امتد بصرنا إلى هؤلاء الضعاف بعد توليهم أمور الأمة لاتجد - مثلا - إلا مذيعا لايجيد النطق القويم ، أو كاتبا لايجيد التعبير المستقيم، أو مدرسا تخرج من فمه ألفاظ العربية شاكية باكية... إلخ.

إن ديار العرب تختلف فى انتشار هذه المظاهر ، فقد نراها كثيرة فى مكان وقليلة فى آخر، ومما يدل على عموم البلوى أن أكثر المستمعين قد ألفوا هذه الأخطاء، وتعودت آذانهم - وأعينهم أيضا - عليها ، فلا تكاد ترى منهم إحساسا بها ، ولا إنكارا لها ، ولا لوما عليها.

فما الأسباب التى أوصلت أبناء الأمة فى كثير من الديار إلى هذا الضعف اللغوى ؟؟

---

(١) انظر مزيدا من الأخطاء عند : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص٣٢٦-٣٣٩ الطبعة الثالثة ١٩٦٨ بيروت . د. نهاد الموسى : اللغة العربية وأبناؤها : أبحاث فى قضية الخطأ وضعف الطلبة فى اللغة العربية ص١٢٢ وما بعدها . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م الرياض.

من أسباب الضعف اللغوى :

للضعف اللغوى فى المحيط الجامعى أسباب مختلفة ، مباشرة وغير مباشرة : فقد يعود بعضها إلى نظام تعليم اللغة العربية وغيرها فى الجامعة أو فيما قبلها مثل (الأهداف، والمقررات ، وطرائق التدريس ، والكتب ، والمعلمين ، والأنشطة ... إلخ).

وقد يعود بعضها إلى مايؤثر فى الفرد مثل (الأسرة والمجتمع ، ووسائل الإعلام بأنواعها ، والخطباء والمحاضرين ... إلخ).

وسوف أتناول "العامية" بصفة كونها سببا قويا فى ضعف الملكة اللغوية حين يعمل على ترسيخها فى أذهان المتعلمين - على حساب الفصحى - نفر غير قليل فى محيط التعليم من المعلمين وغيرهم ، وفى خارجه من الأسرة والمجتمع ووسائل الإعلام إلى غير ذلك.

وليس بغريب أن يرجع أحد العلماء الضعف اللغوى إلى قضيتنا هذه إذ يقول : " يرجع أكثر الخطأ فى اللغة فى العصر الحديث إلى ضعف الملكة اللغوية الموروث عن عصر الانحطاط الماضى الذى سادت فيه العجمة وغلبت العامية ، فقد فشت الأمية فى ذلك العصر حتى كان الذين يحسنون مطلق القراءة والكتابة قليلين ، ومن كان يعرف الكتابة منهم كان يكتب العامية بالأحرف العربية ، والنادر من يجيد الفصحى إجادة معرفة وملكة حتى من العلماء أنفسهم إلا فريقا قليلا ممن عنى باللغة عناية خاصة ، وغلب على هؤلاء نقل

النصوص اللغوية من المعاجم ، دون تحكيم السليقة العربية والملكة اللغوية ومحاولة التجديد والتوليد وفقا لقواعد اللغة، وطرائق نموها ، وخصائصها فى الاشتقاق والتعريب والتخصيص والتعميم والمجاز ، فكانت الحياة تسير فى جانب واللغة عند هؤلاء منعزلة فى جانب آخر، فملئ هذا الفراغ اللغوى بالعامية .."[١].

وسوف أفصل القول فى الآثار التى يتركها الاستعمال الطاغى للعامية على النحو الآتى :

- أثر استعمال العامية فى التدريس الجامعى .
- أثر المجتمع والأسرة فى الازدواج اللغوى بين الفصحى والعامية.
- أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية فى اللغة العربية.

وفيما يلى تفصيل هذه الآثار وسبل علاج ما يؤدى منها إلى ضعف الملكة اللغوية :

---

(١) انظر : محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية ص ٣٢٧.

أولا : استعمال العامية فى التدريس :

الآثار :

تؤكد جل الدراسات أن استعمال العامية فى التدريس من أهم أسباب الضعف اللغوى[١] ؛ ويرجع هذا إلى أن العامية ضعيفة فى مادتها ، فقيرة فى ألفاظها ، مقفرة فى اشتقاقاتها ، وأن من دأبها التهاون فى التعبير وهذا يؤدى إلى تهاون فى التفكير ، وهذا التهاون تنشأ عنه عادات لغوية رديئة، وينبنى عليه الكسل العقلى.

ولا يرى كثير من المعلمين خطورة فى استعمال العامية والتدريس بها ؛ ولذا يعتمدون عليها سواء أكان ذلك فى المرحلة الجامعية أم فيما قبلها ، فنراهم - فى كثير من البيئات العربية -

---

(١) انظر : المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها (مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العددان ١٣ ، ١٤ ص ٢٢٢ ، ٢٢٥).

د . سليمان بن الرحمن الحقيل : أهداف وطرق تدريس قواعد النحو العربي فى مراحل التعليم العام ص٤١ الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

محمد صالح سمك : فن التدريس للتربية اللغوية ص٧٥ وما بعدها الطبعة الأولى ١٩٧٩م ، د. محمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية ص١٤ وما بعدها ط الكويت.

د. محمد عبد القادر أحمد : طرق تعليم اللغة العربية ص ٢٢٩ ومابعدها . الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

لايستخدمون الفصحى فى قاعات الدرس - جهلا أو ازدراء - ولا يحاسبون تلاميذهم عليها ، بل إن بعض من يقومون بتدريس الفصحى ينطبق عليهم هذا القول.

ثم إن مايتعلمه الطالب من مدرسى اللغة الجادين الملتزمين بالفصحى يهدمه مدرسو المواد الأخرى الذين يستخدمون العامية ويحلونها محل الفصحى دون أدنى غيرة عليها .

إن هذا الاستخدام العامى فى التدريس جريمة تربوية يؤدى إلى اثار مضرة بالتكوين اللغوى للطالب ومستواه الفكرى، ومن أهم تلك الآثار مايلى :

- القصور فى فهم الطالب وإدراكه وتعبيره ومايترتب عليه من ضعف فى المواد الدراسية: فالطالب لايتمكن من معلوماته فى أى فرع من فروع الدراسة إلا بإتقان التعبير السليم ؛ إذ وضوح الأسلوب يتوقف عليه وضوح الفكرة، والعامية قاصرة عن بلوغ هذه الغاية .

ومن ناحية أخرى فإن الفصحى بما تمتاز به من تنوع طرق التعبير وكثرة المترادفات، ومرونة بالاشتقاق والإعراب، تمكن المتعلم من فهم المعلومات والتعبير عنها بوضوح ، إذ اللغة والفكر مظهران لعملية ذهنية واحدة كما يقول كثير من علماء التربية والنفس.

ومن هنا تأتى فائدة استخدام الفصحي فى التدريس:

- ازدراء الطالب للفصحى :

إن الطالب إذا لم يجد للفصحى واقعا على ألسنة معلميه ، ولا أثرا ملموسا لما يدرسه من قواعدها فإنه يزدريها وتهون فى نفسه. وفى ذلك يقول أحد شيوخ العربية : " للغة المدرسين والمعلمين شأن عظيم فى هذا الميدان ؛ لأن الطلاب الذين يتلقون العلوم فى فروعها المختلفة عن أساتذتهم بلغة عامية يزدرون العربية وتهون فى نفوسهم وترسخ لديهم العامية، ولا تتأثر ألسنتهم بما يعلمون من قواعد العربية وما يحفظون أو يقرأون من نصوصها" (١).

وإنه من الطبيعى أن يترتب علي هوان العربية فى نفوس المتعلمين - وبخاصة المقبلون منهم على الدراسة الجامعية - بعدهم عنها، وانصرافهم عن أقسامها وكلياتها.

- جهل الطالب بمنزلة العربية :

إن استخدام المعلمين للعامية فى التدريس يبعد المتعلم عن الفصحى ويجعله غافلا عن منزلتها بين علوم الإسلام ، وعن أثرها العظيم فى تقوية أواصر القربى بين المسلمين سواء كانوا عربا أو غير عرب.

---

(١) انظر : د. المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها ص ٢٢٢.

إن استخدام العامية - علاوة على ماذكرت - يؤكد مايظنه كثير من المتعلمين أن الفصحى مقصورة على مجرد كونها مادة دراسية يؤدون الامتحان فيها بمستوى أو بآخر ، مع أنها أداة نطقهم وتفكيرهم، ولسان قوميتهم الذى يصلهم بتاريخ أمتهم وتراث آبائهم وأجدادهم ، ويتجاوبون به فكريا مع أبناء وطنهم على امتداد أقطاره. وفى ذلك يقول الشيخ السابق محذرا من هذا الأثر السئ الناجم عن ركون المعلمين إلى ممارسة العامية فى أثناء العمل وفى الفصول وقاعات الدرس ومحادثتهم الطلاب.

" لهذا الصنيع غير الحميد نتائج بعيدة المدي على سائر المتعلمين نحو اللغة العربية والأقسام المختصة بها ، ومن بين هذه النتائج اقتناع الطلاب بأنهم يعلمون اللغة العربية ليكملوا بها طريقهم إلى العمل الذى يضمن لهم العيش فحسب ، وليسوا يعلمونها فى حياتهم الخاصة والعامة لما لها من منزلة بين علوم الاسلام ، ولما لها من منزلة ناشئة عن أنها رابطة وثقى بين العرب من ناحية وبين العرب والمسلمين من ناحية أخرى فاستخفوا بها..."(١).

إن الأمم لاتعتمد على العامية فى التعليم، وهذا يدفعنا إلى ازدرائها لا لقصورها وثراء الفصحى فحسب ، بل لما تمتاز به عربيتنا على سائر اللغات ، وهو ارتباطها بالقرآن الكريم دستور الإسلام والمسلمين.

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

سبل العلاج :

وفى سبيل ترسيخ الفصحي وجعلها لغة التدريس فى الجامعة وفى غيرها ، وعلاج الآثار المترتبة على استخدام العامية ، نقترح ما يلـــــــى:

أولا : ينبغى أن يراعى المسئولون إعداد مدرسى الجامعة الموجودين فيها - على اختلاف تخصصاتهم - إعدادا لغويا بحيث يكون في مقدورهم التعبير السليم عن الأفكار المختلفة، وذلك بإجراء دورات تدريبية لهم تعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، وكذا الأمر بالنسبة للمعيدين والمحاضرين (المدرسين المساعدين) قبل انضمامهم إلى عضوية هيئات التدريس ؛ إذ ليس من العدل فى شئ أن نترك مدرسى المستقبل يعيشون على ذلك القدر اليسير من الدراسات العربية التى تلقوها فى الجامعة أو قبل أن يلتحقوا بها . وفى هذا الصدد أقترح أن يدرس الدارسون فى الدورات التى تقام لهم معلومات فى اللغة العربية تتناول أصواتها على مستوى الإفراد والتركيب والأداء ، كما تتناول نظمها فى التصريف والاشتقاق، كما تتناول نظمها فى الجملة وبنائها ، كما تتناول أدبها الرفيع وبلاغتها الجميلة وأساليبها الراقية، هذا إلى جانب تزويدهم من الثقافة الإسلامية وتعميق فهمهم بالشريعة.

وأقترح أن يكون مجموع الساعات فى الأسبوع ثنتى عشرة ساعة لمدة ثلاثة شهور .

وإنى لعلى يقين أن مناهج أفضل سوف تجد طريقها ذات يوم إلى جامعتنا؛ وكل ما أتمناه أن تبذل الجهود الصادقة للتعجيل والإسراع بهذه العملية، ولاشك فى أن كل من يسهم فى هذا العمل إنما يخدم دينه. ورحم الله أبا منصور الثعالبى (٣٥٠-٤٣٠هـ) حين قال:

" من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية التى نزل بها أفضل الكتب علي أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عني بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هى أداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين وسبب إصلاح المعاش والمعاد ... "(١).

وأقترح أن يكون اجتياز هذه الدورات شرطا أساسيا للدخول فى عضوية هيئات التدريس بالجامعات فى كافة الأقسام وفى جميع الكليات.

---

(١) انظر : أبو منصور الثعالبى : فقه اللغة وسر العربية ص ٢١ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط الحلبى ١٩٧٢م/١٣٩٢هـ.

ولايكون هذا الاقتراح غريبا إذا عرفنا أن بعض الجامعات تجعل اجتياز " برنامج" الإعداد التربوى شرطا أساسيا للدخول فى عضوية هيئات التدريس بها ، وإذا كان الإعداد التربوى مهما فإن مهما خطورة الإعداد اللغوى أشد.

ولايكون الاقتراح غريبا إذا عرفنا أن الإنجليز - مثلا- لايلقون تبعة تعليم لغتهم لأبنائهم على عاتق مدرس اللغة فقط؛ وإنما يجعلون من كل مدرس فى مختلف التخصصات معلما للغة بأن يكون قدوة صالحة فى التعبير السليم والنمط اللغوى الصحيح

ولايكون الاقتراح غريبا إذا عرفنا أيضا أن المجتمع المسلم يؤمن بعمل المدرس الذى يستمر مدى الحياة ويسانده طبقا لذلك ، ويوفر له الفرص والإمكانات باستمرار حتى يستمر فى طلب المزيد من المعرفة ووسائل التفاهم؛ من أجل تحقيق التقدم فى أساليب التعليم. والمسلم مطالب بتحصيل العلم من المهد إلى اللحد.

ثانيا : ينبغى أن يستخدم المعلمون الفصحى فى المحيط الجامعى في قاعات الدرس، والمحاضرات العامة والخاصة، وتعاملهم فيما بينهم ، وأحاديثهم مع الطلاب ، ويشجعوهم على ذلك.

إن ممارسة الفصحي وتحرى سلامة اللفظ ودقة الأسلوب ، والالتزام بذلك من جانب المعلمين ، تعين علي ترسيخها فى أذهان الطلاب وتساعد على الفهم والتعبير الصحيحين، وتحولها إلى مهارة

من المهارات وعادة صحيحة من العادات، وبذلك نكون قد هيأنا مناخا صحيحا جامعيا للطلاب ينقلهم من العامية ويدفعهم إلى ممارسة الفصحى فى أحاديثهم وأنشطتهم داخل القاعات وخارجها ، وإلى إكسابهم طلاقة فى الحديث وصحة فى التعبير بحيث يستطيعون الإفصاح عن أفكارهم فى وضوح ودقة وسلامة لغة . وينبغى أن نهئ المناخ نفسه للطلاب فى مرحلة ماقبل الجامعة ، وفى ذلك يقول أحد شيوخ العربية:

" يتعين علي جميع المدرسين أن يلتزموا اللغة العربية داخل المدرسة فى كل شؤونهم ولاسيما مدرسو اللغة العربية ، وينبغى أن تسن القوانين التى تحظر علي المدرس استعمال لهجته العامية داخل المدرسة وبخاصة أثناء الدروس، ولن يعجز الطلاب عن متابعة مدرسيهم والفهم عنهم كما يدعى بعض الناس، بل إننا نري عكس ذلك وهو أن الطلاب سيصبحون أكثر مقدرة على الفهم ، وسيكتسبون من مدرسيهم عادة طيبة هى أن تنطلق ألسنتهم بالكلام الفصيح المعرب ، وأن تجرى أقلامهم بالأساليب الحرة، وستصبح اللغة العربية عزيزة فى نفوسهم ، حبيبة إليهم"(١).

ثالثا : ينبغى لمعلم العربية أن يتنبه إلى الأهداف العامة والخاصة من تدريس اللغة فى المرحلة الجامعية كى يصل إلى الغاية المنشودة.

---

(١) انظر : د. المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها ص ٢٣٥.

ثانيا: الازدواج اللغوي بين الفصحى والعامية في الأسرة والمجتمع:

طغيان العامية على الفصحى:

تشير الإحصاءات إلى إرتفاع نسبة الأمية في الأمة العربية(١)، ويحاول المسئولون احتواء هذه المشكلة، ولكن الجهد كثير والطحن قليل.

" ومع أن الأمية غالبة على العرب فإن الفصحى ماتزال لديهم اللغة المقدسة؛ لأنها لغة القرآن التى يفهمونها ، وما هم بحاجة إلى العامية حتى يفهموا مايلقى عليهم بالفصحى، فهم يفهمون من القرآن والحديث مايسهل عليهم فهمه، ويفهمون خطب الجمعة وتفسير القرآن وشرح الحديث بالفصحى التى لم تكن مغلقة على العربى الأمى "(٢).

ولاخطورة من العامية مادام الأمر كذلك، ومادمنا نضيق الفجوة بينها وبين الفحصى كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا، سواء بوساطة وسائل الاتصال بالأمة (الإعلام بفروعه، الخطباء والمحاضرين ...الخ). أو بتهيئة مناخ تستعمل فيه الفصحى داخل دور التعليم ، أو بغير ذلك.

---

(١) انظر :د.شبل بدران : النظام التعليمى وحقوق الإنسان فى الوطن العربى ص٩٤-٩٧ من مجلة الوحدة الصادرة عن المجلس القومى للثقافة العربية بالمغرب العدد (٧٢) ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
، محمد صالح سمك: فن التدريس للتربية اللغوية ص٣٨١ ومابعدها.

(٢) انظر: أحمد عبد الغفور عطار: قضايا ومشكلات لغوية ص ٤٨ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ومن ناحية أخرى فإن العامية تصبح شر وبال على الفصحى إذا صارت ندا لها، وقد بانت أمارات ذلم فى كثير من المجتمعات العربية:

- فنرى بعض طوائف المجتمع من المثقفين تعترف بالعامية وتشجعها لغة للآداب والفنون والتأليف والتدوين [١] موقنين - جهلا أو حقدا - أن الفصحى جامدة وجافة.
- ونرى منهم من يشجعها على مستوى الصغار - ناشئة المسلمين من العرب - فيصدرون لهم الصحف بالعامية، ليفسدوا عليهم أذواقهم وملكاتهم [٢] - قد كشفت الدراسات عن وجود مفردات عامية (وكذا أعجمية) فى لغة كثير من قصص الأطفال [٣].
- ونرى منهم من يدرسها ويقعد لها - ويدعو إلى المزيد من تلك الدراسات - فى مجتمعات متعددة رفعة لشأنها وازدراء للفصحى.

---

(١) راجع مقدمة الدكتور حسين نصار فى تحقيق معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية جـ١ ، ص٦ وما بعدها طبعة الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

وانظر: د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك : الفصحى ونظرية الفكر العامى ص١١٢-١١٤ الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(٢) انظر : أحمد عبد الغفور عطار : قضايا ومشكلات لغوية ص ٦٩.

(٣) انظر : د. مصطفى عبد القادر زيادة : ظاهرة تغريب اللغة العربية ص١٠١ من مجلة بيادر العدد (١٠) ، نادى أبها الأدبى.

- ونرى منهم من ينتهج نهجا جديدا في العقد الأخير ، حيث بدأ التنظيم للفكر العامي والثقافة العامية يأخذ طابع المؤسسات ذات التنظيم العالي والاستقلال المالي والإداري وذات الصفة شبه الرسمية"[1] . وقد أوصوا " بكتابة العاميات ، واتباع طريقة موحدة لتدوين النصوص الشعبية، وإعداد المعاجم والأطالس اللغوية"[2].
- ونري منهم من يتظاهر بحب الفصحى ثم يهتم في الوقت نفسه بالعامية ويدافع عنها ويدرسها ويدعو إلي ذلك بصفتها" حفيدة شرعية للفصحى" مع أن العاميات العربية متأثرة بلغات أخرى غير عربية : فالعامية العراقية متأثرة بالفارسية والتركية، والسورية متأثرة بالسريانية ، واللبنانية متأثرة بالفرنسية، والمصرية متأثرة بالتركية والإيطالية[3].
- ونرى وسائل الإعلام تبث وتنشر كثيرا من الإعلانات التى يغلب عليها العامية المدعومة - أحيانا - بالألفاظ الوافدة الغربية علي حساب الألفاظ العربية الرصينة.

---

(١)، (٢) انظر : د. مرزوق : الفصحى ونظرية الفكر العامي ص١٩٣-٢١٥.

(٣) انظر : مقدمة الدكتور حسين نصار في تحقيقه معجم تيمور الكبير جـ١/٦ وقد ذكر من المؤلفين : محمد بن أبى السرور فى "القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب" . وأضيف إلى ماذكره : أنيس فريحة فى " معجم الألفاظ العامية" انظر طبعة لبنان ١٩٧٣م.

- ونرى - علاوة علي ماتقدم - "اعتماد بعض القادة والمسئولين فى العالم العربى على اللهجة العامية عند مخاطبتهم للجماهير، وهذا أمر له أثره الخطير على نفوس الشعوب لما لهؤلاء من مكانة رفيعة فى نفوسهم" [١] وهذا يؤدى إلى ازدراء العربية وانصراف الطلاب وغيرهم عنا.

لقد نسى كل هؤلاء - أو تناسوا- أن الدعوة إلى العامية- فى أصلها- دعوة استعمارية، وتلقفها منهم ذيولهم من الصليبيين وغيرهم من الحاقدين علي لغة القرآن الكريم [٢].

إن أقطاب الدعوة إلى العامية - التى بدأت منذ مائة عام تقريبا - استعماريون حاقدون على العروبة والإسلام ، ليسوا ذوى شأن فى لغاتهم [٣]. وقد صنعوا دعاة نصرانيين وغيرهم من

---

(١) انظر: د. المفدى: أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة وكلياتها فى الجامعات العربية ص ٢٢٨.

(٢) انظر : أحمد عبد الغفور عطار : قضايا ومشكلات لغوية ص ٤١ ومابعدها.

(٣) ومن هؤلاء فى مصر:ولهم سبيتا الألمانى الذى بدأ دعوته(١٨٧٩م)، وكان موظفا بدار الكتب المصرية، وكارلو لندبرج السويدى (وكان أمينا للمكتبة الخديوية بالقاهرة) ، ووليم ديلكوكس الإنجليزى ، وكان مهندس ري ، وسلدن ولمور الإنجليزى وكان يعمل قاضيا.
وفى المغرب : ماسنيون ، وكولان . راجع د. محمود السيد: فى قضايا اللغة التربوية ص ٤٩-٥٠.

المستشرقين[١] والعرب[٢]، حملوا معهم وعنهم تلك الدعوة، ظنا منهم أن كل مايدعو إليه أصحاب الحضارة الغربية الزائفة حق يجب أن يقابل بالاحترام . وغير خاف على ذى لب هدف هؤلاء وهو القضاء على لغة القرآن ومحمد عليه السلام.

الآثار :

إن هذا الاعتناء بالعامية يؤثر تأثيرا مشينا علي الفصحى وعلى الأمة بأسرها :

- ففى تبنى العامية فى الأمة العربية عودة إلى جاهلية مجتمعنا العربى فى الحياة اللغوية " فإذا ما اتخذت العامية لغة الثقافة فى كل قطر عربى فإن ذلك سيؤدى إلى تقطيع أواصر الوطن العربى وتثبيت التجزئة والانفصال بين الأصقاع العربية والتنكر لتراث أمتنا الحضارى"[٣].
- فى تبنيها إضعاف للثقافة وعندئذ " يضعف تحصيل الشباب فى اللغة العربية مما يسهل اجتثاثها ، وإحلال العامية محلها بحجة أنها لم تعد لغة ثقافة حية يعيشها الناس فى واقعهم"[٤].

---

(١) من أمثال : نولدكه.

(٢) ومن هؤلاء فى مصر : سلامة موسى ، وقاسم أمين، وأحمد لطفى السيد ، ولويس عوض ، ومحمد عثمان جلال. وفى لبنان : سعيد عقل وأنيس عقل وأنيس فريحة ، ومارون غصن.

(٣) انظر : د. محمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية ص٤٩.

(٤) انظر : د. مرزوق : الفصحى ونظرية الفكر العامى ص٢٤١.

- في تبينها وانتشارها إضعاف للتلاميذ على مستوي التعبير والفهم ، فما يتعلمه التلميذ من دروس اللغة يهدمه ما يسمعه من عامية فى الجو الاجتماعى المحيط به ، فى الشارع والمنزل .. الخ[١].

إن ازدواج العامية والفصحي يترك أثرا سيئا على لسان الطلاب والمثقفين عموما ، إذ يقع كثير منهم فى مجموعة من الأخطاء اللغوية ويتسمون بالضعف اللغوى ، حيث تتسرب إلى الفصحى فى أغلب الأحيان استعمالات العامية من غير أن يكون صقل للغة المتعلمين غاليا"[٢].

إن إنتشار العامية يؤدى إلى مظهر آخر من مظاهر الضعف اللغوى وهو التخلف فى القراءة فى المرحلة الابتدائية ، مما يترتب عليه التسرب الدراسى وزيادة انتشار الأمية[٣].

---

(١) انظر : محمد صالح سمك : فن التدريس للتربية اللغوية ٧٦٠ ، د. سليمان بن عبد الرحمن الحقيل: أهداف وطرق تدريس قواعد النحو العربى ص٤٠، ومحمد عبد القادر أحمد : طرق تعليم اللغة العربية ص ١٩٨ ، ومحمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية ص١٩.

(٢) انظر : د. محمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية ص١٩، د. نهاد الموسى : اللغة العربية وأبناؤها ص١٣٩.

(٣) انظر : د. محمد عبد القادر أحمد : طرق تعليم اللغة العربية للمبتدئين ص٨٣ الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

- في تبنيها وانتشارها ازدراء الطلاب للعربية وانصرافهم عن دخول أقسامهم وكلياتها [١].
- فى تبنيها وانتشارها تأكيد لما يظنه كثير من أبناء العربية أن اللغة العربية ليست إلا وسيلة للتخاطب ، ومادام الأمر كذلك فإن الكلم بالفصيح أو الملحون سواء ، ومرد هذا الظن إلى العامية التى تدمر الرابطة بين العربية والإسلام [٢].

إننا نؤمن إيمانا عميقا بأن اللغة تقوى بقوة الأمة وتضعف بضعفها ، وأن اللغة الصحيحة تدل على مدى تحضر الأمة ورقيها الإجتماعى ، وأنه لاجدوى من دراسة اللغة داخل القاعات مالم يكن لها واقع ملموس فى المحيط الاجتماعى.

سبل العلاج :

وأضع - فيما يلى - بين يدى القارئ مقترحات تعالج آثار هذه الظاهرة:

أولا : نقرب الفجوة بين العامية والفصحى، ونرتقى بالعامية تدريجيا نحو الفصحى ، وهذا يقع على عاتق الأسرة والمجتمع:

---

(١) انظر : د. المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها فى الجامعات العربية ص٢٢٨.

(٢) انظر : د. سلميان بن عبد الرحمن الحقيل : أهداف وطرق تدريس قواعد النحو العربى ص٤٠.

أما الأسرة فيمكنها الارتقاء بلغة أفرادها من الأطفال وغيرهم بتشجيعهم على حفظ القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيضا بالقراءة المفيدة ، وتكوين المكتبة المنزلية ليفيد منها الكبير والصغير على السواء، ويمكن أن يسهم الإعلام المسموع والمرئى فى حث الأسر - وبخاصة الأسر الأمية - على تنشئة أولادها تنشئة صالحة ، وإذا مانشأ الطفل على محبة الكتاب النافع لازمه هذا الحب طوال حياته فتتسع مداركه وتتهذب لغته.

وأما المجتمع فيمكن للقائمين عليه وذوى المسئوليات المختلفة أن يهيئوه لممارسة العربية الصحيحة والارتقاء بالعامية نحو الفصحى وتضييق الفجوة بينهما ، إذ الحديث السليم والقراءة الخالية من الأخطاء والاستماع الصحيح يشجع على ذلك. وهذا يتطلب أمورا منها :

- العمل بإخلاص علي محو الأمية لما لها من آثار مشينة على الأمة لغويا وإجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، وعلاج هذه المشكلة لن يتأتى إلا إذا عولجت علاجا شاملا متكاملا على مستوى الأمة العربية.
- نشر التعليم بمراحله المختلفة والاعتناء بما يلزم من مدرسين أكفاء ووسائل أخرى .
- تشجيع المكتبات المدرسية فى داخل دور التعليم، والمكتبات المركزية خارج تلك الدور ، وذلك فى الأحياء المختلفة من المدن والقرى والنجوع حتى يشيع جو الفصحى فى أرجاء الأمة .

فالقراءة مطلوبة ابتداء بالقرآن الكريم، ومرورا بأمهات الكتب الدينية والعلمية، وانتهاء بما يميل إليه الشخص من طرائف وقصص وشعر وأدب إلى غير ذلك شريطة أن تكون صياغة كل هذا بلغة فصيحة.

علينا أن نعمل على تنمية وعى أبناء الأمة وترقية أساليب تفكيرهم ، وإزالة أسباب ضعف الإقبال على القراءة، مثل الاستخدام المفرط لوسائل الترفيه الحديثة كالألعاب الجماعية والتلفاز والإذاعة وغيرها ، وعدم الشعور بالمسئولية القائمة على كل فرد يجب عليه الوعى التام بأمته وخدمتها بكل مايملك، وهبوط المعانى النفسية لدى الفرد والاهتمام بالأمور المادية والاعتقاد بأنها السبب الرئيسى فى إصلاح المعاش ... إلى آخر هذه الأسباب.

ولايتحقق ذلك إلا إذا شارك العلماء والمفكرون المصلحون والكتاب فى عملية الإصلاح التام، ويمكن أن تسهم وسائل الإعلام كثيرا فى الوصول إلى هذه الغاية من خلال" البرامج" المكثفة والهادفة التى تنمى الوعى العام، ويمكن أن يستعين فى هذا الشأن بالمتخصصين الذى يمكنهم الإسهام فى تنمية الميل إلى القراءة والاطلاع.

وإذا ارتفع وعى الأمة فسيجد أبناؤها متعة التألق الفكرى فى القراءة ، وهى متعة لاتفوقها إلي متعة حلاوة الإيمان ، وعندئذ تضمحل العامية وتنزوى.

- تبصرة الأمة - فرادى وجماعات - بخطورة الاهتمام بالعامية واستخدامها على حساب الفصحى - بسوء نية أو حسنها - فى الآداب والعلوم والفكر والإعلانات واللافتات والتدوين؛ لأن فى تشجيع العامية نصرا وتمكينا لها ومحاربة لغة القرآن ، ومعاذ الله أن يحارب مسلم حق كتاب الله العزيز ، إن هذا يتطلب الوقوف بقوة فى وجه كل من يحاول اتخاذ العامية لغة للثقافة وغيرها.

يجب أن يعى أبناء العربية أن محاولة رفع مكانة العاميات لتحل محل اللغة الأدبية إنما هو شعار مدرسة ضالة فى أمريكا لم يرض عنها جمهرة اللغة فى العالم[١].

ويجب أن تعى الأمة أيضا أثر العربية العظيم فى تقوية أواصر القربى بين المجتمعات العربية والإسلامية، وأنها ليست مجرد وسيلة للحديث فقط؛ وإنما هى "ضرورة للعرب المسلمين للحفاظ علي دينهم ومعرفة أحكامه ، وضرورة للحفاظ على جنسهم وحمايته أن يذوب

---

(١) انظر : ماريوباى: لغات البشر: أصولها وطبيعتها وتطورها ص١٠٨، ترجمة د. صلاح العربى.
نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٠م ، د. رمضان عبد التواب : بحوث ومقالات فى اللغة ص١٧٤ الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ /١٩٨٢م الخانجى والرفاعى .

فى غـيـره من الأجناس ، وضـرورة لغـيـر المسلمين من العـرب حـتى يحملوا أصلهم ويحفظوا صلاتهم ببنى عـمـهم في النسب وجيـرانهم وشركائهم فى الوطن ، لأن التـفـريط فـيـهـا مع اخـتـلاف الدين يؤديان إلى قصم العرى وقصم الوشائج وتوسيع مابينهم من هوة ، وضرورة للمسلمين من غير العرب لأنها لغة القرآن الكريم ولغة رسول الإسلام العظيم بها وصلت اليـهم تشريعات السمـاء ونقلت إليـهم تفاصيل الأحكام ، فـإن طلبـوها بغـيـر العـربيـة كـان حظهم منهـا نزرا ، وإن طلبـوها بالعـربيـة فـازوا بالحظ العظيم وظفـروا بالثـواب من رب العـالمين. وهى مع ذلك وسـيلتـهم فى اتصـالهم بالعـالم العـربى ، ووسيلة فى اتصاله بهم ، بوساطتها يتبادل الطرفان الحديث والكتابة فى شؤونهم العـامـة والخاصـة ، وعن طريقـهـا يصبح كل طرف مؤثرا متأثرا" [(١)].

- التزام اللغة العربية عند التحدث إلى المواطنين مباشرة أو عن طريق الإعلام وفى جميع المحافل بغض النظر عن المتحدث، "ولا مانع من أن تكتب أحاديثهم التى يريدون الإدلاء بها إذا كان الحديث الشـفـوى لايمكنهم من ذلك ، وليس بعسـيـر على المواطنين أن يفهموا حديثا مكتوبا بأسلوب فصيح قريب من مستواهم ، بدليل أنهم يسمعون الأخبار فيفهمونها مهما اختلفت لهجاتهم العامية" [(٢)].

---

(١) انظر : د. المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها فى الجامعات العربية ص ٢٢٤ وراجع أيضا ص ٢٢٦.

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٢٣٧.

- مواجهة كل الشبهات الموجهة للغة العربية بحزم وعزم، والكشف عن زيغ الاستعمار على أسس علمية متينة، ورد كل الهجمات التى تحاول صرف بنى العربية عنها ، وألا يكون ماضى الأمة عامل إيجاب لها للمضى فى دروب الخلق والإبداع ، ومن بين تلك الشبهات : صعوبة العربية ، وقصرها عن استيعاب علوم العصر، وصعوبة كتابتها .. الخ.

- دراسة اللهجات العربية الحديثة دراسة علمية لا لغرض استبدالها بالفصحى - كما هو حاصل - وإنما لغرضين تفيد منهما الفصحى :
أحدهما على المستوى : حيث يتم الكشف عن المفردات الصحيحة المستخدمة فى تلك العاميات، ثم المحرفة، ثم المتغيرة الدلالة ، ثم الأعجمية ، وبعد الاستقصاء والتتبع نقر الصحيح ونصحح المحرف ونعرب الأعجمى ، ويتعاون فى نشر هذه الألفاظ كل وسائل الاتصال بالجماهير.

ولهذه الفكرة جذور فى تراثنا ، وقد واكبت حياتنا عبر العصور وامتدت إلى العصر الحديث، وقد تمثلت فى كتب لحن العامة والخاصة للتنبيه على الغلط وتصحيحه[1] ، كما تمثلت فى تلك الكتب

(١) للكسائى (١٨٩هـ) كتاب فى لحن العوام، وأيضا للأصمعى ٢١٦هـ، ولابن السكيت ٢٤٤هـ "إصلاح المنطق" ، ولابن قتيبة ٢٧٦هـ "أدب الكاتب" ، وأبى هلال العسكرى ت بعد ٣٩٥هـ " ماتلحن فيه =

المدرسية التي ظهرت قبل ستين عاما والتى حاولت أن تقى التلاميذ الوقوع فى شرك العامية وقد اعتمدت على نظام الجداول[١] . والآخر على المستوى التعليمى : حيث يمكن الاعتماد على تلك الألفاظ الصحيحة المشتركة بين العامية والفصحى فى تعليم التلاميذ والتأليف لهم فى المرحلة الابتدائية وفى غيرها من المراحل؛ كى لايشعروا بالصعوبة في عملية الانتقال من العامية إلى الفصحى، وبذلك ننهض بلغة أبنائنا - تدريجيا- إلى مصاف الفصحي ونغرس فى نفوسهم حبها .

= الخاصة " ولابن الجوزى ٥٩٧هـ "تقويم اللسان" ولأبى على التونسى ٧١٧هـ "لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام" ولابن الإمام ت بعد ٨٢٧هـ " الجمانة فى إزالة الرطانة " ونسب للسيوطى ٩١١هـ "غلطات العوام" ولابن كمال باشا ٩٤٠ "التنبيه على غلط الجاهل " ، ولابن الحنبلى ١٠٢٨هـ " سهم الألحاظ فى وهم الألفاظ" ... الخ.
انظر مزيدا من تلك الكتب : د. حسين نصار : المعجم العربى : نشأته وتطوره جـ١ ، ٩٦-١١٦ دار مصر للطباعة.

(١) انظر : مقدمة الدكتور حسين نصار في تحقيقه معجم تيمور الكبير فى الألفاظ العامية جـ١/٩ وقد ذكر من المؤلفين : حسن على بدراوى فى" تهذيب العامى والمحرف" ط ١٩١٢م، ومحمد على دسوقى فى "تهذيب الألفاظ العامية " ط ١٩١٣م ويمكن أن نضيف إلى ماذكره : الشيخ أحمد رضا فى "قاموس رد العامى إلى الفصيح- انظر الطبعة الثانية ١٤٠١هـ /١٩٨١م.

بيان مابين علوم اللغة العربية والعلوم الدينية من علاقة وثيقة، بها صارت علوم العربية مفتاحا من مفاتيح علوم الشريعة لايستغنى عنه من أراد التعمق فى دراسة القرآن والسنة المطهرة والتفقه فيهما ، لذلك جعل العلم بكلام العرب وأساليبهم وفهم أسرار العربية شرطا من شروط المجتهد [١].

الاعتناء بوسائل الإعلام المختلفة لما لها من دور خطير فى النهوض بالعربية ، وهذا ما سنتحدث عنه فيما يأتى:

---

(١) انظر : د. المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها فى الجامعات العربية ص٢٣٧.

ثالثا: وسائل الإعلام واللغة العربية:

خطورة وسائل الإعلام :

لايخفى على ذى لب الدور الخطير الذى تضطلع به وسائل الإعلام المختلفة فى تثقيف أفراد الأمة وتوعيتهم حين تنشر أو تذيع الفكر النافع. فهى تهدف إلي الاتصال بالناس ونقل المعانى والأفكار اليهم، ولها وظائف محددة وهى - كما يقول أحد الإعلاميين" الإعلام والتفسير والتوجيه والتسويق والإقناع والتنشئة الإجتماعية" (١).

من هنا تكمن خطورة تلك الوسائل ومن ثم تكون عامل بناء ينهض بالعربية حين تغار عليها وتصوغ فكرها المنشور أو المذاع بلغة فصيحة وعندئذ تكون أداة توجيه للعرب والمسلمين ، وفى الوقت نفسه تكون معول هدم يعصف العربية حين تعاديها علاوة على صياغة فكرها بلغة محرفة أو عامية ساقطة، وعندئذ تكون أداة تفريق.

وتشير الدراسات إلى أن " الطباعة هى التى أنشأت روح الفردية وروح القومية فى القرن السادس عشر فى أوربا .... فارتبطت القوميات الأوربية فى مرحلة الطباعة تلك بالقضاء على اللاتينية وازدهرت العامية وتحولت إلى لغات مستقلة" (٢).

---

(١) انظر : د. عبد العزيز شرف : العربية لغة الإعلام ص٧١ . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م الرياض.

(٢) انظر : المرجع السابق ص ٦٠٥.

صورة العربية الآن فى الإعلام :

لقد أسهمت بعض دور الإعلام العربية فى إشاعة ألفاظ فصيحة عديدة، وحلت محل أخرى دخيلة أو عامية فى مجالات مختلفة ، معتمدة تلك الدور فى هذا على ما تمتاز به لغتنا من وسائل الاشتقاق والنحت والنقل .....الخ.

فحل الهاتف - مثلا- محل "التليفون" ، و" الحافلة " محل "الأتوبيس" ، و "البريد" محل "البوسطة" ، والمذياع محل "الراديو" و "الجريدة" أو " الصحيفة" محل " الجورنال" ... الخ[١].

وإذ نسجل لبعض دور الإعلام هذا الدور الذى يصون العربية من هجمة الألفاظ الأعجمية ، ويظهرها فى صورة اللغة القادرة التى يمكن أن تستوعب كل ما يستحدث فى هذه الحياة المعاصرة؛ فإننا نسجل فى الوقت نفسه عكس هذا الدور لهذه الدور ذاتها حين تخلط عملا صالحا وآخر سيئا ، ولدور أخرى لم تحفل بالعربية كما ينبغى لها أن تحفل.

فالواقع يشير إلى أن للعامية نصيبا وافرا فى كثير من وسائل الإعلام المختلفة ، مما يدل على استجابة تلك الوسائل لمحبى العامية الذين يحاولون إعاقة الفصحى بحجة جمودها وتخلفها عن التقدم والحضارة ، والنهوض بالعامية التى تساعد على الابتكار، وقد غفل

---

(١) انظر : المرجع السابق ٨٤-٨٨ نقلا عن محمود تيمور فى معجم الحضارة ص ١٥٠٦.

هؤلاء عن ميزة من مميزات الفصحى ، وهى أنها "لغة إعلامية بنيت على نسق الفن الإعلامى بمفهومه الحديث ، تعرض مواد مبسطة يسهل على الجماهير استيعابها وفهمها، كما أنها تتمشى مع قيم المجتمع وعاداته وتقاليده " (١).

فعلى مستوى الصحف والمجلات :

- نرى لغة الكتابة فيها فى بعض الديار العربية "ركيكة ومزدحمة بالخطأ النحوى والصرفى واللغوى والإملائى ، فما ينشر فى الصحف أقرب إلى العامية" (٢) ، سواء بسبب السرعة وعدم الاعتناء بالتصحيح ، أو ضعف المتخرج ، أو آثار النقل والترجمة أو غير ذلك من الأسباب التى لا مجال لتفصيلها الآن.
- ونرى معظم الصحف - وأيضا المجلات - تخصيص صفحات لنشر الأدب العامى بغية فرضه على الذوق العام وجذب الناس إليه بشكل يدل على " خطأ فى فهم القائمين بهذا النشاط وضعف فى إدراكهم لخطر مايقدمون عليه" (٣).

---

(١) انظر : المرجع السابق ص ٧٧.

(٢) انظر : أحمد عبد الغفور عطار : قضايا ومشكلات لغوية ص٢٧ ، د. مرزوق بن صنيتان الفصحى ونظرية الفكر العامى ص٥٠ ، ١٠٧.
وانظر نموذجا من هذه الأخطاء : إبراهيم درديرى : لغة الأعلام اليوم بين الالتزام والتفريط الطبعة الأولى ١٤٠١هـ /١٩٨١م الرياض.

(٣) انظر : د. مرزوق بن صنيتان : الفصحى ونظرية الفكر العامى ١٤ ، ٨٥ ومابعدها.

- ونرى بعض الصحب - علاوة على ماتقدم - تنشر أحاديث محبى العامية، سواء كانوا شعراء أو غيرهم ، تتهم الفصحى بالضعف وتقلل من قيمتها، وتسخر من المتخصصين فيها ، وتمجد العامية وتعترف بقيمتها الأدبية والعلمية وتقرر "أهميتها" التاريخية والاجتماعية، وتدعو إلى أن تكون اللهجات العامية العربية هى لغة وسائل الإعلام وأهمها المسلسلات المتلفزة(١).

وعلى مستوى الإذاعتين : المسموعة والمرئية:

- نرى كثيرا من المواد المذاعة يعتمد - فى دور عديدة - على العامية، ومن بين تلك المواد الإعلانات التى لايبغى أصحابها إلا الكسب من أية طريق ، هذا فضلا عن إذاعة أحاديث محبى العامية التى تحاول غرسها فى القلوب.

وإن تعجب فعجب قول المسئولين إن الجمهور يريد البث بالعامية، وينفر من البرامج الفصيحة؛ لأن نسبة كبيرة منهم أميون لايعرفون الفصحى ولايفهمونها :

---

(١) انظر : د. مرزوق بن صنيتان : الفصحى ونظرية الفكر العامى ١٤ ، ٨٥ ومابعدها.

(٢) انظر : المرجع السابق ص١٢٨ -١٤٢.

أفيصح أن نجعل النصيب الأوفر من البرامج بالعامية من أجل الأميين؟ ، ثم من قال : إن الفصحى تعنى التقعر والتشدق واختيار الألفاظ الحوشية والأساليب الغريبة! وإن هذا الجمهور الذى يتهمونه هو نفسه الذى يستمع إلى خطبة الجمعة بالفصحى السهلة فيفهمها ويعيها ولاينفر منها ، وهو نفسه الذى يستمع إلى نشرات الأخبار وخطب الساسة وغير ذلك فلا يضيره ذلك ويفهمها مهما اختلفت لهجاته العامية. " إن مايحدث من طغيان العامية فى الأغانى والتمثيليات والبرامج فى الإذاعات العربية لا نظير له فى أية إذاعة أوربية مثلا مع كثرة اللهجات المحلية هناك ، وما ذلك إلا لأن أصحابها آمنوا بالوظيفة العليا للإذاعة وهى التوجيه لا الانقياد "[١].

- وثمة خطر آخر وهو لغة كثير من المذيعين فى الإذاعات العربية، فلا تسمعها إلا ضعيفة، وإن أردت شاهدا على اعوجاج ألسنة كثير من المذيعين والمذيعات والممثلين والممثلات والمشتغلين بالفنون الكلامية والمشتغلات فراقب الأصوات فى كلامهم .
إنك تجد فوضى أدائية متمثلة فى أمرين :
- أولهما : تشويه كثير من الأصوات ، فلا يكاد يتميز بعضها عن بعض، فالقافات - على سبيل المثال - لاتفترق عن

---

(١) انظر : د. رمضان عبد التواب : فصول في فقه العربية ص ٤٢٥ الطبعة الثانية الخانجى بالقاهرة.

الكافـات، وهم بذلك – وهن أيضـا – يجـعلون القلب كلبـا ، والقرد كردا ، والقاضى كاديا ، والقدرة كدرة ، والقاهرة كاهرة ... إلخ.

ولاتظن عربيا أو مسلما يقبل أن تتحول قافات القرآن الكريم تحت سمعه وبصره إلى كافات على هذا النحو المؤسف الأليم.

وقد امتد هذا الوباء إلي أصوات أخرى مثل الطاء التى تبدو كالتاء والصاد التى يجعلونها كالسين ، والراء ذات الرقة المصطنعة التى جعلتهم يرققونها دائما وفى كل سياق.

- والآخر : غياب النمط الصوتى الموحد لبعض أصوات العربية وعناصرها الأدائية : فالضاد – مثلا – لها صور عديدة فى عالمنا العربى ، وكثير منها لايتفق مع النمط القديم ، والحال نفسها تسمعها فى الطاء والجيم والقاف والظاء وتاء التأنيث ..الخ.

وقد رفع بعض الغيورين على لغة القرآن الكريم صوته محذرا من تلك الفوضى الأدائية ولامجيب [١].

---

(١) انظر : د. عبد الله ربيع محمود : من مشكلاتنا الصوتية فى نطق الفصحى وتعليمها ص٢٣٥-٢٨٣ فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد (٨)١٣٩٨هـ /١٩٧٨م.

الآثار :

لهذا الواقع آثار غير حميدة علي العربية ، لعل من أهمها :

- فساد الذوق والشعور وضياع مكانة العربية ومنزلتها ، واعوجاج لسان الأمة وتقطيع أواصل أبنائها وانعزال بعضهم عن بعض.
- ضعف لغة المتعلمين ؛ لأنهم يتأثرون بما يسمعون ، ويقرأون ويقلدون النطق الخاطئ، والأداء السئ ، والكتابة الركيكة ، وتصبح نتيجة ذلك قتلا للغة، وهدرا لألفاظها الصحيحة، وكسبا لعادات لغوية رديئة يصعب تهذيبها بالتعليم، وعزلا بين ما يتعلمه المتعلمون فى قاعات الدرس من دروس العربية وأساليب العرب ومعانيها ، ومن ثم ينصرفون عنها وعن كلياتها وأقسامها ، إذ لايجدون لما يتعلمونه صدى فى واقع الأمة وبخاصة تلك الوسائل الإعلامية، والمعروف أن المتعلم " لايقبل على تعلم اللغة بشكل قوى إلا إذا أحس أن المعرفة التى يتلقاها تفيده فى مواقف حياته، وأن المناشط اللغوية التى يتعلمها سيمارسها في خارج المدرسة" (١).
- تعطيل وظيفة اللغة الفصحى التى من شأنها تحقيق الفهم لأبنائها . فكيف تؤدى اللغة الفصحى وظيفتها فى حالات الاضطراب والتشويه؟ ، وكيف يفرق السامع - مثلا وفى

---

(١) انظر : د. محمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية ٢٦-٢٧ وراجع ص ١٧.

ظروف معينة - بين "سار على" و "ثار على" ، و "دل سعيد" و "ضل سعيد" ، و " قل ياحسن" و " كل يا حسن " و "ظل فلان" و "زل فلان" ... الخ؟

إن العربية ليست وقفا على شعب معين ، فهى لغة القرآن ولسان الإسلام ، ومن حق كل الأمم أن تفهم هذه العربية وتتعلمها وتنطق بها كما أراد الله .

سبل العلاج :

نظرا لخطورة الدور الذى تضطلع به وسائل الإعلام المختلفة فى تحقيق الغاية السالفة الذكر فإننى أقترح ما يلى :-

- تشديد الرقابة على المؤلفات بالعاميات ، فلا يترك الحبل على الغارب للناشرين العوام وبخاصة المؤلفون منهم ، وإلا ستتقطع أوصال الأمة وينعزل أبناؤها بعضهم عن بعض .
- تشديد الرقابة على الكلمات قبل نشرها بغية رد المعوج من لغة الصحافة إلى معين اللغة العربية الصافى ؛ حتى لايطغى الأسلوب العامي والاستعمال الردئ على فصيح الكلام ، وقد تصدى العلماء منذ قرن تقريبا وحتى هذه الآونة لأخطاء الكتاب والمحررين[٢] ، وهو امتداد لحركة التصحيح اللغوى

---

(١) انظر : د. محمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية ٢٦-٢٧ وراجع ص١٧.

(٢) ومن هؤلاء : الشيخ إبراهيم اليازجى فى (لغة الجرائد) ط مصر ، وقد بدأ تصحيحاته عندما استقر فى مصر ١٨٩٤م ، وأسعد خليل =

التى بدأت فى القرن الثانى الهجرى واستمرت عبر القرون كما سبق، ومع تقديرنا لهذه المراقبة بعد نشر الكلمة فإننا ندعو إلى ذلك قبل نشرها حتى ندفع الخطأ ونحمى الأمة من ضرره.

- زيادة الاهتمام بالعربية فى معاهد الإعلام التى تعد الصحفيين والمذيعين.
- عقد دورات تدريبية للكتاب والمحررين يكون الهدف منها- علاوة على تقديم المادة اللغوية المقومة للألسن والعاصمة للقلم من الزلل - تبصرتهم بمكانة العربية ومنزلتها وأهميتها للعرب المسلمين.
- تشديد الرقابة على الموضوعات الصحفية ، فلا يسمح بأي موضوع - أو إعلان - ينشر بالعامية ، أو أى مقال يحط من قدر الفصحى.
- إلغاء الصحف المخصصة لنشر أدب العامية وغرس حبها فى أذهان القراء، وتخليص المجتمع من شوائب الأمية.
- الضبط بالشكل لكل ماينشر ضبطا محكما بغض النظر عن التكلفة.

= داغر فى (تذكرة الكاتب) ط مصر ١٩٢٣ ، ومحمد سليم الجندى فى (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد) ط دمشق ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م ، وصلاح الدين سعدى الزعبلاوى فى(أخطاؤنا فى الصحف والدواوين) ط دمشق ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م ، وأحمد أبو الخضر منسى فى (حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتاب) ط القاهرة ١٩٦٣م ... الخ.

- وضع ضوابط أشد صرامة فى اختيار المذيعين والمذيعات، فلا يقبل منهم- أو منهن - إلا المتمكن فى الفصحى حتى يكون قدوة صالحة.
- عقد دورات تدريبية للمذيعين والمذيعات وغيرهم من العاملين والعاملات فى مجال الكلمة تهدف إلى مثل ما أشرنا إليه فى تدريب الكتاب والصحفيين.
- تشديد الرقابة داخل الإذاعات المسموعة والمرئية، فلا يسمح بتقديم أى موضوع مصاغ بالعامية، أو يحط من قدر الفصحى، كما لايسمح بإجراء حديث أو لقاء بغيرها.
- تشديد الرقابة على الموضوعات المعدة للإذاعة بغية تصحيح الأخطاء قبل أن تصك آذان المستمعين أو المشاهدين بالقوة فتكسبهم عادات لغوية رديئة.
- إلزام الإذاعات العربية باتباع ونشر النمط الصوتى الموحد للأصوات العربية والذى رضى عنه سلفنا الصالح ، ووفقا لما أوصت به المؤتمرات والمجامع اللغوية[١]. إننا دخلنا عصر "القمر الصناعى" ونستطيع أن نستغل الإذاعتين المسموعة

---

(١) أوصى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م بالعناية بأصوات العربية ووجوب تعلمها فى معاهد اللغة وفى المؤسسات التى تعتمد على اللغة مثل الإذاعة، كما أوصت بذلك الندوة العالمية الأولى لتعليم العربية لغير الناطقين بها المنعقدة فى الرياض من السابع عشر إلى الحادى والعشرين من ربيع الثانى ١٣٩٨هـ.

والمرئية أحسن استغلال فى خدمة العربية على مستوى ديار العرب أجمعين .

- على كل وسائل الإعلام المختلفة وبمعناها الواسع أن تعزز مشروع الرصيد اللغوى العربى الموحد الذى أنجزته جامعة الدول العربية بوساطة منظمتها المعروفة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم فى عام (١٩٨٥م) والذى قام على أساس تربوى وهو تحديد حصيلة لغوية وقدر مشترك من الألفاظ اللغوية الفصيحة بين تلاميذ المرحلة الابتدائية وغيرها فى العالم العربى ليفيد منه هؤلاء تعلما وتأليفا ، "فينبغى أن يبرمج الرصيد فى نطاق تقنيات القيام بحملات الحث على القراءة ، وذلك بأن تسهم الإذاعة بحصصها للأطفال من قصص وتمثيليات ، وبأن تسهم التلفزة بقصصها ومسرحها وصورها المتحركة ورسومها وأفلامها ، وذلك أيضا بأن يستعمله المؤلفون ، وأن يصبح معروفا متداولا تتبناه اتحادات الكتاب فى شتى البلدان العربية ، والاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ، واتحاد الناشرين العرب ، واتحاد الموزعين العرب ، واتحاد أصحاب المكتبات العربية" (١).

---

(١) انظر مقالا مفصلا بعنوان " الرصيد اللغوى العربى والتأليف المدرسى بالتعلم الابتدائى" للأستاذ أحمد العايد ، منشورا فى المجلة العربية للتربية ص٨-٢٣ المجلد السادس ، العدد الثانى - سبتمبر ١٩٨٦م. وهى مجلة تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

- على المجتمع اللغوى فى البلاد العربية رفع الصوت والسوط فى وجه كل مقصر أو متهاون ، وإلزام جميع وسائل الإعلام بأن تبث الوعى بين المواطنين العرب وتحملهم على الإحساس بأهمية اللغة العربية دينيا وقوميا وإجتماعيا ، وتبصرهم بأن ضياع اللغة العربية ينتج عنه ضياع أهلها . وإلزامها أيضا بأن تحرص على كل ما من شأنه أن يرفع مكانة اللغة العربية ويظهرها للناس فى المظهر اللائق بها ؛ لأنها لغة دينية قومية، ويتم ذلك بالحرص الشديد على صحة ماتنشره وتبثه لغويا ، وبالامتناع عن نشر كل مايغض من قدر اللغة العربية والقائمين بها سواء كان ذلك مكتوبا أو مذاعا. وإلزامها أيضا بأن "تتجنب اللهجات العامية فى جميع برامجها بما فى ذلك التمثيليات والأفلام والمسرحيات؛ لأن ذلك يضعف أثر اللغة العربية علي الألسنة ويحط من قدرها فى النفوس"(١).

خاتمة :

إذا تحقق كل ماتقدم - وهو ماتصبو النفس إليه - فإننا نكون - بتوفيق الله - قد ساعدنا فى تهيئة مناخ لغوى عربى يدفع الناطق دفعا إلى صحة اللغة وجمالها اجتماعيا وثقافيا، سماعا وقراءة وكتابة، وهذا المناخ من شأنه أن يتيح الفرصة أمام أبنائها - منذ

---

(١) انظر : د. محمد المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها فى الجامعات العربية ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨.

نعومة أظفارهم - لمعايشة اللغة الفصيحة معايشة فعلية عن طريق مداومة القراءة الصحيحة ، والاستماع إلى النصوص والأساليب السليمة الراقية، ومن ثم ينطلق لسانهم - وقت التعبير - بالأسلوب الصحيح دون معاناة ، إذا الملكة أو السليقة الصحيحة تتكون بالمعايشة المستمرة للنطق فى البيئة اللغوية للفرد بسماع تلك اللغة ، وتكرار هذا السماع ، والمران والدربة ، إلى أن تصير صفة راسخة وعادة بدهية، تنطق الصواب تلقائيا ، وتكون عادة من عادات الفرد كالمشى والطعام[1].

وبالمثل فإن الملكة تفسد إذا شاع فى محيط الفرد الأخطاء واللكنة وتغلب اللهجات المحرفة، والثقافة الضحلة.

فلنتمثل فى خاطرنا أن الأسرة كلها تحيط بها لغتنا الجميلة من كل مكان، تأخذ عليها جهاتها الأربع ، فلا تقرأ مايكتب لها إلا فصيحا مضبوطا أدق ضبط، ولا تسمع مايلقى عليها إلا معربا أصح إعراب، ألا يكون ذلك سبيلا إلى تمكين اللغة من قلب الأمة فتنطبع ألسنتها على صحة النطق وتكتسب ملكة الإعراب؟

إننا - كما يقول محمود تيمور رحمه الله - "أسعد حظا من العرب فى القديم فما كانت لديهم مطبعة تخرج الكتب والصحف على اختلافها فى سهولة ويسر، ولامذياع ينقل إلى الآذان ماتلفظه الأفواه

---

(١) راجع : د. محمد عيد : الملكة اللسانية عند ابن خلدون ص ٢٥ ومابعدها ط عالم الكتب . القاهرة ١٩٧٩م.

في دقة ووضوح ، ومع ذلك نجحوا في التمسك بالفصحى بوسائلهم المحدودة الوعرة .. وفشلنا نحن في ذلك ، فلم نحسن استخدام وسائلنا على يسرها وقوة أثرها فلم تفدنا الإفادة المطوبة ، وذلك لأننا لم نلتزم الأسلوب الفصيح والمضبوط فيما نؤلف من كتب ومانصدر من صحف ومانلفظ من قول في المذياع"[١].

إننا نتمنى أن نرى المجتمع العربي كله حكاما ومحكومين متعاونين في فرض الفصحى- لا بقوة السلاح كما تمنى أحد دعاة العامية لها - وإنما "بأسلحة الإعلام المختلفة ، وبتطور وسائل تعليم اللغة ، وبإلزام الكتاب بتقديم أناشيدهم وأغانيهم ومسرحياتهم بالفصحى ، إذ لاريب في أن كثرة تردد النصوص الصحيحة علي السمع وحفظ الكثير منها يكسب اللسان القدرة على التعبير الصحيح ويساعد كثيرا على نشر تلك اللغة التي ننشدها بين جمهور المتعلمين"[٢].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) انظر : محمود تيمور : مشكلات اللغة العربية ص٤٧ مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - مصر .

(٢) انظر : د. أحمد مختار عمر : العربية الصحيحة : دليل الباحث إلى الصواب ص٢٠-٢١ الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

أهم مراجع البحث

١- د. إبراهيم درديرى: لغة الإعلام اليوم بين الالتزام والتفريط. الطبعة الأولى ١٤٠١هـ /١٩٨١م الرياض.

٢- أبو منصور الثعالبى (٣٥٠-٤٣٠هـ) : فقه اللغة وسر العربية. تحقيق : مصطفى السقا وآخرين . طبعة الحلبى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٣- أحمد تيمور : المعجم الكبير فى الألفاظ العربية . تحقيق: د. حسين نصار. طبعة الهيئة العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٤- أحمد رضا : قاموس رد العامى إلى الفصيح ط٢ بيروت ١٤٠١هـ /١٩٨١م.

٥- د. أحمد العايد : الرصيد اللغوى العربى والتأليف المدرسى بالتعليم الابتدائى . المجلة العربية للتربية . المجلد السادس. العدد الثانى . سبتمبر ١٩٨٦م.

٦- أحمد عبد الغفور عطار : قضايا ومشكلات لغوية . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٧- د. أحمد مختار عمر : العربية الصحيحة : دليل الباحث إلى الصواب اللغوى الطبعة الأولى ١٤٠١هـ /١٩٨١م.

٨- أنيس فريحة : معجم الألفاظ العامية . ط لبنان ١٩٧٣م.

٩- د. حسين نصار : المعجم العربى : نشأته وتطوره . دار مصر للطباعة.

١٠- د. رمضان عبد التواب : بحوث ومقالات فى اللغة. الطبعة الأولى. الخانجى والرفاعى ١٤٠٣هـ /١٩٨٢.

فصول فى فقه العربية . الطبعة الثانية . الخانجى .

١١- سليمان بن عبد الرحمن الحقيل: أهداف وطرق تدريس قواعد النحو العربي في مراحل التعليم العام. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٢- د. شبل بدران : النظام التعليمي وحقوق الإنسان في الوطن العربي . مجلة الوحدة الصادرة عن المجلس القومي للثقافة العربية بالمغرب العدد (٧٢) ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٣- د. عائشة عبد الرحمن : لغتنا والحياة . معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٩م.

١٤- د. عبد العزيز شرف : العربية لغة الإعلام . الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م الرياض .

١٥- د. عبد الله ربيع محمود : من مشكلاتنا الصوتية في نطق الفصحي وتعليمها . مجلة كلية اللغة العربية بالرياض. العدد (٨) ١٣٩٨هـ.

١٦- ماريوباي (عالم إيطالي): لغات البشر: أصولها وطبيعتها وتطورها. ترجمة د. صلاح العربي . نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٠م.

١٧- محمد صالح سمك : فن التدريس للتربية اللغوية . الطبعة الأولى . الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

١٨- د. محمد بن عبد الرحمن المفدى : أسباب انصراف الطلاب عن أقسام اللغة العربية وكلياتها في الجامعات العربية . مجلة كلية اللغة العربية بالرياض . العددان (١٣، ١٤) ١٤٠٣هـ/ ١٤٠٤هـ.

١٩- د. محمد عبد القادر أحمد - طرق تعليم اللغة العربية . الطبعة الأولى ١٩٧٩م.
طرق تعليم اللغة العربية للمبتدئين . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٢٠- د. محمد عيد : الملكة اللسانية عند ابن خلدون . ط عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٩م.

٢١- د. محمد المبارك : فقه اللغة وخصائص العربية . الطبعة الثالثة ١٩٦٨م.

٢٢- محمود تيمور : مشكلات اللغة العربية . مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز- مصر .

٢٣- د. محمود السيد : فى قضايا اللغة التربوية . ط الكويت (دون تاريخ).

٢٤- د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك : الفصحى ونظرية الفكر العامى . الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م. الرياض.

٢٥- د. مصطفى عبد القادر زيادة : ظاهرة تغريب اللغة العربية . مجلة يبادر العدد (١٠) نادى أبها الأدبى.

٢٦- د. نهاد الموسى : اللغة العربية وأبناؤها . ط دار العلوم بالرياض ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م.
- مقدمة فى علم تعليم اللغة العربية . ط دار العلوم بالرياض ١٤٠٥هـ /١٩٨٤م.

اتجاهات فنية فى أسلوب الرسالة
بين الخوارزمى وبديع الزمان

إعـــداد

الدكتـور / السيد دياب يوسف دويدار

مدرس الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أدبه ربه فأحسن تأديبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه اجمعين.

وبعد

فقد ازدهر الأدب العربى ازدهارا بينا ابان العصر العباسى نتيجة لارتقاء العقول وسمو الأفكار واختلاط العرب بغيرهم من الأمم والأجناس وامتزاج الثقافات العربية والأجنبية.

ومن ثم فان تراثنا العربى كان غنيا بالكنوز الأدبية الرائعة شعرا ونثرا ولشغفى بدراسة النثر منذ بداية حياتى العلمية جعلت ميدان هذا البحث أسلوب الرسالة عند أديبين كبيرين من أدباء العربية هما أبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ولا غرو فهما أديبان موهوبان فى فن كتابة الرسائل وقد بدت عناية الكاتبين بالأسلوب واضحة فى رسائلهما ولا يخفى أن العناية بالأسلوب فى العمل الأدبى تكسبه رفعة وتضمن له البقاء وتجعله أحرى بالقبول عند القراء والنقاد.

وقد كانت هذه العناية الواضحة البعيدة عن التكلف سببا أساسيا فى اتخاذى الأسلوب مجالا للبحث محاولا توضيح ما أرى فيه من اتجاهات فنية عند الكاتبين كليهما ولم يفتنى أن اتخذ من نصوص الرسائل ما يؤيد ما أذهب إليه ذاكرا ما أراه من وجهات نظر نقدية فى تلك الاتجاهات الفنية في أسلوب تلك الرسائل وكاتبيها.

وقد ارتكز حديثى على نقاط متعددة بينها شديد صلة وعظيم ارتباط فكلها متشابكة أو هى مقدمات لنتائج واحدة وقد جاء البحث كما يلى :

١- نظرة عامة في حياة الكاتبين أبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان وفن الرسالة وقد اتضح من خلالها حياة الكاتبين وثقافتهما وأثارهما الأدبية ولا يخفى الصلة بين هذا كله وبين أسلوب الكاتبين.

٢- أهمية الأسلوب فى العمل الأدبى ولا غرو فالأسلوب مرآة صادقة تعكس شخصية الأديب العقلية والوجدانية والثقافية وتطلعنا على اغوار نفسه واتجاهاته الفنية والحياتية.

٣- نظرات فى الأسلوب عند الكاتبين ومن خلال هذه النظرات المتأنية ظهرت اتجاهات فنية في اسلوب رسائلهما حرية بالمتابعة وجديرة بالوقوف عندها ليراها القارئ من قريب لأنها لب البحث وأساس إنشائه.

٤- خاتمة البحث ونتائجة وهى لا تغنى عن تقليب صفحاته واستكناه ما فيه.

ولعلى أكون قد أسهمت بهذا العمل المتواضع فى خدمة العلم والأدب راجيا أن يقبل القارئ الكريم عذرى ان كان قد بدا له منى تقصير أو خالف وجهة نظرى فميدان الأدب ميدان فسيح يخضع لوجهات النظر المختلفة وفوق كل ذى علم عليم والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير.

دكتور/ السيد دياب يوسف دويدار

نظرة عامة فى حياة الكاتبين وفن الرسالة
أبو بكر الخوارزمى : حياته وثقافته وآثاره الأدبية

حياته :

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمى[١]

ولد فى خوارزم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة[٢] ولكن أصله من "طبرستان" ولهذا كان يلقب نحتا بالطبرخزمى وقد علل هذا اللقب صاحب وفيات الأعيان بأن أم أبى بكر من خوارزم وأن أباه من طبرستان فركب له من الأسمين نسبة"[٣] كما أن بينه وبين الطبرى صاحب التاريخ المشهور صلة فهو ابن اخته وقد أيد أبو بكر نسبه هذا حيث قال فى احدى رسائله :"وتذممت من أن أعارض بلسان خوارزمى وعقل طبرى وخاطر أعجمى من لسانه عربى وعقله قرشى"[٤].

---

(١) اليتيمة ٤/٢٢٣ ش، ت محمد مفيد قميحة ط١ دار الكتب العلمية- بيروت لبنان سنة ١٩٨٣م.

(٢) السابق وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٢/١١٠ ترجمة عبد الحليم النجار.

(٣) انظر "وفيات الأعيان" ٤/٣٥ مطبعة السعادة - الناشر مكتبة النهضة العربية سنة ١٩٤٨م.

(٤) رسائل الخوارزمى ٦٥ تقديم الشيخ نسيب وهبة الخازن منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت سنة ١٩٧٠م.

وينبغى أن يلاحظ هنا أن كاتبنا غير محمد بن احمد الخوارزمى الفلكى الرياضى المعاصر للمأمون كما أنه غير أبى عبد الله محمد بن احمد الخوارزمى صاحب مفاتيح العلوم(١).

وقد أقام أبو بكر الخوارزمى فى اقليم خوارزم وقد فتح العرب المسلمون هذا الأقليم فصار من امهات الاقاليم الاسلامية ذات المكانة المرموقة ويقع هذا الاقليم على حافتى نهر حيجون(٢).

وقد ازدهرت فيه الحياة العلمية والعقلية ازدهارا بينا بعد أن فتحه العرب وطبيعى أن يتأثر بذلك الأدباء ونتاجهم من شعر ونثر.

كما أدى اختلاط الاجناس فى هذا الاقليم من فرس وروم وترك وعرب وغيرهم الى التماذج الفكرى والثقافى بين العلماء والأدباء فارتقى العلم والأدب فى هذا الاقليم الذى نشأ فيه الخوارزمى وكان "من أعظم الأقاليم علما وعلماء ولعل هذا يعزى إلى السلاطين الخوارزميين الذى احتضنوا العلماء والأدباء فازدانت دولتهم بكثير من هؤلاء الذين انتجوا آثارهم بالعربية والفارسية"(٣).

---

(١) انظر تاريخ أداب اللغة لجرجى زيدان ٢٧٤/٢ ت د. شوقى ضيف .

(٢) معجم البلدان ٣٥١/٢ دار صادر بيروت ١٩٧٧م.

(٣) انظر "الأدب العربى فى اقليم خوارزم لهند حسين طه - منشورات وزارة الاعلام بالعراق ١٩٧٦م.

ترك الخوارزمى وطنه متنقلا هنا وهناك وهو قوى المعرفة قويم الأدب على الرغم من حداثة سنه آنذاك أخذا عن العلماء مقتبسا من الأدباء ولقد لقى سيف الدولة وافاد من مجلسه لكن المقام لم يدم له عنده بسبب المكائد التى كانت تحاك ضده فأخذ يجوب الأقطار وينتقل فى الأمصار في الشام والعراق وخراسان وبخارى التى صحب فيها وزير الدولة السامانية ابا على البلعمى ولكن صحبته لم ترقه ففارقه وهجاه بقوله ساخرا ومتهكما:

ان ذا البلعمى والعين غين   وهو عار على الزمان وشين
ان يكن جاهلا يخفى حنين   فهو الخف والزمان حنين(١)

ولكنه رجع عن ذلك معتذرا في احدى رسائله حيث كان يقيم في نيسابور فأرسل إلى البلعمى هذا معتذرا اليه بقول: "كتابى الى الشيخ وقد أمضت الأيام في حكمها وانفذت فى صبرى وتجلدى سهمها والحمد لله - تعالى - على كل شئ الا غيبتى عن الشيخ فانى أخشى أن ازداد منها اذا حمد الله لها، انتهت بى المحنة بعد فراق الشيخ إلى غاية ليس بينها وبين الموت حجاز ولا وراءها للبلاء مجاز..."(٢)

(١) النتيجة ٤/٢٣٤.
(٢) رسائل الخوارزمى: ٤٢.

وقد أقام في نيسابور ردحا من الزمن والتقى فيها بل صحب كثيرين من اعلام الأدب والحكم وكبار الشخصيات حينذاك.

وكان من أبرز الشخصيات التى التقى بها وصحبها الخوارزمى الأمير أبو النصر احمد بن على المكيالى زعيم آل مكيال ذات السيادة فى ايران حيث عرفت بالكرم والأدب والعلم فنال ما نال من كرم هذا الأمير فلهج لسانه بمدح آل مكيال وكان مما قال فيهم شعرا:

هم شحم الدنيا فان نتعدهم
الى غيرهم نحصل على الفرث والدم
سقى الله ذاك الروض جودا لجودهم
وصير آجال العداة اليهم
وأبقى ابا نصر ليربى عليهم
سنينا كما أربى سنينا عليهم

ثم رحل الخوارزمى الى سجستان فمدح وهجا ثم ادخل السجن ثم استغاث بالأمير المكيالى برسائل لا يتسع المقام لذكرها ثم عاد إلى نيسابور حيث عاودته الحظوة عند الصاحب بن عباد باصبهان فطابت عنده اقامته بعد أن مدحه ونال من كرمه وغمره بإنعامه وفضله. (١)

---

(١) انظر اليتيمة ٢٣٧/٤.

وهكذا انتهى المقام بالخوارزمى فى نيسابور وفيها جلس على قمة الأدب وأضحى منارة لطلابه ينهلون من موارده ويسعدون بصحبته واصبح موضع التقدير من كل من عرفوه وهكذا "ارتفع مقداره وطاب عيشه إلى أن رمى في أخر حياته بحجر من الهمذانى الحافظ البديع، وبلى بمساجلته ومناضلته وبعدها حضرته الوفاة وكانت فى شوال سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة"[١] من الهجرة.

وهكذا طويت صفحة ماجدة لامعة من صفحات العلم والأدب لكنها باقية بعطائها وثرائها في آثارها الأدبية على مر الأيام.

ثقافته:

عرف الخوارزمى بسعة ثقافته ومعارفه وامتلاكه لزمام البيان حتى أصبح من الكتاب اللامعين فى القرن الرابع الهجرى وتتلمذ على يديه طلاب الأدب والمعرفة وذلك نتيجة لازمة لما حصله من علم وثقافة وكان شيعى المذهب حصل علوم الفقه والحديث والأدب واللغة بين شيوخه وأفاد منهم في ثقافته ومن هؤلاء الذين تتلمذ على أيديهم أبو على اسماعيل الصغار[٢] وأبو سعيد احمد بن شيب الذى قصده بقوله فى احدى رسائله:

وقدر أن يثلج صدرى ويرزقنى النظر إلى وجه من صنعنى

---

(١) انظر اليتيمة : ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) انظر "بغية الدعاة للسيوطى" ص ٥١ جـ١ مطبعة الخانجى.

وخرجني واصطنعني فتعلمت الرسل من نثره واصبحت شاعرا برواية شعره" (١).

وقد أعان الخوارزمي على الوصول الى هذه المنزلة الرفيعة في عالم الأدب والشهرة في مجال العلم توقد قريحته ونبوغه منذ الصغر وكذلك نشأته في اقليم خوارزم الذي كان مجالا رحبا يتبارى فيه العلماء ويتخرج فيه الأدباء الافذاذ "وهكذا كان الخوارزمي فهو واسع الثقافة عالم بأشعار العرب واقف على سر وخواص التراكيب" (٢).

ولعل مما يدل على سعة ثقافته وبخاصة في مجال الأدب ما ذكره صاحب وفيات الاعيان حيث قال انه "قصد ذات يوم حضرة الصاحب بن عباد وهو "بأرجان" فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب احد الأدباء وهو يستأذن في الدخول، فدخل الحاجب وأعلمه فقال الصاحب قل له : قد الزمت نفسي ألا يدخل على من الادباء الا من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك فقال له أبو بكر : ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال، فقال الصاحب: هذا يكون أبا بكر الخوارزمي فأذن له في الدخول، فدخل عليه وانبسط له" (٣).

(١) رسائل الخوارزمي ٣٣١.

(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لاحمد حسن الزيات ص ١٤٧ جـ١ - مطبعة الاعتماد.

(٣) وفيات الأعيان ٣٣/٤.

آثاره الأدبية :

لم يترك الخوارزمي آثارا أدبية كثيرة لكنها مع قلتها تبوأت مكان الصدارة فيما تركه الأدباء في عصره كما أنها أبقت ذكره وخلدت مكانته في سجل الأدباء النابهين على مر العصور والأيام وقد تمثلت آثاره الأدبية في تلك الرسائل التي نيفت على المائة والعشرين في مختلف الاغراض والفنون كما أن من هذه الآثار ديوانه الشعري الذي طبع في القاهرة سنة ١٩٠٣م[١] والذي قال عنه زكي مبارك :"وقد كان الخوارزمي شاعرا ولكن ديوانه ضاع ولم يبق من شعره إلا القليل"[٢].

ولعل ابا بكر الخوارزمي برزفي النثر ولم يبلغ شأوا في مجال الشعر لأنه عاش في عصر نبغ فيه كثير من الشعراء الموهوبين الذين لم يشق لهم غبار ومنهم الشريف الرضي والمتنبي وابو فراس ومن ثم اتجه الى النثر الذي برع فيه براعة تنطق بها رسائلة التي تناولنا منها بعض الاتجاهات الفنية في أسلوبها من خلال هذا البحث الذي بين أيدينا الآن والذي لزم أن نذكر فيها هذه النبذة عن حياة صاحب تلك الرسائل "على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره وأن شعره ليس بجيد وان لم يكن يردئ"[٣]

ولهذا كانت الدراسات مهتمة به ناثرا ولم تهتم به شاعرا.

رحم الله الخوارزمي وجزاه عما ترك للأدب واللغة وطلاب المعرفة خيرا.

(١) النظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١١١/٢.
(٢) النثر الفني جـ٢ ٣١٦.
(٣) اليتيمة ٢٧٣/٤، ٢٧٤.

بديع الزمان الهمذانى : حياته وثقافته وآثاره الأدبية :

حياته :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد بن بشر الملقب بـ "بديع الزمان"(١)

ولد فى الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ببلدة همذان الفارسية ونسب اليها وكانت همذان مقاما للملوك وأهل الفصل والدين مع أنها ذات طبيعة خاصة تتمثل فى شدة بردها الذى وصفه الشعراء بكثير من الشعر(٢) ولاشك أن للبيئة والنشأة أثرهما فى تكوين الأديب كما سيتضح عند الحديث عن بعض الاتجاهات الفنية فى أسلوب الرسالة موضوع البحث.

بديع الزمان لقب له دلالته :

عرف أبو الفضل ولقب ببديع الزمان وقد أطلق عليه هذا اللقب كبار الأدباء ومن هؤلاء الخوارزمى الذى أرسل إليه رسالة صدرها بقوله :

يا بديع القول حاشا للأبن هجو بديع(٣)

---

(١) معجم الأدباء ٢/١٦١ منشورات دار المأمور - مكتبة عيسى الحلبى.

(٢) معجم الأدباء ٥/٤٠٠ وما بعدها.

(٣) معجم الادباء ٥/١٩٥.

ولعلك تلحظ دلالة هذا اللقب فى قول الثعالبى عنه :"هو احمد بن الحسين بديع الزمان، ومعجزة همذان...كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب"(١).

ويؤكد تلك الدلالة على هذا اللقب الحصرى اذ يقول عنه :"هذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه، وكلامه غض المكاسر انيق الجواهر يكاد الهواء بسرقة لطفا والهوى يعشقه ظرفا ..."(٢)

ولعل أبرز دلالة لهذا اللقب وأعظم سبب فيه هو انشاؤه تلك المقامات على غير مثال سبق فهى صورة لم تكن موجودة من قبل فى ميدان الأدب الفسيح ولا يمنع ذلك من الأسباب الأخرى المبثوثه فى الكتب والتى ذكرت جانبا منها.

نشأ بديع الزمان فى همذان وتولاه والده بالرعاية والتثقيف الى أن غادر همذان وظل بعيدا عنها أحد عشر عاما.

وقد اختلف فى أصله فيرى بعضهم أنه عربى الأصل وهم الكثرة الكاثرة ويرى البعض الآخر انه فارسى الأصل ونحن مع الرأى الأول وحسبنا ذلك من غير افاضة فى هذا المجال إذ أن المقصود هنا الاشارة التى تغنى عن الاسهاب فى بحث مجالة اسلوب الرسالة عند

---

(١) اليتيمة ٢٩٣/٤.

(٢) زهر الآداب ت د. زكى مبارك ٣٠٥ ط٤ دار الجبل سنة ١٩٧٢م.

الكاتبين واتجاهاته الفنية وكان لنشأته فى همذان أثرها فى تكوينه الأدبى والثقافى ولا غرو فقد كانت همذان حينئذ محط العلم والعلماء والأدب والأدباء في القرن الرابع الهجرى مع أن كثيرا من هؤلاء العلماء والأدباء كان يؤثر الهجرة منها الى غيرها ولعل ذلك راجع الى شغف طلاب العلم والأدب بالتنقل بين البلدان قاصيها ودانيها أملا فى المزيد من الشهرة ولقاء الافذاذ فى مجالات العلم والأدب فى اماكن شتى والافادة من فكرهم وثقافاتهم المتنوعة كما أنه ربما يرجع إلى الرغبة فى الاتصال بالامراء والوزراء أملا فى منحهم وعطاياهم فقد كان هؤلاء الحكام يقدرون العلم والأدب ويحرصون على إقامة الندوات الشعرية والأدبية التى يحضرها المشاهير فى كل مجال، ومن البلدان التى سافر اليها البديع وأقام زمنا بها "أصبهان" حيث كان يوجد بها الصاحب بن عباد الذى نهل بديع الزمان من معارفه وتزود من ثقافته وليس الهمذانى بدعا فى ذلك فقد اتسم مجلس الصاحب بن عباد بأنه منتدى الوافدين من العلماء والأدباء جميعهم "وكانت أيامه للعلماء والأدباء والشعراء وحضرته محط رحالهم... واحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وابناء الفضل ما يفوق عدد شعراء الرشيد"[١] وهكذا أفاد البديع من مقامه فى حضرة الصاحب بن عباد حيث التقى بأهل العلم والأدب وأخذ عنهم وتعرف على ثقافاتهم ولم يستقر به المقام طويلا ولكنه رحل الى "جرجان" ثم

(١) اليتيمة ٣/٢٢٥.

إلي نيســـابور تلك المدينة التى كـانت تشـجع الأدب والأدباء[١] وكـانت يومئـذ مـوطنا لأبى بكر الخـوارزمى أعلم أهل عـصـره باللغـة والأدب والذى بدا للبـديع أن يناظره على الرغم من مكانتـه الأدبيـة وحظوته عند أمراء نيسابور وكانت تلك المناظرة علنا "وكانت الغلبة للبديع الهمذانى وغادر نيسابور سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة"[٢].

ثم توجه البديع بعد ألى "سجستان" فأحسن أميرها خلف بن أحمد" معاملته وافاد من صحبته لأنه كان أديبا وقد اكرم الأمير الأديب وفاده البديع وقويت بينهما الصلة التى على أثرها أهدى البديع جانبا من مقاماته فبالغ الأمير فى اكرامه ورفع مكانته بيد أن الحال لم يدم طويلا على ذلك فقد ساءت العلاقة بينهما وأصابها شئ من الفتور ومن ثم آثر البديع مغادرة "سجستان" صونا لنفسه وكرامته إلى بلدة "غزنة" التى اتسم صاحبها السلطان "محمود الغزنوى" بحبه الشديد للأدب والأدباء والعلم والعلماء حتى انه سمع بمجموعة من العلماء يقيمون عند احد أمراء خوارزم فدعاهم للاقامة عنده ومن هؤلاء ابن سينا الفيلسوف وابو النصر العراق الطيب ومن ثم عاش البديع فى كنف هذا السلطان بين كوكبة من العلماء والأدباء راضى النفس سعيد بما وصل اليه من مكانة أدبية وعيشة راضية "وحين بلغ أشده وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه وفارق دنياه سنة ثمـــان

(١) النثر الفنى ٢/ ٣٩٥.

(٢) بديع الزمان د. الشكعة ١٧٥.

وتسعين وثلاثمائة فقامت عليه نوادب الأدب وانثلم حد القلم.. وبكاه الأفاضل مع الفضائل ورثاه الأكارم مع المكارم"[١] وهناك اختلاف في سبب وفاته لسنا بحاجة اليه في مجال تلك الدراسة الموجزة وكانت وفاته في "هراة" التي كانت نهاية مطافه وكان أحد وجهائها وعلمائها فجزاه الله عن اللغة والأدب خير الجزاء وجعل لقاءه لربه خير اللقاء.

ثقافته:

تنوعت روافد ثقافة بديع الزمان ولا غرو فقد عاش في عصر كان أهم ما يميزه تلك الحركة العلمية والأدبية حيث تنوعت فيه الثقافات وكثرت فيه الترجمة وارتقت فيه المعارف وتنوعت بين الفارسية والعربية وغيرهما فكانت كلها روافد كون منها ثقافته وأشبع نهمه العلمي وروى ظمأه العقلي والفكري كما أنه عرف بكثرة ترحاله وتردده على منتديات العلم والأدب وقد ساعده على هذا كله حبه للأدب والعلم وقريحة متوقدة وعقل ذكي لماح ومن ثم تكونت لديه تلك الثروة الأدبية والعلمية والثقافية التي جعلته علما من أعلام الأدب.

ولعل من أهم عوامل اتساع ثقافته وعمق تفكيره واحاطته باللغة تلمذته على نخبة من كبار الأساتذة الذين كانت لهم مكانة

---

(١) اليتيمة ٢٥٩/٤.

عليا فى علوم العربية وفنونها المتنوعة ومن هؤلاء العلماء الذين تلقى عنهم العلم ونهل من ثقافتهم وتأدب بأدبهم "أبو الحسن احمد ابن فارس" الأديب الكبير واللغوى العظيم صاحب "المجمل" فى اللغة وكان بهمذان، وعنه أخذ جميع ما عنده، واستنفد علمه واستنزف بحره"(١).

وهكذا تآزرت كل العوامل والروافد فى تكوين تلك الشخصية الأدبية لبديع الزمان حتى جعلت منه أستاذا له اليد الطولى فى مجال التأديب والتثقيف والريادة الأدبية والعلمية فى عصره.

ولم تنحصر ثقافته فى علوم العربية وآدابها ولكنه كان ذا ثقافة فارسية أدبا ولغة وهكذا كان لتلك الثقافة البديعية أثرها فى أسلوب رسائله وجودة صياغته على النحو الذى سوف نراه عند الحديث عن بعض الاتجاهات الفنية فى أسلوب تلك الرسائل.

آثاره الأدبية :

لاشك أن ما تركه بديع الزمان - على قلته - من آثار أدبية يعد معينا ثرا للغة والأدب وطلاب المعرفة على مر الأعصر والسنين يفيدون منها ويتمرسون بأساليبها وتلك الآثار على قلتها "بوأت الرجل منزلته العليا فى الأدب العربى فكان بعيد الأثر فيه"(٢).

---

(١) اليتيمة ٤/٢٩٤، ومعجم الأدباء ٢/٢٦١.

(٢) بديع الزمان - ما رون عبود ٢٩.

وتنحصر تلك الآثار الأدبية التى تركها بديع الزمان الهمذانى في الرسائل والمقامات وديوان للشعر.

وقد بلغ عدد رسائله مائتين وثلاثا وثلاثين وكلها جديرة بالبحث والدراسة، وأسلوبها هو من موضوع بحثنا الذى نعرض له تلك المقدمات أما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة والف بيت فى أغراض مختلفة وان كان معظمها فى المدح حيث - كما نعلم قبلا - كان كثير الترحال فحينما يستقر به المقام يصاحب الأمراء والسلاطين وهذا يفرض عليه فى كثير من الأحيان أن يلهج لسانه بالمدح والثناء على هؤلاء كما فعل مع السلطان محمود الغزنوى والصاحب بن عباد وبنى مكيال وغيرهم من رؤساء جرجان ونيسابور وهراة[١] وستبقى تلك الآثار مجال الاهتمام والدراسة لدى الأدباء والباحثين كما أنها ستبقى شاهدة للبديع برسوخ قدمة فى هذا المجال الفسيح.

فن الرسالة فى الأدب العربى

لعل من المفيد هنا أن اذكر نبذة عن فن الرسالة في الأدب العربى توطئة للحديث عن الاتجاهات الفنية في أسلوب الرسالة عند الخوارزمى وبديع الزمان.

---

(١) انظر : "الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى"د. خفاجى ط١ ص ٣٨٢.

وخلاصة ما اورده صاحب[١] اللسان في معنى الرسالة أنها مأخوذة الترسل بمعنى التحقق بلا عجلة أو من الارسال بمعنى التوجيه والبعث إلى الأخرين في غرض من الأغراض وهذا هو المعنى اللغوى. أما معناها الأدبى فقد بينه القلقشندى حيث قال :"الرسائل جمع رسالة والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد أو مدح وتقريط أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى، وسميت رسائل من حيث ان الأديب المنشئ لها ربما كتب بها الى غيره مخبرا فيها بصورة الحال" [٢] وقد قيل ان الرسالة :"تصوير لما يعتلج فى النفوس ويخامر الأفئدة ويدور فى فلك الدولة" [٣].

ويرجع الدكتور ابو الخشب تسمية الرسالة بهذا الاسم الى أحد أمرين "الأول - أنها تكون رسولا بين اثنين - أى بمعنى رسالة تنتقل من الأول إلى الثانى عتبه وسخطة ورضاه وغضبه وشوقه وهيامه والثانى : انها مأخوذة من الارسال بمعنى الاطلاق الذى يفيد التحرر من القيود والالتزام بأى شئ وهذا لا يعنى أن يترك للكاتب حبله على غاربه وينطلق مع سجيته وطبعة ويفلت من قبضة النقد ...

---

(١) انظر : اللسان مادة "رسل"

(٢) صبح الأعشى - شرح وتعليق / محمد شمس الدين - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧م.

(٣) نظرات في الأدب المعاصر د. سليمان الاغانى ١٩١ ط١، ١٩٧٣م.

اذ لا يرضى الناس من الأدب أن يكون تأليفا مجردا ..."[١] بل لابد من أن تكون في اطار من الفن المحكوم بأسس النقد التى تعارف عليها العلماء في هذا الميدان الفسيح.

أطوار فن الرسائل ؟

تعد الرسالة من أقدم فنون النثر الكتابى نشأة فقد كانت بدايتها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما بعث رسائله الى قادة بعض الأمم الذين لم يشافهم بدعوته يدعوهم فيها الى الاسلام ويشرح لهم من خلالها تعاليمه "واقتضى ذلك أن يعين نفرا من خاصته يعرفون القراءة والكتابة لأداء هذه المهمة واشتهر من هؤلاء جماعة بكتابة الوحى من أمثال عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب، وزيد بن ثابت وغيرهم"[٢].

وقد اتسمت الرسائل في عهد النبى - صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدين بعد أوائل العصر الأموى ببساطتها وايجازها وعدم التأنق فيها لأنها تهدف إلى بيان غرضها من أقصر طريق وبأوجز عبارة ولا غرو فقد كان يمليها الخلفاء والولاة والقادة من انشائهم على الكتاب وهم أصحاب القدم الراسخة فى البلاغة والايجاز.

---

(١) فى محيط النقد الأدبى د. إبراهيم ابو الخشب ١٧٠، ١٧١- الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م.

(٢) انظر " الكتابة العربية الأدبية والعلمية د. اشرف موسى ١٣٦٢. مطبعة دار التأليف.

ثم جاء طور آخر لكتابة الرسائل وذلك بعد اتساع الفتوحات ورفعة الدولة المسلمة حيث كثرت مهام الخلفاء والولاة وتعريت الدواوين فى البلاد المفتوحة عندئذ عهد خلفاء بنى أمية بكتابة الرسائل الى نخبة من الكتاب العرب في الشام والعراق ومصر وغيرهم ممن يجيدون العربية من أبناء الفرس والروم ومنذ ذلك الحين صارت الكتاب صفة لهؤلاء فتأنفوا فى صوغها وتفننوا في أسلوبها وعملوا على تحصيل أدوات البلاغة فأقبلوا على تعلم الأدب وحفظ القرآن الكريم ورواية الشعر وحفظه وأفادوا من صنوف المعارف والترجمة ومن ثم صارت الكتابة فنا عظيما برع فيه كثير من الكتاب امثال عبد الحميد بن يحيى وابن المقفع والجاحظ الذى كان يميل الى الاطناب مع الصناعة السهلة والعبارة الواضحة. وهكذا كان معظم كتاب القرن الثالث الهجرى.

وفي القرن الرابع قصد الكتاب الى التنميق والسجع حتى زاحمت الرسالة القصيدة وتبوأت مكانة سامقة، ولا عجب اذا علمنا أن هذا القرن من أزهى عصور فن كتابة الرسائل فى تاريخ لغة الضاد فقد شغف به وتعصب له واستقر له كثيرون "فأقبل عليه الكتاب من أمراء ووزراء وكتاب واخذوا ينشئون الرسائل البديعة التى اتخذت طابعا خاصا من العناية والتأنق..."(١).

---

(١) انظر بديع الزمان د. الشكعة ص ٦٥.

أنواع الرسائل :

لا أجد بدا من اغطاء القارئ فكرة سريعة عن أنماط الرسائل ومعالم كل نوع منها حتى تتم له الفائدة وتكون صورة البحث امامه كاملة وفيما يلى عرض موجز لهذه الأنواع.

ولنبدأ بأهمها عند القدماء وهى الرسائل السلطانية أو الرسمية ولأهمية هذا النوع كان "لفظ الكتابة اذا اطلق لا يراد به غير كتابة الانشاء والكاتب اذا اطلق لا يراد به غير كاتبها" (١) والمقصود بكتابة الانشاء أو الرسائل السلطانية كما جاء فى الكتب الأمهات "تأليف الكلام وترتيب المعانى من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الاقطاعات ولهون الأمانات والأيمان وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها" (٢) وقد عنى الاقدمون بهذا اللون من الكتابة عناية فائقة، والقوا فيها كثيرا من الكتب ومنها على سبيل المثال "المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير كما تبرز تلك الأهمية اذا عرفنا أنه اقيم لهذا اللون من الكتابة ما سمى بديوان الانشاء لتصدر عنه تلك الرسائل السلطانية وشرطوا فيمن يتولى رئاسته أن يكون أعلم عصره بفنون الكتابة وأساليبها كما لزمه أن يكون ذا ثقافة واسعة في علوم اللغة والشرع واللغة الأعجمية.

(١) صبح الأعشى ٥٢/١.

(٢) السابق ٥٤.

وترجع أهميـة تلك الرسائل الى ما حوته من احداث تاريخيـة شاملة واسماء للقضاة والقواد والاخبار والمواقف التى ربما قد غفل عن بعضها المؤرخون قديما وحديثا.

أما أسلوبها فكان مزيجا من الفكرة المنطقية والجمال اللفظى مع وضوح لا يحتمل التأويل "غير أنها قد تنال على أيدى بعض الكتاب المثقفين حظا يسيرا من الأناقة لا يطغى على المعلومات المهمة التى هى الاساس الأول لانشائها..."(١) ولاشك أن تلك الرسائل السلطانية المبثوثة فى كتب التراث تعد موردا ثرا لطلاب العلم والأدب يرشفون من أساليبها ويفيدون من طريقة تأليفها ولا غرو فانه "إذا كان الكثير من الوان الكتابة السلطانية قد صار فى ذمة التاريخ اذ قد تغيرت الأحوال السياسية والاجتماعية فان بعض هذه الألوان لا يزال له نظير فى عصرنا الحاضر"(٢).

الرسائل الإخوانية :

وهى تلك الرسائل التى تكون بين الأصدقاء والتى يعبر فيها وبها الكاتب عن عواطفه ويفسح فيها المجال لخياله غير متقيد فيما ينشئه بوزن أو قافيه وتكون متعددة الأغراض ولهذا أوصلها صبح الأعشى الى سبعة عشر نوعا" هى التهانى والتعازى والشفاعات

---

(١) الكتابة العربية د. أشرف موسى : ٢٧.

(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب د. أحمد بدوى ٥٧٧.

والتشوق والاستزارة واختطاب المودة وخطبة النساء والاستعطاف والاعتذار والشكوى واستماحة الحوائج والشكر والعتاب والسؤال عن حال المريض والأخبار والمداعبة وبعض هذه الأنواع يندرج تحته اضرب كثيرة..."[١] ولعل الرسائل الاخوانية أقرب النثر الى الشعر الغنائى من حيث الاغراض والبواعث والمضامن وان اختلف فى الشكل ومن ثم قال بعض المحدثين من النقاد.

"ان الرسائل الاخوانية شعر غنائى منثور يجد فيها كاتبها متنفسا حرا عن عواطفه لا يقيده فيها وزن ولا قافية"[٢].

وأسلوبها أدبى خالص حيث يمزج فيها الكاتب بين عناصر التجربة المختلفة فيريك تعانقا بين العاطفة والخيال والبديع فى أسلوب رسالته وما ذلك إلا لأن الكاتب يجمع لها فكره ويطرح فيها صناعته ويبرز من خلالها ثقافته فترى فيها أعذب الألفاظ والطف المعانى فى لغة أدبية منتقاة.

الرسائل الأدبية :

وهذا اللون من الرسائل يختلف عن الرسائل السلطانية والاخوانية اختلافا بينا حيث انه فى حقيقته مقالة أدبية وليس بينه وبين الرسائل من صلة الا تلك المقدمة التى تبدأ بمخاطبة القارئ ثم

---

(١) انظر صبح الأعشى ٩/٥- ٢٢٨.

(٢) أسس النقد الأدبى د. احمد بدونى ص ٥٨٠.

يعرض الكاتب موضوعة الذى يكون من بين الموضوعات الاجتماعية أو الفردية وتكون تلك الرسائل مبنية على اثارة العواطف ومخاطبة المشاعر ومن هذا اللون رسالة "الحاسد والمحسود" للجاحظ والتى يقول فيها "وهب الله لك السلامة، وأدام لك الكرامة، ورزقك الاستقامة، ودفع عنك الندامة كتبت الى - اكرمك الله- تسألنى عن الحسد ما هو؟ ومن أين هو، وما دلائله وأفعاله، وكيف تفرقت اموره وأحواله..." [١] والمتتبع لهذه الرسالة وغيرها من الرسائل الأدبية تبدو له عناية كتابها بالصناعة التى تهدف إلى اثارة العاطفة وتعميق الفكرة لدى القارئين ومن ثم يمكن القول ويتأكد "أن هذه الرسائل الأدبية ذات قيمة كبرى بين الفنون النثرية الأخرى وهو أدب هادف بلا ريب يرمى إلى غاية للأدب خلقية أو اجتماعية أو دينية أو غيرها" [٢].

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ ص ٢.

(٢) أسس النقد الأدبى د. احمد بدوى ص ٥٨١.

أهمية الأسلوب فى العمل الأدبى :

لاشك أن العناية بالأسلوب فى النص الأدبى تكسبه رفعة وتضمن له البقاء ومن ثم كان تجويد الأسلوب هدفا من أهداف الأديب المجيد فى شعره ونثره على أن يكون ذلك من غير تكلف (لأن التكلف اذا ظهر فى الكلام هجنه وقبح موقعه) [١].

وترجع أهمية الأسلوب في النص الأدبى شعره ونثره الى أن ذلك الأسلوب هو المنوال الذى تنسج فيه التراكيب أو القالب الذى تفرغ فيه المعانى أو بعبارة أخرى هو طريقة (اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصدا للايضاح والتأثير) [٢].

ولهذا كان الأسلوب مرآة صادقة تعكس شخصية الأديب العقلية والوجدانية والثقافية وتطلعنا على أغوار نفسه واتجاهاته فى الحياة.

واذا تتبعنا رسائل الكاتبين الخوارزمى والبديع ونظرنا فى أسلوبيهما فى تلك الرسائل التى يسر الله لنا قراءتها وجدنا ذلك الأسلوب موضع الرعاية والاهتمام حيث حرص كل من الأديبين على تجويد أسلوبه باختيار ألفاظه وتعبيراته فجاءت لغتهما قوية الأداء

(١) "نقد النثر" ص ١٠٥ المنسوب لقدامة بن جعفر.

(٢) الأسلوب للدكتور احمد الشايب ص ٤٤ ط٥.

دقيقة فى الدلالة على المقصود مع سلامة المبانى ووضوح المعانى عند الكاتبين كليهما ومن ثم كانا موفقين فى أسلوب كتابتهما ولا عجب فالكاتب "الموفق هو الذى يهتدى الى الكلمة التى تكون شديدة الابانة عما يريد ..." (١).

ولعل العناية بالأسلوب فى العمل الأدبى متمثلة فى تخبر لفظة وسهولته واصابة معناه واستواء تقاسيمه وتعادل أطرافه تجعله أحرى بالقبول وأجدر بالبقاء ولذلك كله تبرز أهمية الأسلوب في العمل الأدبى مما دفع إلى اتخاذ أسلوب الكاتبين وما يبرز فيهما من اتجاهات فنية موضوعا لهذا البحث الأدبى المتخصص فى هذا الميدان الفسيح.

نظرات فى الأسلوب عند الكاتبين :

وضوح اللغة ودقة استعمالها :

لعل من المفيد هنا أن نعرض لنماذج من الرسائل حتى تتضح السمة التى نريد التأكيد عليها وتجلية جوانبها أمام القارئ الذى قد يشاركنى الرأى فيما ذهبت إليه.

يقول الخوارزمى فى مقام التهنئة : (... هنأه الله - تعالى - بما أولاه ويبارك له فيما أعطاه ، وأراه فى أولاه وأخراه، وفيمن والاه وعاداه ما نريد ويهواه وأتاه مما يسمعه ويراه ما يقترحه ويتمناه،

---

(١) أسس النقد الأدبى للدكتور احمد بدوى ص ٤٥٢.

وأرانى فيه ما يرضاه وأرضاه، حتى أرى الدهر وهو عبده ومولاه..."(١).

ويقول أيضا فى مقام المواساة :"(... وما سرنى والشيخ أن المحبة لم تثلم جوانب دلالته، وان طول مدة الذلة والقلة لم تعتصر ماء احتماله وصلابته وان الوحدة والوحشة لم تقدحا فى لسانه وقلبه...) (٢)

وبنظرة متأنية في النصين السابقين من رسائل الخوارزمى وبالوقوف عند بعض الكلمات والعبارات فيهما يتضح لنا أنها أفادت مطلوبها فى دقة ووضوح كما أنها كانت أدل على المعنى من غيرها فى هذا المقام.

ترى ذلك فى النموذج الأول فى (هنأه ، بارك، يقترحه ويتمناه، وأرانى فيه ما يرضاه...) وفى النموذج الثانى (لم تثلم جوانب دلالته ولم تعتصر ماء احتماله وصلابته ...)

ونجد مثل هذا عند البديع في إحدى رسائله التى يرد فيها على كتاب ومنها (يكاد كتابك يروينى إن عطشت، ويغذونى ماعشت، لا أذكر معه شغلا وان أهم، وكأنى اتأمل من سطوره صفحات

(١) رسائل الخوارزمى: ٢٦٢.

(٢) السابق : ٤١.

صدرك...) [١] كما فى قوله في رسالة يمدح فيها ابا جعفر المكيالى:
(فقد ورد من الشيخ بحرا وعقد منه جسرا وما عسر وعد وهو منجزه) [٢].

فالمتأمل فى أسلوب البديع فى هذين النموذجين يلحظ أن تلك الكلمات والجمل قوية فى دلالتها وأكثر وفرة فى أداء معانيها.

ففى النموذج الأول ترى ذلك فى (يروينى، ويغذونى) هذا فضلا عن براعة التصوير وجمال الاستعارة فى هاتين الكلمتين السابقتين.

وفى النموذج الثانى (فقد ورد من الشيخ بحرا، وعقد منه جسرا) ومن هذه الكلمات الدقيقة والعبارات الواضحة الموحية والخيال المحلق كون الكاتبان أسلوبهما فى الرسائل غالبا فكان مظهر البراعة لديهما ولا غروفإن (تكوين الأسلوب أهم المظاهر لبراعة الكتاب...) [٣].

وهكذا جاءت رسائل الخوارزمى والبديع واضحة اللغة خالية من التعقيد الذى يذهب ببهاء الألفاظ ويعيب الأديب ويبعده عن الطريق

---

(١) كشف المعانى والبيان ٤٨٦.

(٢) السابق ١٨٣.

(٣) الأسلوب لأحمد الشايب ٤٨.

الصحيح الذى يجعله من جملة البلغاء وقد بدا أن الخوارزمى أوسع باعا فى هذه السمة.

ومن ثم يظهر لنا تقدير صاحب البيان والتبيين لأولئك الكتاب وأمثالهم حيث يقول : (أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا..) (١).

وإذا تركنا الحديث عن وضوح اللغة ودقتها وانتقلنا الى

الملاءمة بين اللغة وأغراض الرسائل عند الكاتبين:

فإننا فى حاجة إلى إثبات ذلك من نصوص الرسائل عند الخوارزمى والبديع كليهما حتى يكون الحكم الأدبى الخاضع لوجهات النظر النقدية المحكومة بأصول النقد حكما اكثره الصواب فيما نراه.

يقول الخوارزمى فى إحدى رسائله :(.. مثلى - أيد الله الشيخ - لا يحمل على الخدمة بالتقريع والتثريب، ولا بالتهديد والترهيب، ولا تختلف اخلاف مودته بالاذلال ولا يدرك مصون ما عنده بالامتهان...) (٢).

---

(١) البيان والتبيين ١-٧٦.

(٢) رسائل الخوارزمى ص ١٥٥.

ويقول أيضا فى رسالة أخرى : (...كان صدر عنى الى حضرة الشيخ كتابا أنشأه الشوق إليه وكثرة التلهف عليه وكتبته يد الحمد والشكر وأملاه لسان الحديث والذكر ....) [١].

وبنظرة عابرة مع حس أدبى موفق تبدو عناية الخوارزمى بأسلوبه حيث جاءت لغته متلائمة كل التلاؤم مع الغرض الذى أنشأ من أجله رسالته ففى النموذج الأول وفى مقام عدم الرضا بالذل والامتهان جاءت اللغة جزلة خشنة تتفق مع التقريع والتوبيخ والثورة ضد من توجهت إليه تلك الرسالة ومن أمثلة ذلك الكلمات (لا بحمل على الخدمة بالتفريع، ولا بالتهديد والترهيب...).

أما فى النموذج الثانى فقد جاءت ألفاظه أو لغته متلائمة مع غرض رسالته فهى فى الشوق والحب ومن ثم فهى ألفاظ رقيقة ورفيقة ترى ذلك فى قوله (انشأه الشوق اليه، أملاه لسان الحديث والذكر....) [٢].

وهكذا كان أسلوب الخوارزمى مختارا ولغته متلائمة مع أغراض رسائلة فكانت جزلة خشنة فى مقام وكانت رقيقة عذبة فى المقام الآخر وليس المقصود فى لغة الأدب بالجزل ما بدت غرائبه ولا بالرقيـــــق

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٠٢.

(٢) المثل السائر - القسم الأول ١٨٥.

ما ظهرت وضاعته ولكن المقصود هو أن الجزل من الألفاظ ما كان عذبا في الفم عند النطق به لذيذا فى السمع عند وصله إلى الأذن مع متانته وقوته وأن الرقيق من الألفاظ (هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس) [١].

ولم يكن أسلوب البديع بأقل حظا فى هذه السمة الفنية سالفة الذكر من صاحبه وان اختلفا من حيث استخدام الجزل والرقيق فى رسائلهما يوضح هذا الاتجاه الفنى ما جاء فى احدى رسائل البديع حيث يقول ملائما بين اللغة واغراض رسالته التى قيلت فى مقام الشكوى والذم لأحد القضاة حيث بعث بها إلى كبير القضاة يقول : (... وأقسم لو أن اليتيم وقع فى أنيات الأسود بل الحيات السود لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته اذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه) [٢].

ولعل من يقرأ هذا الجزء من تلك الرسالة يدرك من أول وهلة هذا التلاؤم الشديد والتعانق الواضح بين هذه الكلمات والعبارات وبين غرضها أو موضوعها فقد جاءت الكلمات موافقة للشكوى معلنة التوبيخ وقد استطاع الكاتب أن يرى المشكور إليه عيانا ما وصل اليه ظلم أصحابه وهل هناك عبارة أو تصوير يؤدى هذا المعنى مثل

(١) المثل السائر - القسم الأول ١٨٥.

(٢) كشف المعانى ١٧١.

قول البديع : (واقسم لو أن اليتيم وقع فى أنياب الأسود بل الحيات السود لكانت سلامته بينهما أحسن من سلامته اذا وقع بين غيابات هذا القاضى واقاربه)[١]، وهذا دليل على دقة اللغة وحسن ملاءمتها للغرض وبذلك يصل الكاتب الى غرضه ويحقق هدفه ولا غرو فان (هذه القدرة اللغوية مما يحمل الناس على الاعتقاد فيما يقول المتكلم لاستنتاجهم من لهجته أن ما يقوله حق حتى لو كان غير صادق فى الواقع)[٢].

لغة الكاتبين بين الجزالة والرقة :

بعد أن عرضنا للغة ومؤامتها للغرض فى رسائل الكاتبين الخوارزمى والبديع يبقى أمر لابد من التنبية عليه وتحويل نظر القارئ إليه ألا وهو شيوع الكلمات الرقيقة فى أسلوب الخوارزمى فهى أكثر من الألفاظ الجزلة فى رسائله.

ولعل ذلك نتيجة لازمة الى اختلافهما فى الطبع حيث تميز الخوارزمى بهدوء الطبع كما تميز البديع بجدته ولا غرابة فإن للطبائع أثرا لا ينكره النقاد فى تكوين أسلوب الأديب وخضوع الفاظه لطبعة وما فيه من رقة أو خشونة ولهذا (كان القوم يختلفون فـي ذلـك

(١) السابق ١٧١.

(٢) النقد الأدبى الحديث د. محمد غنيمى هلال ١١٨.

وتتباين فيه أحوالهم فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق غيره وانما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق) [١].

إنسياب الكلمات وتناغم موسيقاها :

بعد نظر وتأن وتتبع لأسلوب رسائل الكاتبين والاستقراء ما أمكن تبين لى أن لغتهما فى الرسائل جاءت كلماتها وعباراتها متلاحقة متناغمة متدفقة فى أنسياب عجيب وأعظم منه هذه الموسيقى الناتجة عن تساوى الألفاظ تارة وحسن التقسيم للفقر تارة اخري كل ذلك مع تخير اللفظ وإصابه المعنى.

وفى النموذجين التاليين أصدق دليل على ما ذهبت اليه جاء فى إحدى رسائل الخوارزمى التي يعزى فيها بعض الوزراء (لقد كانت المصيبة بفلان جراحة لا دواء لها إلا الصبر، وخسرانا لا جبر له الا الأجر... ولقد طلق من الدنيا عروسا غدارة مكارة غرارة...طالما قتلت بعلها، وخانت أهلها....) [٢].

وأما البديع فقد بدا فى أسلوبه حسن العناية بتخير اللفظ واستواء التقاسيم وتعادل أطراف العبارات حتى تبدو الرسالة قطعة

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ١٧، ١٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) رسائل الخوارزمى ٦-٢.

موسيقية جميلة الإيقاع ومن أمثلة ذلك ما جاء فى إحدى رسائله التى يمدح فيها بعض أصحابه بعد عشرة وطول اختيار فيقول: "... وحقا أقول لقد عاشرت هذا الفاضل فطابت عشرته، ولانت قشرته وواصلته فأحسنت وصاله... وما نقبت فى الامتحان له عرقا الا جسسته، ولا نظرا الا فترسته) [١].

ثم بدا أن البديع كان (يعنى باشتقاق الألفاظ الموسيقية العذبة الجرس الحلوة على الأذن حتى تبدو الرسالة فى أكثر الأحيان كأنها قطعة موسيقية رقيقة الصدى بارعة النغم) [٢]. وهكذا كان البديع أكثر إبداعا من الخوارزمى فى هذه السمة.

ولا يقلل من قدر الكاتبين أن جاءت لغتهما متكلفة فى النادر القليل والتكلف فى الكلام (صرف جهد الشاعر أو الكاتب عن الوفاء بحق المعنى) [٣] وذلك نتيجة لازمة للعناية بتجويد اللفظ حتى ينصرف اليه ويدور فى فلكه فيصبح المعنى غامضا أو مبهما لدى القارئ.

---

(١) كشف المعانى ٣٨٥.

(٢) بديع الزمان رائد القصة والمقالة الصحفية د. الشكعة ٢٥٩.

(٣) أسس النقد الأدبى ٤٨٩.

تكرير بعض الألفاظ والاستفادة من تكوين أشكالها واشتقاقاتها:

بدت سمة التكرير واضحة لدى الكاتبين لاسيما عند البديع الذى كانت له قدرة بارعة فى التلاعب بالألفاظ وتناظر مسمياتها ولم يكن التكرار عندهما بلا هدف أو اظهارا للبراعة اللغوية وانما كان لفائدة يحددها الغرض من الرسالة.

وبالنظر فى بعض النماذج التى جاء فيها التكرار مع اعمال حاسة النقد يمكننا الوقوف على ما أراده الكاتب وقصد إليه من التكرير الذى عرف بأنه (دلالة اللفظ على المعنى مرددا) [١].

يقول الخرارزمى :(... وأسأل الله - تعالى - أن يرينا سلامة سليمة واستقامة أحوال مستقيمة، فلا شئ أحوج إلى السلامة من السلامة ولا إلى الاستقامة من الاستقامة...) [٢].

وقد جاء فى احدى رسائل البديع قوله :(.. والمرء لا تكرم خصاله حتى يكرم حمله وفصاله، ولا يسعد به جاره حتى يسعد بالطهارة تجاره...) [٣].

---

(١) المثل السائر القسم الثالث : ٣.

(٢) رسائل الخوارزمى ١٨.

(٣) كشف المعانى ١٢٦.

هدف تكرير الألفاظ عند الكاتبين مختلف :

والمتأمل فى هذين القطفين من رسالتى الخوارزمى والبديع يلحظ أن التكرير عند الخوارزمى جاء ليفيد التشويق ويؤكد على تلك المعانى التى يرتبط بعضها ببعض.

أما تكرير البديع فقد جاء ليعمق المعنى لما تحمله هذه الكلمات من شحنات دلالية لها أثر واضح فى تعميق المعنى والوصول بالقارئ والسامع الى ما يهدف إليه من الحرص على الربط بين تلك المعانى.

كما حرص الكاتبان على هذا التكرير لاثارة الأحاسيس والمشاعر لدى المتلقى حتى تتحول المعانى الجامدة الى سلوك فى حياته وبذلك يتحقق الهدف الذى قصده الكاتبان بأسلوب حسن مع سلاسته وسهولته وتخير لفظه واصابة معناه وإذا (كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقا وبالتحفظ خليقا)[١].

هكذا كان لكل من الخوارزمى والبديع تميز فى استعمالات اللغة واشتقاقاتها وحفظ مفرداتهاوقد بدا ذلك فى رسائلهما التى عرضت ولازلت أعرض قطوفا منها لتكون معينة على تقرير تلك الوجهات الفنية لكن البديع كان أكثر حظا وأوسع باعا فى استعمالات اللغة واشتقاقاتها وحفظ مفرداتها والاستفادة من هذا كله في نسج رسائله على النحو الذى نراه فى قوله هاجيا رجلا يسمى عمارا.

---

(١) الصناعتين ٦٩.

(وما أجد لعمار مثلا إلا الغراب، لا يقع إلا مذموما على أى جنب وقع إن تعب فروعة النذير وان حجل فمشيه الأسير وأن شحج فصوت الحمير وان أكل فدبر البعير وان سرق فبلغة الفقير كذلك عمار...) (١).

ولعلك تلحظ معنى فى هذه الفقرة من رسالته تلك القدرة الفذة التى يمتلكها البديع فى التلاعب بالألفاظ والتناظر في مسمياتها حتى استطاع أن يرسم لنا هذه الصورة الساخرة امعانا فى الحط من قدر ذلك الرجل المهجو الذى جعله البديع ميدانا لكل صفة مذمومة كريهة ولا عجب فإن كل كلمة من كلمات تلك الفقرة تحمل معني خالصا فى الذم والتوبيخ وقد أعان البديع على ذلك معرفة واسعة باللغة واشتقاقاتها.

أما قدرة الخوارزمى على التلاعب بالألفاظ وتكوين أشكالها فتبدو فى قوله في بعض رسائلة متحدثا عن الدهر وأحواله مع الناس: (والدهر غريم لا يماطل إذا اقتضى، وحاكم لا يراجع اذا قضى ومؤدب إذا لم يتعلم منه عاقب وإذا تعلم منه أدب وهذب على أنى ما رأيت معلما احسن تعليما من الزمان، ولا متعلما اسوأ تعلما من الانسان...) (٢).

(١) كشف المعانى ٣٦٩.

(٢) رسائل الخوارزمى ١٢.

ولعلك تلحظ الكلمات التى وقع فيها التناظر والاشتقاق قوله: قضى - اقتضى، تعلم.

وهكذا يبدو جليا أن لكل من الكاتبين وجهة فنية من نسخ أسلوبه على هذا المنوال فكان هدف الخوارزمى التشويق أو اللوم والتهديد أما البديع فقد قصد الى تلك الشحنات الدلالية التى تحملها تلك الكلمات ليعمق المعنى فى النفوس.

الفاظ وعبارات ذات دلالة خاصة فى الرسائل :

بدت في أسلوب الرسائل لدى الكاتبين بعض الألفاظ والعبارات ذات دلائل خاصة قصد اليها الكاتب قصدا وحسبى الاشارة الى ذلك فى بحث يميل إلى الإيجاز.

"ليت شعرى"[١].

من العبارات التى اتسم بها الأسلوب لدى الكاتبين وليس ذلك بدعا فقد كان هذا التعبير شائعا لدى الأدباء والشعراء فى عصر كاتبينا وهو تعبير يدل على الندم والحسرة ومن أمثلة ما جاء فى أسلوب الخوارزمى قوله فى بعض رسائله الى ابى الحسن الطرطودى: (... فلا ترتفع عنى لشغل وليته كما لم يصغر عندنا شأنك العزل - ليت شعرى - ما الذى رآه فى الكبر حتى اعتقد ملته واستقبل قبلته)[٢].

---

(١) ليت شعرى : اي ليت علمى أو ليتنى علمت.. (اللسان مادة شعر).

(٢) رسائل الخوارزمى ٢٦.

ومما جاء فى رسائل البديع قوله : (ولست بمعصوم عن كل لوم، ولكنى أتصون ولا محجوب عن كل حدب ولكنى أتجمل - فليت شعرى - أي عيوبى ظهر؟ وكيف اشتهر ...) (١).

"كلمة فلان"

جاءت هذه الكلمة فى رسائل الكاتبين ولكنها كانت مختلفة الدلالة عند كل منهما تبعا لموضوعات الرسائل وقد بدا أن كلا من الكاتبين كان يقصد بها نفسه في معظم الرسائل يوضح ذلك ما جاء في رسائلهما ومن ذلك ما جاء فى رسالة للخوارزمى حيث كتب يقول معتزا بنفسه : (ورد فلان هذه الناحية فملأ العيون جمالا والقلوب كمالا والأسماع مقالا) (٢).

وكما جاء في رسالة الهمذانى فى مقام الشكوى : (... وحدثت عن هذا الخليفة لابل الجيفة أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد هذا البلد وليس يقنع فما أصنع...) (٣).

وقد يعبر بها كل من الكاتبين ضائقا أو مستهجنا للاسم الصريح لسبب يراه أو مقام اقتضاه ومن ذلك ما جاء فى إحدى

---

(١) كشف المعانى ٣٢٣.

(٢) رسائل الخوارزمى ١٩٣.

(٣) كشف المعانى ٢٥٤-٢٥٥.

رسائل الخوارزمي هاجيا بعض الولاة: (... ورد علينا فلان ونحن نيام نومة الأمنة) [١] وتلك سمة فنية في أسلوب الكاتب إذ أنه رأى عدم ذكر هذا الوالي ليجنب القارئ سوء ما يخلفه هذا الاسم من ضيق ولا غرو فقد شرط النقاد (ألا تكون الكلمة موحية الى النفس بما يؤذيها حتى يستقيم الأسلوب" [٢].

ظواهر لغوية ذات وجهة فنية :

لاحت في الأسلوب عند كاتبينا بعض الألفاظ والعبارات التي استخدمها كل منهما متمكنا بموهبته الأدبية من استثمار خصائصها التركيبية في توضيح فكرته والوصول الى هدفه من أقرب طريق ومن ذلك النفي والاستثناء وهو طريق من طرق القصر التي يقصد من ورائها الكاتب الى توكيد المعاني وتقويتها وهو الاكثر شيوعا في رسائل الكاتبين ومن أمثلة ذلك قول الخوارزمي في بعض رسائله: (ولقد كانت المصيبة بفلان جراحة لا دواء لها إلا الصبر وخسرانا لا جبر له إلا الأجر...) [٣]

وكذلك منه قول البديع متحدثا عن نفسه :(ثم لم يلق الا في أل مكيال رحله ولم يصل الا بهم حبله ولم ينظم الا فيهم شعره...) [٤].

---

(١) رسائل الخوارزمي ١٣٨.

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ٥٩٥.

(٣) رسائل الخوارزمي ٢٠٦.

(٤) كشف المعاني ٩٧، ٩٨.

وهكذا شاع طريق القصر بالنفى والاستثناء في تلك الرسائل بصورة واضحة ولا عجب إذا عرفنا أن (النفى والاستثناء أظهر الطرق وأقواها في الدلالة على القصر) [١].

ومن الظواهر اللغوية ذات الوجهة الفنية التى شاعت في اسلوب الرسالة عند الكاتبين العطف بلا وبل دون غيرهما من حروف العطف ولعل السبب فى ذلك دقة الأسلوب وتطويعه لأداء غرض الكاتب فهذان الحرفان من الحروف التى تفيد القصر (والقصر أسلوب جميل غزيز المعنى قوى المبنى لطيف الأسرار) [٢].

ومع ذلك لم يكن استخدام الكاتبين لهذين الحرفين "لا، بل" على مستوى واحد ففى الوقت الذى يكثر فيه حرف العطف "لا" في رسائل الخوارزمى نراه يقل أو يندر في رسائل البديع.

ومن ذلك الاستعانة بالمصطلحات العلمية الشائعة :

استطاع الخوارزمى أن يفيد من مصطلحات المناطقة والفقهاء والفلاسفة والأطباء مما شاع في عصره ولا يعيبه هذا - فيما أرى - ما دام القصد منه تجلية المعنى وتعميق الفكرة وان عده ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة خروجا عن وضع الألفاظ فى مواضعها اذ

---

(١) دراسات منهجية فى البلاغة العربية د. احمد حنفى ٤٨.

(٢) دراسات فى علم المعانى د. حسن مخيمر ص ٧ ط ١٩٨٩م.

يقول : (ومن وضع الألفاظ في موضعها الا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب الفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التى يختص بها أهل المهن والعلوم) [١].

ومن أمثلة الاستعانة ببعض هذه المصطلحات العلمية الشائعة ما جاء فى احدى رسائل الخوارزمى اذ يقول :(... وكيف يسمح بالجوهر الحاصل من يبخل بالعرض الحائل، وكيف بتوسع فى النافلة من تضايق بالفريضة) [٢].

ومنه أيضا قوله :(الجرب حكة -عافى الله تعالى سيدى منها- مادتها يبوسه وحرارة ووقود والتهاب... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته وعلى العطش مع حرارته...) [٣].

وقد بدا فيما سقته لك هذه المصطلحات العلمية المتنوعة كالجوهر والعرض وهما من مصطلحات المناطقة والفريضة والنافلة وهما من تسميات الفقهاء، والجرب وهو من مصطلحات الأطباء.

(١) سر الفصاحة ١٥٨.

(٢) رسائل الخوارزمى ٢٧.

(٣) السابق ١٤٣.

واذا كـان ابن سنان الخـفـاجى قـد عـد ذلك خـروجـا عن وضع الألفـاظ فى مواضـعـها فـان القلقـشندى اعـتبـر ذلك هجنة فى الكلام ولست معـه ايضـا فـيما ذهب اليـه حيث يقـول : (فـان عـملت رسالة أو خطبـة.. فـتـحـفظ الفـاظ المتكلمين كـالجـسم والجـوهر والعـرض واللون والتأليف فان ذلك هجنة...) [١].

وخلاصـة الرأى عندى أن الحياة تسير بخطى فسيحة نحو التقـدم والتطور فى شتى المعارف والعلوم فلا ينبغى أن يقف الأديب شاخص البصر جامد القلم بل له أن يستعين بما يجد من مصطلحات وألفاظ مادامت تخدم فكرته وتحقق هدفه وتمتع القارئ والسامع على أن يكون فنه فنا للحياة وألا تغلب تلك المصطلحات على أسلوبه.

وإذا كـان الخـوارزمى قـداسـتـعـان ببـعض المصطلحـات العلميـة فـان البديع لم يشـاركه هذه السـمة الأسلوبيـة لكنه نحـا نحـوا أسلوبيـا اخر فى هذا الميـدان حيث ضـمت رسـائله بعض التـعـبـيـرات الشـائعـة على ألسنة العـوام فى عـصـره ولعل ذلك راجع الى علمـه وخبرته بأسباب التأثير فالكلام المستعمل أشد تأثيرا فى النفوس ومع ذلك فـان هذا الاتجـاه لم يشع فى اسلوبه بحـيث يكون سـمـة من سماته.

(١) صبح الأعشى ٢/ ٣٢٤.

ومنه ما جاء في احدى رسائله :(... وبذل الموجود غاية الجود ، وبعض الحمية أخر المجهود ، وماش خير من لاش[١] ووجود ما قل خير من عدم ما جل ... وقد قيل عصفور فى الكف خير من كركى فى الجو..."[٢].

ومن ذلك شيوع المحسنات البديعية :

تلك وجهة فنية أخرى تضاف الى ما ذكرته قبلا من اتجاهات فنية في أسلوب الكاتبين الخوارزمى والبديع فقد حرصا على تدبج الأسلوب ببعض المحسنات البديعية التى تطرب الأسماع وتأسر القلوب وتحرك المشاعر كما أنها تميل القارئ والسامع وتشوقه وتجعله مستشرقا لما يريده الكاتب ويهدف إليه وبذلك يكون الكاتبان قد حققا وجهتهما الفنية فى الأسلوب لأنه مما لا ريب فيه (أن المتكلم إذا راعى هاتين الفائدتين إمالة السامع واصفاءه وتشويقه، واستشراقه فقد راعى موجبات البلاغة، وتوخى مقتضيات الأحوال وتلك هى البلاغة) [٣].

(١) (الماش :"حب مفيد شاف للمحموم والماش أيضا قماش البيت الذى لا قيمة له ومعنى "ماش خير من لاش" أن وجود القماش الذى لا قيمة له فى البيت خير من خلوه منه " القاموس المحيط فصل الميم باب الشين.

(٢) كشف المعانى ٩١.

(٣) الصبغ البديعى : د. احمد موسى ٤٩٢.

ولعل أهم الأسباب التى دفعت الكاتبين الى تلك الوجهة الفنية سالفة الذكر وفرة مادتهما اللغوية وتمرسهما بأساليب اللغة وأبرز تلك المحسنات البديعية فى أسلوب رسائلهما السجع والجناس والموازنة.

السجــع:

وقد عرف بأنه : (تماثل الحروف في مقاطع الفصول) [١] أو أنه (تواطؤ الفصول فى الكلام المنثور على حرف واحد) [٢] ومن تتبع رسائل الكاتبين بدا أن السجع فيها كان الحلية الغالبة التى أكسبت تلك الرسائل جمالا وعذوبة وبخاصة ما قصرت فقراته وجمله ولا غرو فإن السجع فى النثر نظير القافية فى الشعرو (كما أن الشعر يحسن بتساوى قوافيه كذلك النثر يحسن بتماثل الحروف فى فصوله...) [٣] ولعلك تلحظ تلك الوجهة الفنية فى قول الخوارزمى: (... لا عدمت صاحب الجيش سيدا، وسندا، ومددا وعضدا، وركنا مؤيدا وسنانا محددا وسهما مسددا وسيفا مجردا مهندا...) [٤].

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ٦٤ بشرح عبد المتعال الصعيدى.

(٢) المثل السائر. القسم الأول ٢٥٧. تحقيق د. احمد الحوفى، د. بدوى طبانه.

(٣) سر الفصاحة ١٦٤.

(٤) رسائل الخوارزمى ١٧٧.

كما نلحظها فى قول البديع متحدثا عن سوء بعض الكتاب: (ولا زاد مالهم الا نقص معروفهم، ولا ورمت أكياسهم الا ورمت أنوفهم، ... ولا صلحت أحوالهم الا فسدت أفعالهم) (١) وبنظرة متأنية مع حس نقدى واع فى النموذجين السابقين بل فى رسائل الكاتبين معظمها يمكن أن يحكم على السجع فيها بأنه كان طبيعيا غير متكلف فقد جاء موافقا لتلك الوجهة النقدية القلقشندية التى تقول : (فان جاء كلامك مسجوعا عفوا من غير قصد، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان، وان عز ذلك فاتركه... فقد كان المتقدمون لا يحتفظون بالسجع جملة، ولا يقصدونه الا ما أتت به الفصاحة فى أثناء الكلام وأتفق من غير قصد ولا اكتساب، وانما كانت كلماتهم متوازنة والفاظهم متساوية ومعانيهم ناصعة وعباراتهم رائعة....) (٢).

وقد بدا أن البديع كان أشد حرصا على السجع في أسلوب رسائله من الخوارزمى وقد دفعه ذلك الى تسهيل بعض الكلمات أحيانا كما فى قوله :(... والدين وافر قوى، والكفر صاغر قمى...) (٣) فقد سهل كلمة قمى وأصلها قمئ بمعنى ذليل للازدواج بينها وبين كلمة قوى وقد يعدل الكلمة عن وجهها اتباعا لما قبلها

(١) كشف المعانى ١٤٦.

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٢٠: ٣٢٧ وما بعدها.

(٣) كشف المعانى ٤٨٧.

وهو يهدف بذلك الى ازدواج السجعة كما فى قوله : (... وما حال الواحد بين اثنين أحدهما يبكيه والآخر يشكيه) [١] فقد عدل الكاتب عن كلمة يشكوه وفعلها شكا يشكو الى بشكيه وهذا خروج على اللغة غير مقبول ويندر ذلك عند الخوارزمى. ولا غرو فقد كان البديع (يلتزم السجع الا قليلا وهو في الرسائل اسجع منه فى المقامات) [٢] وذلك بلا شك نتاج عقل ذكى وحسن أدبى فى غاية التوفيق والتفوق فى ميدان الأدب والإنشاء.

تعددية صور السجع ودلالتها :

أدرك الكاتبان قيمة التعددية فى صور السجع وأثر تنويعه على القارئ فعمدا الى ذلك فى فنية بارعة فجاء سجع الكاتبين متعدد الأشكال والصور ومن ذلك التعادل والتماثل بين افراد الجملتين واشتراكهما فى حرف واحد وهذه وجهة فنية تهدف إلى ابعاد السآمة والملل عن نفس القارئ والسامع الذى قد يبعثه طول الجمل المسجوعة لأن هذا التعادل بين افراد تلك الجمل وتشابه بعض حروف كلماتها يقرب بين الأصوات المتباعدة ومن ثم تحس الأذن بجو موسيقى متماثل لا يبعد عن موسيقى الجملة الأولى وهذا يريح الأذن ويمتع النفس ويرقى بالمشاعر ومما يدل على ذلك اللون قول الخوارزمى

---

(١) كشف المعانى ٢٤٧.

(٢) الحياة الأدبية فى العصر العباسى د. خفاجى ٣٨٥.

فى بعض رسائله: (.. ولاخلصك الله مما أنت فيه من جناية غيرك عليك حتى يخلصك مما كانت فيه من اساءة نفسك اليك) (١)

ولعلك تلحظ معى التعادل الواضح بين الجملتين مع اتحادهما فى حركة الفواصل مع تشابه بعض الحروف فى نهايات الفواصل أما هذه الوجهة الفنية وهذه الصور من السجع فاننا نراها فى رسائل البديع مثل قوله :(.. فإن وجدت الحال كما نزلت فدار الشمل جامعة، وأن تغيرت عما عهدت فأرض الله واسعة) (٢) ولعل التعادل واضح فى قدر هاتين الجملتين كما أن التماثل لا يخفى في حروف بعض الكلمات مثل قوله نزلت وعهدت.

ومن مظاهرالسجع عند الكاتبين كثرته مع الالتزام بروى واحد ومن هذا قول الخوارزمى :(.. والله - تعالى - يطيل بقاء الشيخ لممتحن يخلصه، ولفاضل يستخلصه، ولعارفة يسديها، وضيقة يوليها، ورغبة يعطيها، ومعال يوشيها، وكريمة يجلبها ومهمة يكفيها، وملحة يداويها، وأيام كأيامنا هذه يداريها...) (٣) فهذه سجعات تصل إلى عشر ولكنه التزم فيها رويا واحدا هو الهاء المشبعة بالألف.

---

(١) رسائل الخوارزمى ٩.

(٢) كشف المعانى ١١٤.

(٣) رسائل الخوارزمى ١٠٤.

ويرى الدكتور/ "مصطفى الشكعة" أن الخوارزمي كان غير موفق في أسجاع رسائله وبخاصة ما جاء منها على روى واحد وعلل ذلك بأن الخوارزمي لم يجهد نفسه واكتفى بأن تكون الفقر مشتركة في حرف الروى الذى لم يكن موفقا أيضا في اختياره حيث جاءت حروف الروى عنده ضعيفة لا تكشف عن تمرس في هذا المجال **وأنا معه فيما يخص حرف الروى حيث جاء فيما-** أرى - ضعيفا غير متلائم مع عرض الكاتب كما في النموذج السابق ولكن الأستاذ الناقد كان قاسيا في تعميم بقية وجهته النقدية التي لا توافقه على اطلاقها بلا تقييد على كاتب حلق في سماء الأدب وتتلمذ علي يديه طلاب الأدب في فن الكتابة.

ولعل من المفيد هنا أن أنقل وجهة نظر الناقد حيث يقول: (فالخوارزمي في سجعه يبدو كسولا متوانيا لا يكاد يتعب نفسه في تنغيم أسجاعة واختيار الروى الرنان بل يكفي بأن يجعل نهايات الأسجاع تتفق في حرف واحد مما يحمل القارئ على أن يحس بالملل ويكاد ينسى أنه يقرأ كلاما مسجوعا.. ولو كان الخوارزمي تحلل من هذا النوع الثقيل السخيف من الأسجاع وعمد إلى الأسلوب المرسل لكان خيرا له الف مرة، ولكنه أبى إلا أن يجاري أدباء عصره ويقلدهم في الأسجاع على غير استعداد كامل فرمانا بهذا السجع الهزيل) [(١)].

---

(١) بديع الزمان د. الشكعجة ١١١، ١١٢.

كما ذكر بعض الأمثلة التى أيد بها وجهة نظره تلك ومنها ما جاء في احدى رسائل الخوارزمى اذ كتب يقول : (... ولا تؤخر عمل اليوم الى الغد، ولا تهمل نفسك فى شغل السبت الى الأحد) [١] وقوله (ومهلى اذا شربت ومحدثى اذا خلوت وسلامتى اذا اغتنمت...) [٢].

وقد علل الناقد لثقل السجع وتكلفه فقد جاء التكلف فى النموذج الأول من كلمة الأحد التى لا فائدة منها الا اتمام السجعة كما أن الثقل فى النموذج الثانى كان نتيجة لازمة لاكتفاء الكاتب الخوارزمى في السجع بتلك التاء المفتوحة. ولاشك أن للناقد وجهته فدراسة الأدب تخضع لوجهات النظر مادامت محكومة بأسس النقد التى وضعها أهل هذا الفن.

ومنه قول البديع : (... كان ذنبى الى ذلك السلطان مولاة أدمتها، خدمة أقمتها، وشبيبة أرقتها، وحياة أنفقتها، وحرم أسلفتها، وأموال أتلفتها، وقصائد نظمتها، وموائد خدمتها...) [٣].

---

(١) رسائل الخوارزمى ٦١.

(٢) السابق ٢٠.

(٣) كشف المعانى ١٥٥.

وهكذا جاءت هذه السجعات على كثرتها متفقة فى روى واحد وهى غاية في جودة سبكها وتناغم كلماتها تصل الى الأذان والعقول في صورة مقبولة تضمن لها البقاء فى عالم الأدب.

ومن صور السجع عند الكاتبين تعدد الفواصل مع اختلاف الروى ومن ذلك قول الخوارزمى فى بعض رسائله: (وأنا أرى لشيخى أن يستعمل هذا الرسول فى جباية المال واستحثاث العمال واجتلاب الصدقات والجوال فانه يحاسب على اللحظة ويضايق فى اللفظة...) [1].

فقد جاء كلام الخوارزمى فى هذا النموذج مركبا على رويين فى خمس فواصل ومن أمثلة هذا الاتجاه الفنى فى أسلوب البديع قوله: (فكان ما أضعناه كأنا زرعناه فأنبت سبع سنابل، وكان ما فقدناه كأنا أقرضناه هذا الملك العادل) [2] فقد جاء كلامه ست فواصل مبنيا على رويين.

ومن براعة السجع عندهما جعل آخر كلمة فى الجملة أو الفقرة بداية للجملة الثانية مع قدرة على عدم الاخلال بالمعنى أو النيل من موسيقى السجع وتلك المهارة تكشف عن ثقافة الكاتبين

---

(١) رسائل الخوارزمى ١٨١.

(٢) كشف المعانى ٤٣٣.

ورصيدهما من اللغة وأساليبها ومن تلك الأمثلة قول الخوارزمي: (وانما الناس بالاحسان بالسلطان، والسلطان بالزمان والزمان بالإمكان، والإمكان على قدر الكتابه) (١).

وعلى هذا المنوال نسج البديع أسلوبه ومنه قوله :(ويعرف حال غيره من نفسه ويعلم أنها حب وراء القلب وقلب وراء الحلب وحلب وراء العظم وعظم وراء اللحم ولحم وراء الجلد...) (٢).

صور من السجع اختص بها أسلوب البديع :

كان للهمذاني قدرة خاصة في هذا اللون من البديع البلاغى لم يجاره فيها الخوارزمي ولذلك تفرد أسلوب رسائله ببعض الوان من السجع كانت نادرة أو معدومة فى أسلوب الخوارزمى وقد كشفت هذه السمة الفنية فى أسلوبه عن تمكنه من اللغة ومعرفته بدقائق أساليبها. ومن ذلك.

السجع بين الألفاظ والكلمات وليس الجمل والعبارات ومنه قوله :(يعز على - أطال الله بقاء الرئيس- أن ينوب فى خدمته قلمى عن قدمي ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ...) (٣) ولعلك تلحظ

---

(١) رسائل الخوارزمى ٢٦٢.

(٢) كشف المعانى ٢٣٤.

(٣) كشف المعانى ١٠١.

معى أن السجع هنا جاء من خلال الكلمات المتشابهة أو المتناظرة مثل كلمة "قلمى، قدمي، رسولى، وصولى" بل أن الهمذانى له قدرة على أن يسجع بين الكلمات فى الجملة الواحدة كما فى قوله: (...اليفه رغيفه، وأنيسه كيسه، وأمينه يمينه ودنانيره سميره...)[1].

ولعل الهمذانى يريد أن يظهر مهارته اللغوية ويزهو بتفرده في هذا المجال فيضعف السجعة الواحدة ومن ذلك قوله :(... فاتى وان كنت في مقتبل السن والعمر قد حلبت شطرى الدهر، وركبت ظهرى البر والبحر ولقيت وفدى الخير والشر وصافحت يدى النفع والضر)[2].

كما جمع فى هذا النموذج أيضا بين الطباق والجناس والسجع، ولعلك تلحظ تضعيف السجع الذى سقنا النموذج لتوضيحه فى البر والبحر والخير والشر وفيهما الجناس كما نلحظ الطباق بين الكلمات. البر والبحر، الخير والشر، والنفع والضر وبذلك جمل كلامه (لأن المعانى في الأفكار المتضادة تفهم في يسر وبخاصة إذا وضع بعضها بازاء بعض)[3].

---

(١) السابق ١٤٨.

(٢) السابق ١٠١، ١٠٢.

(٣) فى النقد الأدبى عند العرب ص ٢١٩ د. محمد طاهر درويش.

ومن الملاحظ أن هذا كله جاء طبيعيا غير متكلف في أسلوب البديع فكان سهلا ميسرا (والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا ميسرا بلا كلفة ولا مشقة) [١].

وسجع الكاتبين الخوارزمى والبديع جاء على المذهب السابق فكان محمودا لأنه وقع من غير تكلف أو مشقة فى مجمله وكان التكلف نادرا عند الخوارزمى أما ذم السجع على اطلاقه فلا نوافق عليه لأن السجع جاء فى القرآن الكريم فى سور كاملة مع أننا نؤيد ذم السجع ان كان متكلفا لأن التكلف فى كل شئ يقبحه أما سجع الكاتبين فقد كان سجعا معتدلا والمعروف نقديا (أن الأصل فى السجع انما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء والنفس تميل اليه بالطبع) [٢].

وكان فى مقدرة صاحبينا أن يجعلا أسلوب رسائلهما مرسلا غير مسجوع لكنهما آثرا السجع لما فيه من ميزة دعا اليها النقاد كما استحسنوه في الرسائل والخطب حيث يقول بعضهم: (وأعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع، فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر...) [٣] ويسير في

---

(١) سر الفصاحة ١٦٤.

(٢) المثل السائر - القسم الأول ٢١٢.

(٣) الصناعتين ١٧٦.

الاتجاه النقدى نفسه بعض النقاد المحدثين داعيا الى الاعتدال فى البديع وبخاصة السجع والازدواج والا تكون تلك الحلى اللفظية على حساب الفكر والمعنى بحيث لا تكون المعانى تبعا للألفاظ وانما العكس فيقول : (فاننا نكره كما كره نقاد العرب ان يكون ذلك مما يدفع الكاتب الى اهمال جانب المعنى بل ينبغى أن يكون اللفظ تابعا للمعنى وأن يكون واضحا خاليا من ظلمة التنافر والتعقيد...) [(١)].

وبعد هذا العرض للسجع وصوره وأهميته ونماذجه فى رسائل الكاتبين، الخوارزمى والبديع مع ما اقتطفناه من الوجهات النقدية فى هذا المجال نستطيع أن نجعل ذلك اتجاها فنيا فى أسلوب الرسالة لدى الكاتبين وبخاصة بديع الزمان الهمذانى يقول استاذى الخفاجى مستحسنا ومعللا لتلك الوجهة الفنية عند البديع: (وهو فى الرسائل اسجع منه فى المقامات وجملة قصيرة وسجعه متقارب وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكى الحساس) [(٢)].

الجناس:

شاع الجناس في أسلوب الرسالة عند الكاتبين وبخاصة عند بديع الزمان، وقبل أن نجلى هذه الوجهة الفنية لابد من الماحة إلى معنى الجناس وقيمته فى الأسلوب وشغف كثيرين من الكتاب بـــه

---

(١) اسس النقد الأدبى عند العرب ٦٠٥.

(٢) الحياة الأدبية فى العصر العباسى د. خفاجى ٣٨٥.

ولعل فيما كتبه ابن الأثير ايضاحا لهذا كله حيث يقول :(واعلم ان التجنيس غرة شادخة[١] فى وجه الكلام وقد تصرف العلماء من ارباب هذه الصناعة فيه فغربوا وشرقوا - لاسيما المحدثين منهم - وصنف الناس فيه كتبا كثيرة وجعلوها ابوابا متعددة ... وحقيقته ان يكون اللفظ وحدا والمعنى مختلفا...)[٢] وقد جاء الجناس مع تنوعه في رسائل الكاتبين طبيعيا غير متكلف كما كان قبلا فى السجع الذى أفضنا فى الحديث عنه فى موضعه فلم يكن التجنيس مطلوبا لذاته بل إنه جاء تبعا للمعنى **ومن ثم كان وجهة فنية مقبولة تدل على فنية الكاتبين وعلمهما بوجوه تحسين الكلام** (ولا يخفى أن أسلوب التجنيس يكسب الكلام حسنا وجمالا ويعود على المعنى بالتمكين فى ذهن السامع فهو من صميم البلاغة ومقاصدها التى تؤم)[٣].

كما لا يخفى ما فى الجناس من تشويق للقارئ والسامع على السواء لهذا كله كان الجناس فى أسلوب الرسالة عند الكاتبين شائعا

---

(١) شدخت الغرة شدخا وشدوخا، انتشرت وسالت فملأت الجبهة ولم تبلغ العينين، وقيل غشيت الوجه من أصل الناصية إلى الأنف (اللسان مادة "شدخ".

(٢) المثل السائر - القسم الأول ٢٦٢.

(٣) الصبغ البديعى ٤٩٢.

من أهدافه التشويق ولا غرو فان (اللفظ المشترك اذا حمل على معنى ثم جاء. والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق اليه) [١].

وقد تنوعت أنماطه عند الكاتبين تنوعا ملحوظا وحسبنا الإشارة الى هذا التجنيس في رسائل الكاتبين حيث يقول الخوارزمى :(ورد على خبر وفاة فلان فدارت بى الأرض حيرة، واظلمت فى عينى الدنيا حسرة، وتذكرت ما كان يجمعنى واياه من سكرى الشباب والشراب) [٢].

ويقول أيضا :(كتبت الى الأستاذ معاتبا مرة، ومستعتبا كرة فما وجدت للعتاب أعتابا، ولا قرأت عن الكتاب جوابا) [٣]

وبنظرة فاحصة فى القطفين السابقين يتضح لنا أن الخوارزمى جانس بين الاسماء وهو اتجاه غالب في معظم جناس رسائله كما أنه جمع بين الجناس والسجع فى آن واحد كما فى قوله "حيرة وحسرة" وكما فى قوله (اعتابا، وجوابا) كما أنه استخدم الجناس المزدوج فى قوله (سكرى الشباب والشراب) فقد وليت كلمة الشراب كلمة الشباب وهذا ما يسمى بالجناس المزدوج حيث عرفه بعض النقاد بأنه

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للامام السبكى جـ٤ ٢/٤، ٤/٣.

(٢) رسائل الخوارزمى ٢٥.

(٣) السابق ٣٣.

(اذا ولى أحد المتجانسين الآخر) [١] ولايخفى قيمة هذين اللونين من البديع فالسجع يزيد تأثير الكلام في النفس لموسيقاه التى تريح الأذن وتمتع النفس (ولعل السر فى تأثير الجناس ما فيه من ايهام النفس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد فإذا أمعن المرء فيها النظر رأى للكلمتين معنيين مختلفين) [٢] فيؤدى ذلك الى الإعجاب بأسلوب الأديب شاعرا أو ناثرا وقد بدا أن الخوارزمى كان موفقا فى وجهته تلك ايما توفيق وان لم يبلغ ما وصل اليه بديع الزمان في هذا الاتجاه الفنى.

أما التجنيس عند البديع فقد كان بين الاسماء تارة وبين الاسماء والافعال تارة اخرى مع قدرة فائقة على الاشتقاق والتنويع تعينه على ذلك معرفة باللغة وأساليبها وقدرة على الغوص فى محيطها واستخراج لآلئها ومن هنا كانت له تلك القدرة وهذه الريادة في مجال صياغة الألفاظ والمجانسة تتبينها في رسائله ولهذا قال عنه بعض النقاد (وما عرفنا كاتبا ينقاد له الجناس انقياده للبديع فى هاتيك الرسائل .. ولا عجب فقد كان الهمذانى كاتبا صناعا حذق صنعة اللغة وحفظ مفرداتها واتقن رصفها) [٣].

---

(١) الايضاح ت د. خفاجي ٥٤٢.

(٢) أسس النقد الأدبى د. احمد بدوى ص ٤٧٥، ٤٧٦.

(٣) مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته - مازن المبارك ٢٧.

وتلك بعض النماذج التى تؤيد ما يبدو لى من رؤى نقدية تجاه جناس بديع الزمان الهمذانى قبل وبعد

يقول بديع الزمان (وأنا أحمد الله الى الشيخ، وأذم الدهر فما ترك لى فضة إلا فضها ولا ذهبا ولا ذهب به ...) [١] ويلاحظ هنا أن البديع يصوغ الافعال من مادة الاسماء ثم يجانس بينها فى براعة الناثر الحاذق المبدع الذى صارت معه الكلمة طيعة يصوغها كما يشاء لتخدم فكرته وتجمل كتابته فيكون فى غاية التأثير وتلك مهمة الأديب حيث إنه (يهئ للألفاظ نظاما ونسقا وجوا يسمح لها بأن تشع أكبر شحنتها من الصور والظلال والإيقاع) [٢].

وقد جانس البديع بين كلمتين قائمتين على صيغة أفعل التفضيل كما يتضح من قوله فى احدى رسائله التى يفضل فيها العرب على العجم : (ولم ننكر أن تكون أمة أحسن من العرب ملابس، وأنعم منها مطاعم وأكثر ذخائر وابسط ممالك واعمر مساكن ولكنا نقول : العرب أوفى وأوفر وانكى وانكر وأعلى وأعلم وأحلى وأحلم وأقوى وأقوم وأبلى وابلغ) [٣].

---

(١) كشف المعانى ١٠٥.

(٢) النقد الأدبى أصوله ومناهجه- سيد قطب ص ٣٩.

(٣) كشف المعانى ٢٧٩.

وأرى أن البديع هنا لم يحالفه التوفيق وأن هذا النموذج يمثل النادر من التجنيس الذى لم يستدعه المقام ولم يطلبه المعنى في رسائله لأن أغلب الكلمات المتجانسة هنا يبدو فيها التكلف والتصنع ("وعلى الجملة فانك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه وأستدعاه وساق نحوه") [١]. ومن ثم كان الحكم النقدى على النموذج السابق بعدم التوفيق فى التجنيس لأنه تجنيس لا يناصره المعنى ولم يكن موقع الكلمات المتجانسه فيه من العقل موفقا حميدا كما أن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيد.

ولا يقلل هذا من مكانة البديع وقدرته على التجنيس وريادته لفن المحسنات البديعية فقد قيل عنه ("ما عرفنا كاتبا ينقاد له الجناس انقياده للبديع فى هاتيك الرسائل") [٢].

الموازنة :

تتحد الموازنة مع السجع وتؤاخيه فى التعادل وتختلف عنه فى عدم التماثل فى فواصلها فكل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا (وعلى هذا فالسجع أخص من الموازنة) [٣] التى يراد بها :

---

(١) أسرار البلاغة تعليق د. خفاجى جـ١ ص ١٠٣.

(٢) مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته د. مازن المبارك ص ٢.

(٣) المثل السائر - القسم الأول ٢٩١.

(أن تكون الفاصلتان متساويين في الوزن دون التقفية) [١] ويسمى أيضا ازدواجا ومن هذا المنطلق تكون لونا من ألوان البديع البلاغى ووجهة النقاد فيها لا تختلف عن وجهتهم فى السجع الذى تحدثت عنه قبلا ومن ثم أرانى لست فى حاجة الى اعادة هذه الوجهات النقدية هنا رغبة فى عدم الاسهاب ورفقا بالقارئ الكريم.

وقد وجد هذا اللون البديعى فى رسائل الكاتبين الخوارزمى والبديع ولا يخفى ما فى الموازنة من تلاؤم موسيقى وقد مدح النقاد الازدواج أو الموازنة وذكر بعضهم أنها كانت سمة الأدب وبغية الادباء حيث قال (وانما كان كلماتهم متوازنة والفاظهم متساوية ومعانيهم ناصعة) [٢] ولهذا وقعت الموازنة في نفوس القراء والسامعين موقع الاستحسان.

ولعل مقتضى حال البحث يحتم على أن أسوق قطوفا دانية من رسائل الكاتبين لتؤصل تلك الخصيصة ونوضح تلك الوجهة الفنية عند الخوارزمى وبديع الزمان ولا غرو فإن للموازنة قيمة لا تنكر فى الكلام لما تحقق من انسجام عن طريق الاعتدال والتوازن بين الجمل يقول الخوارزمى (ولقد عاينوا رجلا هون إليهم من قبله، وبغض اليهم من بعده...) [٣].

(١) الايضاح ت د. خفاجى ٥٥٢.

(٢) صبح الأعشى للقلقشندى ٣٢٦/٢ وما بعدها.

(٣) رسائل الخوارزمى ١٢١.

ويقول البديع : (وليس الشوق الى مولاى شوقا انما هو وقع السهام ولا الصبر عن لقياه الصبر انما هو كأس الحمام، وما للسم سلطان هذا السهم، ولا للخمر طغيان هذا الأمر...) (١) ولعلك تلحظ معى أن ما فى هذين القطفين من تعادل وتوازن بين فقراتها قد أحدث جرسا موسيقيا متناغما يؤلف النفوس الشاردة ويجمع القلوب المتباعدة ويعين على فهم الفكرة.

كما يبدو أيضا عدم التكلف فى أسلوب الكاتبين هنا فليست الموازنة عندهما متعمدة لكونها حلية لفظية أو مدارة لعجز فى مجال الإنشاء وإنما هى أسلوب أدبى حتمته طبيعة الغرض ودعت اليه المعانى لتقويتها وايضاحها وتمكينها فى اذهان السامعين والقراء على السواء.

ولاشك أن الموازنة أو الازدواج أدخل فى صناعة الكلام وفصاحته، وأبعد عن التكلف الذى قد يعنى به السجع، فهى إلى الطبع أميل ومن الصنعة أبعد.

---

(١) كشف المعانى ٩٩.

خاتمة البحث ونتائجة

وبعد فلعلى أكون قد وفقت فى إلقاء الضوء على أسلوب الرسالة عند الخوارزمى وبديع الزمان ولعل ما سقته من نماذج موجزة قد أوضح تلك الاتجاهات الفنية التى اتصف بها أسلوب هذه الرسائل الأدبية فاكسبتها رفعة وضمنت لها البقاء فى عالم الأدب والأدباء.

ولا عجب فقد حرص كل من الأديبين على تجويد أسلوبه باختيار الفاظه وتعبيراته فجاءت لغتهما قوية الأداء في الدلالة على المقصود مع سلامة المبانى ووضوح المعانى فكانا موفقين فى أسلوب الكتابة لأن الكاتب الموفق هو الذى يهتدى الى الأسلوب الذى يعينه على تحقيق هدفه والابانة عن فكرته وهكذا كان الخوارزمى وبديع الزمان وكذلك كان أسلوبهما مرآة صادقة عكست الشخصية الأدبية والعقلية والوجدانية والثقافية لكل منهما وأطلعتنا على عنايتهما بحسن الصياغة وسلامة الانشاء.

ولعل من المفيد هنا أن أشير إلى أهم نتائج هذا البحث وان كانت لا تغنى عن تقليب صفحاته للوقوف على مافيه من اتجاهات فنية ووجهات نقدية فى أسلوب الرسالة عند الكاتبين.

وفيما يلى ايجاز لما توصل إليه البحث فى مجال تلك الدراسة:

أولا : وضوح اللغة ودقة استعمالها وحسن الملاءمة للموضوع لدى كل من الخوارزمى وبديع الزمان.

ثانيا : لغة الخوارزمى غلبت عليها العاطفة والرقة على حين غلبت الجزالة والمنطق على لغة البديع نتيجة لاختلاف طبيعتهما وثقافتهما وقد بدا ذلك من خلال نماذج رسائلهما التى سقناها فى ثنايا البحث.

ثالثا :اتسم أسلوب الكاتبين باستخدام الكلمات الشائعة فى الأوساط الأدبية حينذاك.

كما تميز اسلوب الخوارزمى في البديع باستخدام بعض المصطلحات الشائعة لدى المناطقة والفقهاء والاطباء على حين كان ذلك نادرا عند البديع وقد أثبت ذلك فى ثنايا البحث.

رابعا : من الاتجاهات الفنية في أسلوب الكاتبين استخدام بعض المحسنات البديعية وبخاصة السجع والجناس والموازنة وان كان الهمذانى أكثر تنويعا لصور الجناس.

كما جاءت المحسنات فى معظمها بعيدة عن التكلف كى تخدم الفكرة وتجذب القارئ وتستهويه.

خامسا : أسلوب الكاتبين جاء معبرا عن الطبيعة المواتية والموهبة التى عاونتها ثقافة واسعة وبصر بمواقع القول وثراء فى اللغة وبخاصة عند بديع الزمان.

سادسا : وقد بدا فى أسلوب الكاتبين اهتمام بالصنعة والتنقيح مع قدرة على تهذيب العبارة ومن ثم جاءت رسائلهما سهلة العبارة عذبة الألفاظ جميلة الايقاع تخدم الفكر وتعين على تحقيق المراد.

سابعا : كانت المحسنات البديعية كالسجع والجناس والموازنة أيام الخوارزمى والبديع صنعة أو تقليدا عملا مستحسنا ينبارى فيه الكتاب كما كانت اللغة والتحكم فيها والامتلاك لها مقياس التفوق فى حيازة قصب السبق فى هذا المضمار وليس الأمر كذلك فى عصرنا الحاضر فلم يقبله النقاد بما كان عليه.

ثامنا : كان استحساننا لأسلوب الكاتبين بما فيه من محسنات بديعية من منطلق عصرهما واننا رجعنا بذاكرتنا إلى هذا العصر لنستحسن ما كان يستحسن فيه من النثر وملامح التفوق فيه مستخدمين مقاييس ذلك العصر وآراء نقاده فيه حيث بدت لنا اتجاهات فنية فى أسلوب الرسالة عند الكاتبين أوضحناها في مواضعها المختلفة فى ثنايا البحث.

هذا وبالله التوفيق وعلى الله قصد السبيل.

مصادر البحث ومراجعة

١- أبو بكر الخوارزمى حياته وأدبه من أعلام العرب د. أحمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م.

٢- الأدب العربى فى اقليم خوارزم لهند حسين طه. منشور وزارة الاعلام بالعراق سنة ١٩٧٦م.

٣- أسرار البلاغة / ت د. خفاجى ط٣ دار القاهرة للطباعة سنة ١٩٧٩م.

٤- أسس النقد الأدبى د. احمد احمد بدوى - مطبعة الرسالة ط٢ ١٩٦٠م.

٥- الأسلوب لأحمد الشايب ط٧ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٦م.

٦- الايضاح - مطبعة صبح ١٩٧١ تحقيق د. خفاجى. دار الكتاب اللبنانى بيروت.

٧- بديع الزمان رائد القصة والمقالة الصحفية. د. الشكعة ط١ عالم الكتب سنة ١٩٨٣م.

٨- بغية الدعاة للسيوطى. مطبعة الخانجى ١٣٢٦هـ.

٩- البيان والتبيين للجاحظ. دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠- تاريخ الأدب العربى لاحمد حسن الزيات ط٢. دار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩١٤م.

١١- تاريخ آداب اللغة لجرجى زيدان. ت. د. شوقى ضيف. طبع دار الهلال.

١٢- الحياة العربية في العصر العباسي الثاني د. خفاجي ط١ القاهرة. نشر رابطة الأدب الحديث. دار العهد الجديد للطباعة سنة ١٩٥٤م.

١٣- دراسات منهجية في البلاغة العربية د. احمد حفني ط٢ سنة ١٩٦٩م. مطبعة زهران - القاهرة.

١٤- دراسات في علم المعاني د. حسن مخيمر ط١ مطبعة الأمانة سنة ١٩٨٩م.

١٥- رسائل أبي بكر الخوارزمي. منشورات مكتبة الحياة. بيروت سنة ١٩٧٠م.

١٦- زهر الآداب للحصري ت . د. زكي مبارك ط٤. دار الجبل سنة ١٩٧٣م. المطبعة الرحمانية.

١٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي - ش عبد المتعال الصعيدي - مطبعة صبح سنة ١٩٦٩م.

١٨- صبح الأعشي للقلقشندي. نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنضر سنة ١٩١٨. مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٢م.

١٩- الصبغ البديعي د. احمد موسى. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٩م.

٢٠- الصناعتين لأبي هلال العسكري /ت. د. محمد مفيد قميحة - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط ١ سنة ١٩٨١م.

٢١- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح للامام السبكى ضمن مجموعة شروح التلخيص ط١ - المطبعة الاميرية - بولاق ١٣١٨هـ.
٢٢- فى محيط النقد الأدبى د. إبراهيم ابو الخشب - الهيئة العامة للكتاب.
٢٣- فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف ط٢. دار المعارف.
٢٤- الكتابة الأدبية والعلمية د. اشرف موسى - مطبعة دار التأليف.
٢٥- كشف المعانى والبيان عن رسائل بديع الزمان : شرح الشيخ ابراهيم الطرابلسى. المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة ١٨٩٠م.
٢٦- لسان العرب لابن منظور.
٢٧- المثل السائر لابن الأثير - ت د. احمد الحوفى، د. بدوى طبانه دار نهضة مصر للطبع والنشر.
٢٨- مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته. د. مازن مبارك - مطبعة الترقى بدمشق.
٢٩- معجم الأدباء. منشورات دار المأمون. مكتبة عيسى الحلبى ط٣ دار الفكر سنة ١٩٨٠م.
٣٠- معجم البلدان لياقوت - ت الشيخ الشنقيطى ط١ - مطبعة السعادة بمصر - دار صادر بيروت سنة ١٩٧٧م.
٣١- النثر الفنى في القرن الرابع الهجرى. د. زكى مبارك. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر.

٣٢- نظرات في الأدب المعاصر د. سليمان الأغاني ط١. شركة الطباعة المتحدة سنة ١٩٧٣م.
٣٣- النقد الأدبي. أصوله ومناهجه - سيد قطب - دار الشروق ط٧ ١٩٩٣م.
٣٤- النقد الأدبي الحديث د. غنيمي هلال دار نهضة مصر للطبع والنشر سنة ١٩٧٩م.
٣٥- نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر، ط٣ ١٩٣٨م مطبعة لجنة التأليف والنشر د. طه حسين، د. عبد الحميد العبادي.
٣٦- الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ت. محمد ابو الفضل ابراهيم، ومحمد البجاوي ط٢ دار احياء الكتب العربية - مطبعة عيسى الحلبي.
٣٧- وفيات الأعيان. ت محمد محي الدين - مطبعة السعادة. نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨م.
٣٨- اليتيمة للثعالبي ت/ د. محمد قيميحة ط ١ دار الكتب العلمية - بيروت لبنان سنة ١٩٨٣م.

رثاء الآثار الطولونية الزائلة

دراسة تحليلية نقدية



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

البحث عن الأدب العربي في بيئة عربية قديمة كبيئة الدولة الطولونية التي امتدت من عام ٢٠٤ هـ حتي عام ٢٩٢ هـ الموافق (٨٦٩ م - ٩٠٤م) ليس هيناً يسيراً؛ بل هو أمر عسير لأسباب كثيرة منها :

أن أكثر البحوث الأدبية - في هذا العصر - اتجه إلى العصر الحديث .

وأن كثيراً من معالم هذه الحقبة يحفه الغموض، وكذلك آثارها العلمية ونتاجها الأدبي ، ودواوين شعرائها لم تنشر نشراً واعياً، وكثيراً من شعر شعرائها مبثوث في ثنايا الكتب .

كما أن كثيراً من نصوص الأدب في هذه الفترة مايزال مخطوطاً لم تمتد إليه يد المحققين لتزيل عنه الصعاب التي تفسد قراءته، وتقلل قيمة الانتفاع به .

من أجل هذا أقدمت على هذا العمل - دراسة شعر الدولة الطولونية في رثاء الآثار الزائلة، غير حافل بما سيكلفني من عناء ، ويجشمني من مشقة؛ بل من أجل ذلك أحببت هذه الدراسة، لاتدفعني عن غايتي هذه عقبة مهما تكن شديدة العسر والالتواء .

وشعراء هذه الدولة من الكثرة بحيث يصعب الحديث عنهم أجمعين، وإن كان بعضهم صادقاً في رثائه ، وفيا لدوته، وسنقصر

الحديث عن هذا الصنف من الشعراء، موضحين أهمية هذه الآثار، وهى وإن كان الغرض منها تمتع أصحابها، فقد كانت مادة لخيال الشعراء، ومجالاً لتصوراتهم، ومراماً. ومغذى لتأملاتهم، بصورها تعمر مخيلاتهم، وبمجالسها تنبعث شاعريتهم، كل هذا كان كتاب هذه الدولة الذى قرأه شعراؤها وأدباؤها، وجالوا بنظراتهم فى صفحاته، فكان مادتهم ومثالهم فيما يرسمون، وقد أكثر الشعراء من وصف محاسن هذه الآثار أيام كانت قائمة، كما ذرفوا الدمع عليها مدراراً عند زوالها، والقضاء على أصحابها، فخفقت لها قلوبهم، وتألمت نفوسهم، وظهر ذلك واضحاً على ألسنتهم .

ولن ندعى أن هذه الدولة كان للأدب فيها رواج عظيم، وإنما سيتضح لنا ذلك من خلال هذه الدراسة .

فقائد هذه الدولة كان محباً للأدب ، مشجعاً للشعراء، مقرباً لهم، مجزلاً لهم الهبات، مما أغرى البحترى بالانضمام إليه، وتخصيصه بمدائح خاصة لايشاركه فيها أحد .

وقد كانت مصر فى عهد (أحمد بن طولون) تنافس بغداد ذات المكانة العلمية العالية، فعملت على تشجيع الأدباء والشعراء، واتخذت منهما أبواقاً لإذاعة محامدها، وإظهار فخامتها، وبث هيبتها فى النفوس، مما جعل لزوالها أثراً بالغاً فى النفوس، فرثاها الشعراد بقصائد كثيرة .

وسوف نركز الحديث عن الشعر الذى يتصل بأثر زائل حزن الناس لزواله بعد أن استمتعوا به .

كما أننا سنشير بشئ من الإيجاز إلى تاريخ هذه الدولة والمنشآت والآثار بها ، وكذلك الآثار الزائلة بصفة عامة، ثم نحاول التركيز على رثاء الآثار الطولونية الزائلة .

غير مدعين الإحاطة والشمول ، وإنما هى محاولة للوصول إلى إزالة الغبار المتراكم على هذه الكمية الهائلة من الشعر فى رثاء الآثار الطولونية الزائلة ، داعين الله عز وجل أن ننتفع بها ، وأن ينفع بها سوانا .

والله ولى التوفيق

دكتور

طه عبد الحميد زيد

لمحة تاريخية :

احتلت الأسرة الطولونية مكانة بارزة فى التاريخ الإسلامى فى الميدانين السياسى والأدبى ، فقد أنشأت إمارة استمرت قرابة خمسين عاماً من عام (٢٥٤ هـ - إلى ٢٩٢ هـ) وهى فترة ليست بالطويلة في عمر الدول وسيرة التاريخ، ولكن عمر الدول لايقاس بطول السنين وقصرها، وإنما يقاس بما لها من آثار، وماأضافته إلى التاريخ من أعمال فى كل الميادين .

وإذا تتبعنا تاريخ الدولة الطولونية وجدناها حافلة بالأحداث الجسيمة، والأعمال الباهرة، والآثارالأدبية الخالدة ، مما جعل لمدة قيامها، وأيام سلطانها، أهمية رغم قصرها ، غنية رغم بساطتها، خصيبة في نتاجها الأدبى .

فقد احتلت مكانتها بجدارة كاملة، وظهرت ملامحها العربية الأصيلة فيما قامت به من أعمال فى مختلف ألوان النشاط .

فكانت ذات نشاط حربى ، إذ استطاعت أن تعيد إلى الدولة الإسلامية سيادتها على حدودها .

وقد كان لقائد هذه الدولة (أحمد بن طولون) مكانة مرموقة، ومنزلة عالية، بين الناس، وقوة وشجاعة مكنته من تطهير البلاد من المناوئين له، واحتال بذكائه وحنكته حتى أصبح أمر خراجها بيده، فقويت شوكته، وعظم أمره فى تلك البلاد ، وأصبحت مصر فى عهده فى أمن ورخاء، وسياده واستقرار .

ولم يكن نشاط الدولة الطولونية نشاطاً سياسياً واجتماعياً واقتصاديا فحسب؛ بل كان نشاطها الأدبى رائعاً كذلك، وليس أدل على ذلك مما شهدته البلاد من حضارة وتقدم فى هذه الفترة ظهر أثرها على ألسنة الشعراء ، فهذه مدينة القطائع التى أنشأها (أحمد ابن طولون) وما أقامه بها من مبان فخمة، وهذا مسجده الذى لايزال ماثلاً إلى اليوم آية فى فن العمارة؛ فقد جعل ابن خمارويه فى بنائه عنبراً لتفوح رائحته على المصلين، وعلق فيه الفتايل المحكمة بسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال، وكان فى وسط صحفنه قبة مشبكة من جميع نواحيها ، وهى مذهبة على عشرة عمد رخام، وجعل تحت القبة قطعة رخام سعتها أربعة أزرع، وفى وسطها فوارة تفور بالماء[١].

و(أحمد بن طولون) عاهل هذه الدولة تركى من أبناء هؤلاء الأتراك الذين كان الولاه يهادون بهم الخلفاء، ثم استكثر منهم الخليفة المعتصم بالله، ليكونوا أعوانه ومسانديه، وكان أبوه طالون من موالى نوح بن أسد السامانى عامل بخارى وخراسان، أهداه فى جملة من المماليك إلى المأمون سنة مائتين من الهجرة، فرقاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء[٢] .

---

(١) انظر - خطط المقريزى حـ٢ ص٢٦٨ .

(٢) حسن المحاضر جـ٢ ص١٢ .

وولد له (أحمد) فنشأه تنشئة دينية ظهر أثرها عليه طيلة حياته فحفظ القرآن الكريم وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتاً به، مع كثرة الدرس، وطلب العلم، وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة، ولما ترعرع تزوج ابنة عمه (خاتون) فولدت له العباس [١]، وكان يكنى به .

ونشأ (أحمد بن طولون) فى الفقه والصلاح والدين والجود حتى صار له في الدنيا الذكر الجميل، والصيت الحسن .

وكان شديد الإزراء على الترك وأولادهم لما يرتكبونه فى أمر الخلفاء، غير راض بذلك، ويستقل عقولهم، ويقول : (حرمة الدين عندهم مهتوكه) [٢] .

وكان المستعين يحب (أحمد بن طولون) ويحسن إليه، ووهب له جارية اسمها (مياس) فولت له ابنه (خماوريه)، ولما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه، وأحدروه إلى واسط قالوا له : من تختار أن يكون فى صلحبتك ؟ فقال: (أحمد بن طولون)، فبعثوه معه، فأحسن صحبته ثم كتب الأتراك إلى (أحمد) أقتل (المستعين) ونوليك واسطاً، فكتب إليهم، لاأرانى الله قتلت خليفة بايعت له أبداً، فبعثوا سعيداً الحاجب فقتل (المستعين) ثم رجع أحمد إلى (سر من رأى) بعدما قتل (المستعين) وأقام بها. فزاد محله عند الأتراك فولوه

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص٤.

(٢) المرجع السابق .

مصر نيابة عن أميرها سنة أربع وخمس ومائتين من الهجرة فقال حين دخلها : غاية ماوعدت به فى قتل (المستعين) واسط فتركت ذلك لله تعالى فعوضنى ولاية مصر والشام ، فلما قتل والى مصر الأتراك فى أيام الخليفة المهتدى صار (أحمد بن طولون) مستقلاً بها فى أيام المعتمد (١)

فبدأ (أحمد بن طولون) يسكن العسكر على عادة أمراء مصر من قبله ، فبنى القطائع وكان موضعها من قبة الهواء التى صار مكانها الآن - قلعة الجبل - إلى جامع ابن طولون، وهو طول القطائع، وأما عرضها فكان من أول الرميلة من تحت القلعة إلى الموضع الذى يعرف الآن باسم (زين العابدين) (٢) .

وكانت مساحة القطائع ميلاً فى ميل، وقبة الهواء كانت فى السطح الذى عليه قلعة الجبل، وتحت قبة الهواء بنى قصره (٣) .

وعمرت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزمة ، وأقيمت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع (٤) .

---

(١) النجوم الزاهرة حـ٣ ص٧ .

(٢) نفسه ص١٤ .

(٣) نفسه ص١٧ .

(٤) نفسه ص١٨ .

ثم بنى الجامع على جبل يشكر خارج القاهرة، وأنفق عليه أموالاً طائلة . وقال (أحمد الكاتب) : أنفق (أحمد بن طولون) على بناء الجامع مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار (١) .

و(ابن طولون) كان كثير البر كثير الصدقة، حتى قيل إنه كان يتصدق كل يوم بمآت الدنانير وقد قال له وكيله فى الصدقات: ربما امتدت إلى الكف المطوقة والمعصم فيه السوار، والكم الناعم، أفأمنع هذه الوظيفة ؟ فقال له : ويحك ، هؤلاء المستورون الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؛ احذر أن ترد اليد التى تمتد إليك) (٢) .

واستمر ولياً على مصر حتى مرض سنة سبعين ومائتين من الهجرة أى أنه حكمها ستة عشر عاماً، ثم اعتل واستدعى الأطباء لعلاجه، وبلغ من حب الناس له، أنهم لما علموا بمرضه ، خرج المسلمون بالمصاحف، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، والمعلمون بالصبيان، إلى الصحراء ودعوا له، وأقام المسلمون بالمسجد يختمون القرآن كل ليلة طلباً لشفائه .

وقد صار لمصر خاصة فى عهد هذه الدولة شأن كبير، فقد كثرت عمارتها ، وشيدت أبنيتها، وارتفعت قصورها وأرضوا الخليفة ببعض المال بما سمح لهم أن يتصرفوا، أو تنطلق أيديهم فى سائره وهو

---

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

كثير، فكان منهم البذخ والسخاء والترفيه على الناس، والمنافسة الشديدة لدار الخلافة فى كل مظهر من مظاهر العظمة[١].

ومن هنا نشأ في هذه الدولة عصر جديد للأدب، إذ الأدب مرآة الحياة، ونبض أهلها ، فشجع هذا الأدباء عامة، والشعراء خاصة فأثار مشاعرهم ، وحرك كوامن التجربة فى نفوسهم، فصوروا لنا هذا البذخ ، وتلك الآثار تصويراً جعل الناس يتعلقون بها ، ويحبونها بل يغرمون بها ، ويعشقون البقاء فيها ، مؤثرين الحياة بها عن غيرها ، مما جعلهم يتألمون عند زوالها ، ويبكون لاندثارها ، كما سيظهر عند دراستنا لشعر شعراء هذه الدولة فى رثائهم لهذه الآثار الزائلة .

---

(١) انظر - صبح الأعشى حـ٣ ص١٧ ومابعدها .

رثاء الآثار:

لقد نعى لنا القرآن الكريم الكثير من الأمم والحضارات وحكم عليها بالزوال، وأنزل بها أشد العقاب، فأصبحت أثرا بعد عين وباتت القصور والمدائن خاوية على عروشها، كل مظاهر الترف والعزة والقوة أصبحت خالية معطلة منهم بسبب ظلمهم وفسادهم فى الأرض .

فهذه حضارة سبأ بنيت على النعيم والرعاية من الله تعالى، كان فى زوالها عبرة لمن أراد أن يعتبر ، واية لمن كان له قلب واع، يصور لنا القرآن ذلك فى قوله : **(لقد كان لسبأ فى مسكنهم اية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ذلك جزينهم بما كفروا وهل نجزى إلا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى بركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً ءامنين فقالوا ربنا بعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلنهم أحاديث ومزقنهم كل ممزق إن فى ذلك لأيت لكل صبار شكور)**[1] .

فالأرض ممتدة عن اليمين وعن الشمال، وجنات تنبت أطيب الثمار، وأشهى الفواكه، وأهلها يعيشون فى جميع ألوان الخير والطيبات نعم وافرة، ورزق كريم، وخير عميم من الله عز وجل، خير

---

(١) الآيات من ١٥ - ١٩ من سورة سبأ .

مـابعده خـير ، بلدة طيبـة ورب غـفـور ، وكـانوا فى أول أمرهم يشكرون هذه النعم فـأكـرمـهم الله بخـيـراته والتـجـاوز عن هفـواتـهم، لكنـهم لم يلبثـوا أن تنكـورا لهـذه النعم ، وأعـرضـوا عن شكر الله، واسـتـغلقت قلوبهم وطمست بصائرهم فبطروا وكفروا ، فأرسل الله عليـهم عـقاباً لهم. سيل العرم - فأهلك ودمر واستحالت تلك الجنات أرضاً قـاحلة نبـاتـهـا الشـوك والخـمط وشئ من السـدر ، لايكاد يقـيم أوداً ، ولم يرتدعـوا بل ظلت نفـوسـهم على ظلمـهـا وظلامـهـا فطلبـوا من ربهم أن يبـاعـد بينهم وبين أسـفـارهم ، وكـانـت بينهم وبين القـرى المبـاركـة فى الشـام قـرى ظاهرة قـريبـة من بعـضـهـا ، لايكاد المسـافـر يشـعـر بمشـقـة السـفـر من قـريـة إلي أخـرى ، كـمـا أنه لايحـتـاج إلى حـمل زاد أبداً ، ولكنهم بطلبهم المباعدة بين أسفارهم، كأنهم طلبوا العذاب بأنفسهم فكانت نهـايـتـهم أن تفـرقـوا وأصـبـحـوا مـضـرب المثل (تفـرقـوا أيدى سبـأ) . وتكون الكارثة أشـد عـندمـا يكون الإنسـان نفـسـه هو الهـادم لهذه النعم والمزيل لتلك الآثار ، وتكون الفجيـعـة أشد ، والمصـاب أليم إذا كان الهادم عدو يريد إزالة معالم الحضارة من الوجود .

ورثـا ء الآثار الزائلة عند الطولونيين ليس جـديداً ، وإنما سـبق الشـعـراء القـدامى فى رثا ء آثارهم الزائلة، وبكوا المدن والقـصـور منذ العصر الجاهلى ، ومن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلى :

نام الخلى وماأحس رقـادى والهـم محتضر لدى وسـادى
من غير ماسقم ولكن شفنى هم أراه قد أصاب فـؤادى [1]

---

(١) الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك ص١٣٥ .

ثم يقول فى بكاء من ساد من الذاهبين :

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

أرض تخيرها لطيب مقيلها كعب بن مامه وابن أم داود

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد (١)

ونحا هذا المنحى متمم بن نويره فى عينيته التى يقول فيها :

ولقد علمت ولامحالة أننى للحادثات فهل ترينى أجزع

أفنين عاداً ثم آل محرق فتركنهم بدداً وماقد جمعوا (٢)

وقد وقف البحترى عند رسوم إيوان كسرى ، وتبعه عند أطلال الحمراء معارضاً إياه .

وإيوان كسرى الذى بكاه البحترى كان آية فى العظمة والفخار، واشتهرت قصيدة البحترى فيه، وذاع صيتها وهى التى بدأها بقوله :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس (٣)

أما قصر الحمراء الذى بكاه شوقى فهو من قصور الأندلس، والأندلس هى الفردوس المفقود الذى يبكيه المسلمون حتى اليوم ، وسيظلون دائماً يبكون. (٤)

---

(١) المرجع السابق ص١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص١٣٦ .

(٣) ديوان البحترى حـ٢ ص١١٥٢ القصيدة رقم ٤٧٠ .

(٤) الموازنة بين الشعراء لزكى مبارك بها فصل فى الموازنة بين البحترى وشوقى ص١٣٨ ومابعدها .

وفيها يقول :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفالى ملاوة من شبــــاب صورت من تصورات ومس[١]

والرثاء من الأغراض البارزة فى شعرنا العربى، بل لقد احتل مساحة شاسعة فى ديوان الشعرالعربى منذ العصر الجاهلى ، وسيظل يحتفظ بهذه المساحة مابقى الإنسان والأوطان، إذ طبيعة العربى عطوفة حنانة والهة متأثرة، حتى رأينا بعض الشعراء لايتوقف رثاؤهم على إنسان قريب أو بعيد، بل تعدى ذلك إلى رثاء الحيوان والجماد.

وإن كان أغلب مظاهر الشعر مشترك بين عصور اللغة العربية فى كل مكان ، ولكن من بينها واحداً وهو رثاء الآثار يرى جديداً بين مظاهر الشعر العربى فى الشرق والغرب .

ذلك بأن هذا الغرض من الشعر لم يكثر فى قطر من أقطار العربية إلا فى الدولة الطولونية، وبلاد الأندلس .

ولابد من تفهم الأسباب التى جعلته بين الوضوح فى هذين الموضعين .

ذلك أن النكبة التى أصيبت بها دولة آل طولون كانت شديدة الوقع، بينة الأثر فى نفوس أهل البلاد ، لفظاعتها من ناحية،

---

(١) الشوقيات - أحمد شوقى حـ٢ ص٤٤ .

ولجنايتها من ناحية أخرى على اثار كانت حبيبة إلى النفوس، مستولية على مشاعر القوم ، موجبة لفخرهم بموطنهم واعتزازهم بمنشأتها ، وهيامهم بآثارها التى أنفقوا عليها الكثير، مما جعل فقدهم لها يعد فاجعة كبرى، وكارثة عظمى تثير مشاعر الشعراء، تفجر ينابيع القول من أعماقهم، وتهيج أحاسيسهم ونبض قلوبهم ، وهم عرق الأمة النابض، وترجمان مشاعرهم وعواطفهم، فبكوا آثارهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى ورثوا الأوطان والدول حين سقطت مهيضة الجناح بعد أن سعد فيها الأهل والأحباب ، واستمتعوا بما لها من مآثر ومافيها من جمال، كما نراهم يبكون ويذرفون الدمع مدراراً كأنها لاتريد أن تجف، وتسيل أشعارهم وكلماتهم محزونة مكلومة وكأنها تخرج من جروح لاترقأ فى القلوب والأفئدة من هول المصاب ، وفجيعة الحدث .

ولاعجب أن نرى عاطفة الشاعر تلتهب وتبكى وتبكى، وتحزن، وتأسى وتؤسى، كل المواطنين الذين أصابتهم أحزان زوال آثار دولهم، واندثار معالم أوطانهم .

فكانت كل هذه الآثار مثاراً لشاعرية الشعراء، ومبعثاً لخيالاتهم، فقد أكثر الشعراء من وصف محاسن هذه الاثار أيام كانت قائمة، كما ذرفوا عليها الدمع مدراراً بعد تخربها على أثر انقضاء دولة أصحابها كما سنوضحه وقد ساعد على ظهور هذا النشاط الأدبى، وجود طائفة من الأدباء والشعراء أخلصوا لدولتهم ، وصدقوا فى إظهار محاسنها، واشتهروا بالوفاء لها ولقائدها ، حتى بعد

موته، وهذا النوع من الشعراء قليل، وقد ذاع صيتهم، واشتهروا في عالم الشعر لما لشعرهم من قوة في الأداء وصدق في الشعور، مما أثر في قلوب الناس ، فالتفوا حولهم وتناقلوا أشعارهم. في مقدمة هؤلاء جميعاً العباس بن أحمد بن طولون، فقد كان شاعراً مجيداً له شعر كثير منه قوله :

لله دري إذ أعدو على فرسي	إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفري الرءوس به	في حيرة الموت لايبقي ولايذر
إن كنت سائله عني وعن خبري	فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلي إن سألت فما	فوقي لمفتخر في الجود مفتخر
لو كنت شاهده كري ببلدة إذ	بالسيف أضرب والهامات تبتدر
إذا لعاينت مني ماتناديه	عني الأحاديث والأنباء والخبر[1]

كما ساعد على ظهور هذا النشاط الأدبي كذلك جود الخلفاء وسخاؤهم فقد اجتذب ابن طولون بعطائه وجوده الوليد بن عبيد البحتري ولاشك أن العطاء الذي يرضي (البحتري) صاحب الصيت الذائع والشهرة التي عمت الآفاق - بعد ماذاق جوائز الخلفاء. هو عطاء كثير وجود سخي، لذلك خص البحتري ابن طولون بقصائد خاصة لم يخلطها بغيرها .

---

(١) الأدب العربي في مصر ص١٢٨ .

فقد مدحه بقصيدة بلغ عدد أبياتها ستة وثلاثين بيتاً من بحر الطويل قال فيها :

قليل لها أنى بها مغرم صب　　وأن لم يقارف غير وجد بها القلب

بذلت الرضا حتى تصرم سخطها　　وللمتجنى بعد إرضائه عتب(١)

وقال يمدحه أيضاً :

وعند أبى العباس لو كان دانيا　　نواحى الغناء السهل والكنف الرحب

وكانت بلاء نيتى عنه والغنى　　غنى الدهر أدنى مايئول أو يحبو

وذو أهب للحادثات يمثلها　　يزال الردى عنا ويستدفع الكرب

سيوف لها فى عمر كل عدى ردى　　وخيل لها فى دار كل عدى نهب(٢)

وكذلك كان حال البحترى مع ابنه (خمارويه) فقد مدحه بقصيدة بلغ عدد أبياتها ثمانية عشر بيتاً على بحر الطويل قال فيها :

تذكر محزوناً، وأنى له الذكرى　　وفاضت بغزر الدمع مقلته العبرى

فؤاد هو الحران من لاعج الجوى　　إلى كبدجم بتاريخها حرى(٣)

---

(١) ديوان البحترى حـ١ ص١٢٢ .

(٢) ديوان البحترى حـ٢ ص٧٧ .

(٣) ديوان البحترى حـ١ ص٥٨ .

وقال يمدحه أيضاً:

وقد رأيت جيوش النصر منزلة على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية[1] إذ ثنى بكرته فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته كواكب السعد والخيل الميامينا[2]

وشعراء هذه الدولة الذين مدحوا (أحمد بن طولون) وأبناءه من بعده كثيرون منهم (الجمل الأكبر) و (الناشئ الأكبر) و(إسماعيل ابن أبي هاشم) و(أحمد بن يعقوب) و (سعيد القاص) و (أحمد ابن طشويه) و (أحمد بن إسحاق) وغيرهم كثير .

مواقف الشعراء من الدولة الطولونية:

ولما كنت أرى أن الأدب المؤثر يكون صدى للحياة العامة، وانعكاسا للحياة الخاصة، وقد كان الأدب فى الدولة الطولونية كذلك، فإني أحس أن الشعراء فى مدحهم لأمراء هذه الدولة كانوا مخلصين أوفياء، أظهروا مالهم من فضل، وماحققوه من رخاء، وما أشاعوه من أمن واستقرار .

---

(١) الثنية - مكان فى دمشق يسمى (ثنية العقاب وكانت به الموقعة بين خمارويه و(ابى السياج) انتصر فيها (خمارويه) .

(٢) الولاة والقضاة ص٢٢٩ .

ولما مات أحمد بن طولون يوم الاثنين لثماني عشرة خلت من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين من الهجرة) (١) ولى الأمر بعده ابنه (خمارويه) فأقبل على عمارة قصر أبيه، وزاد فيه محاسن كثيرة، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع فجعله كله بستاناً، وزرع فيه أنواع الرياحين، وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيه الماء فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء، فينحدر إلى مساقى معمولة) (٢) .

وجعل بين يدى هذا القصر فسقيه ملأها زئبقاً، كما أشار عليه طبيبه بقوله : (تأمر بعمل بركة من زئبق فعملها بطول خمسين ذراعاً فى خمسين ذراعاً، وملأها من الزئبق، فأنفق فى ذلك أموالاً عظيمة، وجعل فى أركان البركة سككاً من فضة، وعمل فرشاً من أدم يحشى بالريح حى ينتفخ فيحكم شده، ويلقى على تلك البركة الزئبق، ويشد الزنانير الحرير التى فى حلق الفضة، وينزل (خمارويه) فينام على هذا الفرش، فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مادم عليه، وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية، وكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب، إذا تآلف نور القمر مع نور الزئبق) (٣).

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص٥٤ .

(٢) المرجع السابق جـ٣ ص٥٤ .

(٣) المرجع السابق جـ٣ ص٥٥ .

ثم بنى (خمارويه) فى القصر أيضاً قبة تضاهى قبة الهواء وسماها (الدكة) وجعل لها الستر الذى يقى الحر والبرد.

ثم زالت كل هذه الآثار واندثرت وتهدمت القطائع والميدان على يد الخليفة (المكتفى بالله) العباسى الذى ولى (محمد بن سليمان) الكاتب على مصر بعد مقتل (شيبان) بن (أحمد بن طولون) يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين من الهجرة، فزالت الدولة الطولونية ، وكانت من غرر الدول) (١) .

على أن كثيراً من الشعراء لم يكونوا أوفياء للدولة الطولونية فكان منهم من صدق فى حب الدولة وقائدها وأخلص لها وتأثر بزوالها ورثاها بشعره، ومنهم من كان كارهاً لها ولقائدها غير محب ولاغيور ولامتأثر بما يحدث لها وهذا الصنف من الشعراء قد ظهر بعد زوال الدولة الطولونية وقائدها منهم (أحمد بن محمد الحبيشى) فقد قال فى الترحيب بالعهد الجديد والنعمة على القديم .

الحمد لله إقراراً بماوهبا قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لاكذب فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها وفرج الظلم والإظلام والكربا
لاريب رب هياج يقتضى دعه وفى القصاص حياة تذهب الريبا

---

(١) المرجع السابق حـ٣ ص١٣٩ .

رمى الإمام به عذراء غـادرة فالتض عذرتها بالسيف واقتضبـا
محمد بن سليمـان أعـزهم نفساً وأكرمهم فى الذاهبين أبا
سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشراً أضحى عرينهموا الخطى لاالقضبا
حم القضاء على الليحموم حين أتوا مثل الدبى ينحون الدبة الدأبا
أبها علوت على الأيـام مرتبـة أبا على ترى من دونها الرتبـا
هارت بهارون من ذكراك بقعتـه وشيب الرعب شيباناً وقد رعبا
فأصبحوا لاتـرى إلا مساكنهـم كأنها من زمان غابر ذهبـا [١]

فالشاعر هنا ظهرت عليه علامات الفرح والسرور بزوال العهد القديم واندثار دولة ابن (طولون) وتولية (محمد الكاتب) واعتبر عصر الدولة الطولونية عصر الظلم والجور والكذب والاحتيال، فحمد الله تعالى أن زال هذا العهد وفتح الدنيا بمجيئ الوالى العباسى الجديد الذى فرج الكرب وأزاح الظلام ، وأبعد الظلم .

ثم يوجه مدحه للخليفة الجديد فهو ابن الأكرمين، وسليل المجد وصاحب العزة، وقد أزال كل معالم الدولة الذاهبة وجعلها أثرا بعد عين.

والبيت الأخير إشارة إلى قصة قوم هود وماحل بهم، فكانوا يسكنون الأحقاف وقد أنعم الله عليهم وأمدهم بأنعام وبنين وجنات وعيون وكانوا يبنون بكل ربع آية يعبثون، ويتخذون مصانع لعلهم

---

(١) الولاة والقضاة ٢٥٠ .

يخلدون فلما جاءهم (هود) وأنذرهم وطلب منهم أن يعبدوا الله الواحد الأحد كفروا وعاندوا فأنزل الله عليهم الريح فأهلكتهم وجعلت القوم بعدها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه فهل ترى لهم من باقية فأصبحوا لايرى من آثارهم إلا مساكنهم، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا والقصة جاءت فى سورة الأحقاف الآيات من ٢١ حتى ٢٨، والفارق كبير بين قوم (هود) وقوم (طولون) فقوم (هود)كفروا بربهم، وأصروا على عبادتهم الأوثان، وطلبوا من نبيهم دليلاً على وجود إله فكان عقابهم من الله الهلاك والدمار لأن ظلمهم واضح .

أما أبناء (طولون) فكانوا مسلمين، وقد عرفنا فيما سبق أن (أحمد بن طولون) كان يحفظ القرآن الكريم، وكان كثير البر والصدقة، وبناء المساجد لعبادة الله وحده. وفوق ذلك لم يقع بهم ماوقع لقوم (هود) ، وإنما هى تقلبات الدنيا وتعاقبها فلا بقاء لأحد، ولادوام لمنصب؛ وإنما هى الأعمار والأقدار .

وهل يجوز للشاعر أن يقارن بين قوم ظاهروا بكفرهم وشركهم وعنادهم - وقوم أظهروا إسلامهم وحبهم لله، ودللوا على ذلك ببناء المساجد ودور العبادة بل أسرفوا في تزيينها وإظهارها فى أجمل صورة كما فعل (خمارويه) بن (أحمد بن طولون) إذ جعل بمسجد أبيه عنبراً تفوح منه رائحة المسك على المصلين . ويواصل الشاعر هجاءه للدولة الطولونية في قصيدة أخرى .

يخاطب فيها القائد العباسى (الحسين بن أحمد الماذرائى) حين أخذ فى هدم الآثار الطولونية وإزالة معالمها - قال الشاعر مرحباً به مهنأ مصر :

هنيئاً لمصر قد فتحت رتاجها وقلدت ماقلدته بتحكم
ومالفتح إلا فتح رأيك لاالذى تجمع يوم الجمع من كل معلم
وكنت وشيبان غداة لقيته كموسى وفرعون غداة المعظم
كفيت الإمام المكتفيماينوبه ولم يك يرجوه بكل مرجم
ومازلت ترمى آل طولون قبلها وقد خالفوا السلطان منك بصيلم(١)

وهنا نرى الفرحة ظاهرة على الشاعر عندما يزف التهنئة والبشرى لمصر بمجئ هذا الفاتح العظيم ، والقائد المغوار، والقوى الشجاع، الذى تصغر أمامه العظام، ويفتح له كل مستغلق، ويهون عليه كل صعب فهذه مصر الحصينة، التى أحكم الطولونيون القبضة عليها تفتح أبوابها لهذا الفاتح العباسى .

ثم يصور لقاء (الماذرائى) القائد العباسى الفاتح -(بشيبان)- القائد الطولونى، بلقاء موسى وفرعون، وقد نسى الشاعر أنه تشبيه ينطوى على المدح والثناء، فموسى نبى مؤيد من الله تعالى جاء بمعجزة أفحمت كل المعجزات ، نصره الله عز وجل على فرعون الذى ادعى الألوهية وجمع السحرة ليعجز موسى فكانت القاصمة التى جعلت فرعون يهدد ويتوعد السحرة لأنهم عجزوا أمام موسى !

---

(١) الأدب العربى فى مصر ص١٢٤ .

ثم يصور الخليفة (المكتفى) بالإمام الذى أحكم القبضة علي الدولة الطولونية وأزال آثارها وطمس معالمها .

وينعى على آل طولون مخالفتهم السلطان ففيها الخزى والدمار. وهو ماينبئ عن قلب مذبذب ، ونفس متقلبة ، ومما يزيد ذلك وضوحاً عودته لمدح آل طولون عندما مدح (ابن الخليجي) الذى أعاد ملكهم وانتصر على جيوش العباسيين فيقول :

غضبت لمصر ومانالها	وشردت بالخوف من غالها
تلافيتها بعد إدبارها	وأقبلت تطلب إقبالها
وكادت تزوه شوقاً إليك	وتظهر بالشوق بلبالها
وماشوقها كان من طبعها	ولكن ربك أوحى لها
لقد فرج الله كرب النفوس	وبلغها فيك آمالها
ولما رأيناك فى مصرنا	منحتنا الإمارة إجلالها
ومازلت تطلبها همة	وتركب بالسيف أهوالها
وتعلم نفسك أن الأمور	إما عليها وإما لها
تمنوا لقاك فلما رأوك	رأوا للمنية إظلالها
ومروا يطيعون فى كل شئ	رأوه المنايا وإنزالها
وكان أبوك خليج العفاة	وبحر الثغور التى عالها
به كان الروم فى أمنها	تفزع للذئب أطفالها[1]

---

(١) الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث ص١٢٠.

ففى هذه القصيدة نراه يمدح الطولونيين ويثنى عليهم مبتهجاً بما حققوه لمصر من نصر على القائد العباسى . ويعد ذلك كرباً أذهبه الله عن مصر وفرجه عنها بهمة ابن (الخليج) القائد البطل الذى انتصر على القائد العباسى .

فمصر تحن لآل طولون وتتشوق للقائهم ، وتريد البقاء فى أحضانهم فهم أمها الرءوم، والمدافعين عنها والمحافظين على سلامتها وآمنها .

فالقائد الطولونى فرج الله به الكرب، وحقق به الآمال، وبلغ به المنال، وهو وإن كان قد كافح فى سبيل عودة بلاده، وجاهد بالسيف فهكذا الدنيا متقلبة إما لك وإما عليك، وفرحنا بوجودك على الإمارة شديد فكم كنا نتمناه، وأبوك خليج العفاة وبحر الثغور التى عالها، فقد ورثت الشجاعة والقوة .

وبذلك نكون قد عرفنا مدى تذبذب الشاعر وتقلبه ، فمرة ينقم على العهد القديم، ويظهر البهجة والسرور بمقدم الفاتح الجديد، ثم ينقلب فيمدح القائد الطولونى لانتصاره على القائد العباسى وهزيمته وإعادة الأمن والأمان لمصر . !!

وهجا بعض الشعراء (أحمد بن طولون) وعابوا عليه المنشآت التى أقامها ، منهم الشاعر (محمد بن داؤد بن الجراح) أبو عبد الله، أديب من علماء الكتاب، من أهل بغداد ، وهو عم (على بن عيسى) الوزير. كان صديقاً لعبد الله بن المعتز ووزر له يوم خلافته، فلما

قامت الفتنة اختفى ثم ظهر، فأشار (أبو الحسن بن الفرات) بقتله ببغداد سنة ست وتسعين ومائتين عن أربع وخمسين سنة إذ كان مولده عام ثلاث وأربعين ومائتين من الهجرة، له كتب منها «الورقة - ط» في أخبار الشعراء»، والشعر والشعراء»، وكتاب الوزراء وكتاب من سمى عمرا من الشعراء في الجاهلية والإسلام - خ - حققه وهيأة للطبع المستشرق (كرنكو)[١] .

هذا الشاعر هجا (أحمد بن طولون) عندم بنى حصن الجزيرة[٢] واستعد بإنشاء المراكب الحربية دفاعاً عن مصر من وثبة (موسى بن بغا) فقال :

١-لما ثوى ابن بغا بالرقتين ساقية زرقا إلى الكعبين والعقب
٢-بنى الجزيرة حصناً يستجن به بالعسف والضرب والصناع في تعب
٣- وراقب الجيزة القصوى لخندقها وكاد يصعق عن خوف ومن رعب
٤-له مراكب فوق النيل راكدة فما سوى القار للنظار والخشب
٥-يرى عليها لباس الذل قد بنيت بالشطر ممنوعة من عزة الطلب
٦- فما بناها لغزو الروم محتسبا لكن بناها غداة الروع للهرب[٣]

---

(١) الأعلام حـ٨ ص١٢٠، فوات الوفيات حـ٢ ص٢٠٢، و - الفهرست حـ١ ص١٢٨، وتاريخ بغداد سنة ٤٤٥ و - الوافي بالوفيات حـ٣ ص٦١ .

(٢) حصن الجزيرة - هو حصن جزيرة الروضة الذى كان علي أيام الرومان ثم تخرب فأعاده (أحمد بن طولون) وأنفق على بقائه ثمانين ألف دينار) النجوم الزاهرة حـ٣ ص١٢ .

(٣) الولاه والقضاة ص١٦ وفيه كثير من هذا الهجاء .

وهنا يتهم الشاعر قائد الدولة الطولونية بأنه بنى حصن الجزيرة ليتحصن به ويختبئ فيه، كما أقام المراكب استعداداً للهرب لا للدفاع عن مصر، كما يشير إلى الجهد الذى بذل فى بناء الحصن والمراكب، وأن القائد أجبر الصناع، وأتعبهم فى البناء وهم غير راضين ساخطين عليه وعلى أعماله .

ولا أظن الأمر كذلك فما الهرب على قائد يملك زمام الأمور فى دولته، بل تدين له بالطاعة - ببعيد، ولا يحتاج لاستعداد ولا بناء مراكب، أو التحصن بحصن، ليس هدمه أو النيل منه بمستعص على دولة تملك جيشاً جراراً ، وعدة حققت بها انتصارات كثيرة وقد أكثر هذا الشاعر من هجاء بن طولون فلم يأت الأمير عملاً إلا هجاه هذا الشاعر ، حتى إذا أقام الأمير المنشآت النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشآت وسيلة لهجاء الأمير دون خوف، فمثلاً بنى الأمير (المارستان) سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر بقوله :

ألا أيها الأغفال إيها تأملوا وهل يوقظ الأذهان غير التأمل

ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة تسير من سفل إليكم ومن عل

ولولا جنايات الذنوب لما علت عليكم يد العلج السخيف المجهل

فياليت مارستانه نيط باسته وما فيه من علج عغل مقلل

فكم ضجة للناس من خلف ستره تضج إلى قلب عن الله مغفل[1]

---

(١) الولاه والقضاة ص١٦٠ - أدبنا العربى فى عصر الولاة صـ٢٠٠ .

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى مات فلم يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء، من ذلك قوله :

مضى غير مفقود وما كان عمره سوى نقمة للخلق شنهاء صيلم
لقد زيد فى اليحموم بالرجس لعنة ولم يسق بالمرجوس ترب المقطم
ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت سروراً ولولا موته لم تبسم
يبشره إبليس عند قدومه عليه بأحمى بقعة فى جهنم
لقد طهرت الأرض من سوء فعله ومن وجهه ذاك الكريه المورم
فلا سقيت أجداثه صوب مزنة وأنى وفيها شر أولاد آدم(١)

فالشاعر هنا لم يتورع أمام حرمة الموت عن هجاء الأمير، فلم يكفه أن يظهر فرحه لموته بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها مماتقشعر منه النفس، ويأباه الضمير .

وقال فيه أيضاً :

ياراكباً تخدى بـه حـرة لحوبه عنها النجب الحدنا
عرج على اليحموم فأنزل به فأسلح على قبر ابن طولونا
وقل لـه ياشر مستودع أخفى الدمع القلب ملعونا
ياحفرت النار التي أضمرت وظل فيها الرجس مدفوناً
لاتجعلى لبسه جثمانه إلا الأفاعى والثعابينا
فعز إبليس بها أولا وعز من بعد الشياطينا

---

(١) السابق ص٢٣٢ .

وقل لهم قد كان يكفيكـــم ويهنك المعـــروف والدينـــا
ثم مضى غيــر فقيـــد ولا كـــان حميـــداً عمـــره فينا[١]

ومنهم من مدحه وانتصر له وأشاد بأعماله على رأسهم (قعدان (بن عمرو) فقد مدحه عندما حارب (الموفق) وعزله من ولاية العهد لنقضه بيعة أخيه (المعتمد) وانتصر عليه (أحمد بن طولون) فقال (قعدان) يمدحه :

طال الهدى بابن طولون الأمير كما يزهو به الدين عن دين وإسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدمها منه على الهول ليث غير محجام
فى جحفل للمنايا فى مقانبـــه مكامن بين رايات وأعـــلام[٢]
يسمو به من بنى سام غطارفة بيض وسود أسود من بن حـــام
لو أن روح بنى كنداج معلقـــة بالمشترى لم يفته أو ببهـــرام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنـــا بصارم من سيوف الله صمصام
ياأيها الناس هبوا ناصرين لـه مع الأمير بدهم الخيل فى الـــلام
ليست صلاة مصليكم بجائـــزة ولاالصيـــام بمقبـــول لصيـــام
حتى يرى السيد المأمون ذبكم على الإمام بأطراف القنا الدامى[٣]

---

(١) الولاة والقضاة ص١٨٢ .

(٢) المقانب : جماعات الخيل والفرسان.

(٣) الولاة والقضاة ص٢٤٨ .

وهنا يوسع الشاعر دائرة مدحه للخليفة، فهو رجل متدين، متمسك بإسلامه، غيور عليه، وهو سياسي ماهر، وقائد محنك فقد قاد الجيوش المنتصرة، المتقدمة التى لم تحجم يوماً أمام عدو ، أو تقاعست أمام غادر، وإنما هم ليوث فى الحرب ، لايخافون عدواً ولا يرهبون عدداً ولاعدة، فهم أحفاد أبطال، تاريخهم عريق ، ولن يفلت عدوهم مهما كان بعيداً أو قريباً حتى لو تعلق بالكواكب والنجوم، فقائدنا همام شجاع، أحاط الخلافة بسياج متين، ومدد من الله معين .

ثم يدعو الناس للالتفاف حول قائدهم، ونصره على عدوه، فالقتال واجب على الجميع، ولا تنفع صلاة ولاصيام مع خذلان وتقاعس ، فالجهاد باب من أبواب الجنة من تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل والعار كما جاء فى خطبة الإمام على كرم الله وجهه عندما أغار سفيان الغامدى على الأنبار وقتل حسان البكرى واليها من قبل على[١] . ويرى الشاعر فى ابن طولون قوة للإسلام، وحسن قيادة للجيوش، ولو كان عدوه بأقصى مكان ، أوبالمشترى نفسه لنالته ضربته[٢] .

وقال (منصف بن خليفة الهذلى) يمدح (أحمد بن طولون) حين انتصاره على الموفق :

---

(١) انظر البيان والتبين جـ٢ ص٢٥ .

(٢) الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث ص١١٠.

ياغرة الدنيا الذى أفعالـه غرر بهـا كـل الـورى يتعلـق
أنت الأمير على الشأم وثغرها والرقتيـن وماحـواه المشـرق
وإليك مصر وبرقة وحجازها كـل إليـك فـؤاده متشـوق
هتك الخلافة صاعد وخليلـه اسحاق لعهاً والحسود الأخـرق
أسيافنا بيض المنون فليتهـا بنجيـع من خذل الإمام تخلـق
تمسى وتصبح ضارباً من دونه بمهنـد منـه الحتـوف تفـرق
يتلوك سعـد والمقـدم تيـتك واللازقى وذو الحفيظة يلحق(١)

فقد جعل الشاعر قائد دولته غرة الدنيا الذى يتعلق به كل الخلق فيحتفون به ويلتفون حوله، ويفخرون بمأثره، وينعمون بجواره ويسعدون بدولته، فالكل متشوق إليه، راغب فى جواره ويصف عدوه الذى وقف فى وجهه وشهر السيف عليه بأنه حسود أخرق، ولن ينال منه شيئاً فالسيوف مشهرة، وهى بيضاء نظيفة لم تدخل معارك من قبل، ولم تلوثها الدماء، وهى مستعدة للنيل ممن يخذلون إمامنا، ويحاربون قائدنا، وسوف نفرق بها بين المحب والكاره، وكل من وراء قائد هذه الدولة أسود أبطال خاضوا المعارك منتصرين، وأخمدوا نيران الحرب مطمئنين، وناموا ملء جفونهم واثقين .

كما مدحه الشاعر (الحسين بن عبد السلام) المشهور بالجمل الأكبر وورد فى كتاب (عنبر الشجر) فى حلى المشهورين بالشعر أن

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٤٩ .

اسمه الحسين بن عبد السلام وأنه من شعراء الفسطاط فى الدولة الطولونية توفى سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة[١] مدح أحمد ابن طولون بقصيدة قال فيها :

له يدكم خلدت من يد سحابة عمت بأنوائها
وهو لدى الهيجاء ليث إذا ماثقلت قام بأعبائها
انظر إلى مصر بسلطانه ترى الهدى فاض بأرجائها[٢]

ونرى مدى إعجاب الشاعر بابن طولون وأعماله وأنها سحابة عمت العالم كله وفاضت عليهم بخيراتها ، وهو فى الشدائد ليث لاتضعفه الأحمال مهما كانت ثقيلة، وأثره واضح وآثاره فى مصر جلية .

ومن الشعراء الأوفياء للدولة الطولونية الشاعر: (القاسم بن يحيى ابن معاوية المريمى) أنه كان مختصاً (بخمارويه) فقد أكثر من مدحه والإشادة به. وتمجيد أيامه، وتسجيل انتصاراته فى حروبه مع أبى العباس بن الموفق، وله أشعار كثيرة تسجل انتصارات (خمارويه) فى حروبه مع الدولة العباسية ، وهو من الشعراء الموهوبين تلوح عليه دلائل القوة والطبع، وقد أثنى عليه القرطبى وقال عنه (إنه من شعراء مصر المشهورين الذين دونت أشعارهم ، وكان محباً لخمارويه معجباً به ، متعلقاً به ، ولذلك انقطع لمدحه)[٣]

---

(١) المغرب فى حلى أهل المغرب .

(٢) الأدب العربى فى مصر ص١٢٩ .

(٣) الولاة والقضاة ص١٨٥ ، شعراء مصر ص٨٦ .

ولما خرج خمارويه لحرب (إسحاق بن كنداج) سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن (كنداج) وتبعه (خمارويه) حتى بلغ (سر من رأى) فمدحه (القاسم ابن يحيى المريمى) وأشاد بانتصاراته بعدة قصائد منها قوله :

أتانا أبو الجيش الأمير بيمنه ... فشرد عنا الجور وانتقر العسر
فإن يك أرض الرقتين به اكتست ... ضياء وإشراقاً لقد أظلمت مصر
فسائل به إسحق إذ سار نحوه ... بجيش كعرض النيل يقدمه النصر[1]

وبلغ (خمارويه) سير (محمد بن ديوداد) المعروف بابن أبى الساج فخرج إليه (خمارويه) من مصر فى ذى القعدة سنة أربع وسبعين ومائتين فلقيه بمكان يسمى (ثنية العقاب) من أرض دمشق فانهزم أصحاب خمارويه وثبت خمارويه وحاربهم فكشفهم وهزمهم أقبح هزيمة وفى ذلك يقول القاسم مشيداً بخمارويه وشجاعته وثباته :

فتوح الأمير نجوم تلوح ... فليست تقاس إليها فتوح
تسير لها فى جميع البلاد ... ركائب تغدوا بها وتروح
إذا حاد عن أمره حائد ... أتاح له الحتف منه تهيج
نصحنا لشر بنى ديوداد ... بتحذيره لو أطيع النصيح
ولم يكن الغدر مستقبحاً ... وفى الغدر شين وعار قبيح

---

(١) السابق ص١٨٥ .

(٢) الولاة والقضاة ص١٨٥ .

فالشاعر هنا يجعل فتوح (خمارويه) هى النجوم المضيئة لاتقاس بجانبها فتوح، ويستهين بخصمه وأنه كان يجب عليه ألا يخرج لمحاربة هذا القائد الذى عمت شهرته وذاعت انتصاراته على أعدائه وكم نصحناه العودة سالماً ولكنه رفض النصح فكانت الهزيمة المرة .

وأشاد البحترى بهذه الموقعة فقال :

وقد رأيت جيوش النصر منزلة على جيوش أبى الجيش بن طولونا
يوم الثنية إذ تثنى بكرته فى النقع خمسين ألفاً أو يزيدونا
مظفر لم يزل يلقى بطلعته كواكب السعد والطير الميامينا
يمشى قريباً من الأعداء لو وقفوا بالصين من بعدها ما استبعد الصينا [١]

وللبحترى قصيدة أخرى عدتها ثمانية عشر بيتاً يردد فيها انتصاراته وفيها يقول :

لقد كان فى يوم «الثنية» منظر ومستمع ينبى عن البطشة الكبرى
وعطف أبى الجيش الجواد يكره مدافعة عن (دير مران) أو (مقرى)
فكائن له من ضربة بعد طعنة وقتلى إلى جنب (الثنية) أو أسرى [٢]

---

(١) الولاة والقضاة ص١٨٥ .

(٢) ديوان البحترى حـ١ ص٥٨ .

شاعر الدولة الطولونية:

(سعيد القاص) هو شاعر مصرى أخلص وده للدولة الطولونية، واعتز بعهد الاستقلال الذى ظفرت به مصر فى ظلها، وقد أطال البكاء عليها، وسجل تاريخها فى قصيدة طويلة، ضمنها ماحققته الدولة الطولونية للشعب من إصلاحات وأعمال، وتتبع فيها تاريخ الأمراء الطولونيين، وذكر تصرف الدهر بهم، وماكان لهم من عز وسلطان .

وشاعر الدولة الطولونية (سعيد القاص) من خلال مواقفه التى ظهرت فى قصيدته يدل على وفاء وطنى، وثبات على المبدأ، فقد ظل وفياً للدولة التى شهد عزها، واستمتع برخائها، وعاش آمناً فى كنفها، فمدح رجالها، وأظهر محاسن قادتها، ووفاء أهلها ، ومحبة شعبها لقائدها، وظل على ذلك ولم يتغير بعد تغيير أحوالها، ولم يصانع أعداءها - كما فعل بعض الشعراء - بعد القضاء عليها، وحاول الدفاع عنها، وتخليد أمجادها على كره من الدولة العباسية التى حاولت جاهدة أن تقضى على كل أثر يدل عليها بالمحو والإزالة فهب (سعيد القاص) فى وجه ذلك الطغيان الحاقد يخلد بشعره ماأرادوا محوه وإزالته من ذكراة الناس والتاريخ.[1]

---

(١) أخباره وأشعاره فى الولاة والقضاة ص٢٥٣ وشعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ص٨٠ والقصيدة مسجلة بكتاب أدبنا العربى فى عصر الولاة ص٩٩٤ وكتاب (أصداء سقوط الدولة الطولونية) .

وجاءت قصيدة (سعيد القاصى) فى ثلاثة وأربعين بيتاً واشتملت على أربعة مقاطع، احتوى المقطع الأول منها على الأبيات التسعة الأولى وفيها يصور الشاعر ماحدث لدولة (أحمد بن طولون)، بعد هذه الحياة المليئة بالترف والبذخ، وكل مظاهر الرفعة والأبهة، حتى هاله ذلك كله وأفزعه، وخيل إليه أن ماجرى لها من إزالة ودمار ليس حقيقة وإنما هو تمويه وخداع، وهو مايشير إلي شدة وقع الأثر عليه فيحاول ألا يصدق مايحدث، فهو فوق الطاقة، لاتكاد تراه عين ولايؤمن به قلب، فإن ماكانت عليه دولة ابن طولون يجعل المرء لايصدق أنها ستزول يوماً ما من الأيام !

فبات الشاعر وقد أغشى عليه، فلم يدر أحى هو أم ميت، فقد أصابه الذهول حتى فقد ضميره، وضاقت عليه الدينا بما رحبت وظن أن لاملجأ منها إلا إلى الله كالأسير الذى يئن مما أصابه، ووقع عليه من شدة القبض والإحكام عليه .

ثم يستفهم الشاعر فى تعجب واستنكار، قائلاً، وهل يستطيع الصبر من أصابته كل هذه الجراح ، وآلمته أشد الكلوم حتى أصبح على جمر وأسى، فحياته كلها ألم وعذاب ألجمت تفكيره، وقيدت حركته، وعذبت روحه، فهو يقاسى آلاماً مريرة لاخلاص منها والأحداث تتتابع وتحيط به من كل جانب، والأيام تغدر به فالكوارث قد تراكمت ، والمصائب ألمت ، والأحزان ملأت القلوب والدموع لاترقأ، فالخطب جلل، والهول مفزع .

ويعلن - وكأنه يعزى نفسه - أن ماأصابهم كان على رغم منهم فلاحيلة لهم فيه، فقد لصقت أنوفهم بالتراب، وأصاب الذل والمهانة كل الناس على حد سواء، فلم تفرق الكوارث والأحداث بين صالح وطالح، ولابين صاحب دين وراغب دنيا، ولابين عزيز وذليل فقد أصيب الجميع بقاصمة الدهر .

فالدولة التى كان يعيش بها هؤلاء الناس كانت زينة الدنيا وبهجتها، ومصدر سرورها وبهائها، ومصابيح أهلها ونورهم وعززهم وفخارهم، أسعدتهم بما أضفته عليهم من الأمن والاستقرار والنعيم والسرور والترف والبذخ، كل ذلك قد ضاع وغاب كما تغيب النجوم اللوامع، وضاع أهلها وضاعت معهم دولتهم وأصبحت أثراً بعد عين، وحديث الناس بعد أن كانوا ينعمون فيها ويسعدون بها ، كل ذلك ذهب واندثر، وأصبح أثراً يذكر وحديثاً يطرى وإن كان لايخفى على كل ذى لب ماكانت عليه هذه الدولة وأهلها، ثم أخذ يعدد أوصاف حاكم هذه الدولة ، فقد كان ، ماجداً ، جميل المحيا، لايغدر ولايفجر، ولايصيب أحدا بمكروه، فضلاً عن إخوانه وأعوانه وماأجمل لياليه وأيامه، فلياليه كلها لجمالها وبهائها وحسنها وإشراقها كانت كليلة القدر، يصيب الناس فيها الخير العميم والثواب الجزيل والسرور .

ثم يقيم الدليل على ذلك كله ، فأثاره واضحه جلية، وأعماله ظاهرة للعيان ولاتخفى على كل ذى بصر، كل ذلك يشهد له بعلو الهمة وكرم المحتد .

يقول الشاعر :

جرى دمعه مابين سحر إلى نحر ... ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر
وبات وقيذاً للذى خامر الحشى ... يئن كما أن الأسير من الأسر
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسى ... يبيت على جمر ويضحى على جمر
تتابع أحداث تحيفن صبره ... وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
أصاب على رغم الأنوف وجدعها ... ذوى الدين والدنيا بقاصمة الدهر
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها ... بفقد بنى طولون والأنجم الزهر
فبادوا وأضحوا بعد عز ومنعة ... أحاديث لاتخفى على كل ذى حجر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا ... جميل المحيا لايبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها ... وإشراقها فى عصره ليلة القدر

أما المقطع الثانى فقد احتوى سبعة أبيات فيها يستدل الشاعر على إتصاف مؤسس هذه الدولة بكل الصفات الحميدة، والأوصاف النبيلة، فهذا هو الشاهد العدل الذى لايكذب ولاينكر، والجلى الواضح - مدينة القطائع التى أنشأها على جبل يشكر فقد أهلت فى أيامه بالعدد الكثير والمبانى الفخمة .

ومما أنشأه (أحمد بن طولون) مسجده الجامع - آية فى الفخار والبهاء، وماتزال أثاره باقية إلى يومنا هذا، وقد أنفق عليه مائة وعشرين ألف دينار وجعل ابنه فى بنائه عنبراً لتفوح رائحته على المصلين[1] .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص١٣ .

وقد علق فيه القناديل المحكة بسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال، وفى وسط صحنه قبة مشبكة من جميع نواحيها وهى مذهبة على عشرة عمد رخام، وقد جعل تحت القبة قطعة رخام سعتها أربعة أذرع ، وفى وسطها فوارة تفور بالماء[١] .

كل هذا شاهد صدق على كرم مؤسس هذه الدولة وسخائه وجوده لايبخل ولا يضن على مايرفع دولته، ويزيدها بهاء وجمالاً، وينفع الناس، وليس بالمسرف المذموم، وإنما كانت أعماله وسطاً، وفعاله حسنه يجرى فيها بتعقل وروية .

وقد استعمل فى بناء مسجده الأجر والآس والعرعر والمرمر والجص والصخر، وهو مايشير إلى روعة البناء وجماله ، ودقة عمارته والاهتمام به، وعدم البخل فلم يضن عليه ابن طولون بما يظهر جماله، ويوضح زهوه، ويجعله آية فى فن العمارة والبناء، وهذا كله مما يجعله يعمر طويلاً، ويستمر آجالاً طويلة .

وهو على سعته مايجعل الناظر لايحيط به بطرفه ، وهواؤه عليل، ورائحته زكية .

يقول الشاعر مصوراً ذلك كله :

يدل على فضل ابن طولون همة　　محلقة بين السماكين والنفر

فإن كنت تبغى شاهداً ذا عدالة　　يخبر عنه بالجلى من الأمر

---

(١) خطط المقريزى حـ٢ ص٢٦٨ .

فبالجبل الغربى خطة يشكر له مسجد يغنى عن المنطق الهذر
يدل ذوى الألباب أن بناءه . وبانية لابالضنين ولاالغمر
بناه بأجر وآس وعرعر وبالمرمر المسنون والجص والصخر
بعيد مدى الأقطار سام بناؤه وثيق المبانى من عقود ومن جدر
فسيح الرحاب يحسر الطرف دونه رقيق النسيم طيب العرف والنشر

وفى المقطع الثالث الذى ضم ثمانية أبيات .

ينتقل بنا الشاعر إلى عمل آخر من أعمال (أحمد بن طولون) وأثر بارز من آثاره يدلل عليه ، ويشير إليه، وهو مسجده الجامع الذى بناه على هذا الجبل المرتفع الوعر، ومع هذا كان آية فى الفخار والبهاء والعظمة والبناء ، حتى أصبح هداية السائرين، وهادى المضليين، ومنارة فى كل شئ .

والضياء المنبعث من هذا المسجد وقناديله كأنها النجم اليمانى (سهيل) الذى بظهوره تتبدل الأحكام، وينقضى الغيظ ، وتنضج الفاكهة فهو مصدر الخير، ودليل الرخاء، وعلامة السعادة وأماراتها ، ويضاف إلى هذا الخير خير آخر أعم، فهو للناس أجمعين، وهو عين ماء يشرب منها جميع الإنس والطير والحيوان، تروى كل ظمآن ماؤها عذب ، تصلح للرواء وللتطهير، ماؤها نقى غير راكد ولامالح. ويزيدها بهجة وإشراقاً، أنها تتصل بالنيل ، وروافده مددها فى الذهاب والعودة، والمد والجزر، معينها أصيل ، وأرضها طيبة تسقى الناس جميعاً، وكل الأحياء وأرض المعافر، وكل القبائل التى حرمت

الماء المعين وماء السماء، ولا تتغذى بماء النيل ولا جداول تمدها ، فخيرها عميم، ونفعها أكيد .

يقول :

وتنور فرعون الذى فوق قلة   على شاهق عال على جبل وعر
بنى مسجداً فيها يفوق بناؤه   ويهدى به فى الليل إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياءه   سهيلاً إذا مالاح فى الليل للسفر
وعين معين الشرب غير ركية   وغير أجاج للرواة وللطهر
كأن رقود النيل فى جنباتها   تروح وتغدو بين مد إلى جزر
فأراقأها مستنبطاً لمعينها   من الأرض من بطن عميق إلى ظهر
تمر على أرض المعافر كلها   وشعبان والأحمور والحى من بشر
قبائل لاتوء السحاب يمدها   ولاالنيل يرويها ولاجدول يجرى

ثم ينتقل بنا الشاعر فيذكرنا بأثر آخر من آثار الدولة الطولونية، وهو المستشفى الذى بناه (أحمد بن طولون) ، وأنفق عليه الكثير ، فاتسعت خدماته، وعمت خيراته، وشملت مساعداته الغنى والفقير، المتعبون يجدون فيها راحتهم، والمرضى يأتون إليها فيجدون العناية والرعاية، وتمتد خدماتها فتشمل الموتى فيجدون فيها أكفانهم وتجهيزاتهم .

يقول :

ولاتنسى ماراستانه واتساعه وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاتــه ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقــر
فللميت المقبور حسن جهــازه وللحى رفق فى علاج وفى جبــر

وهذا الذى بنى عليه حصن الجزيرة، وكان فى بهائه وروعته ودقة عمارته مالايستطيعه بدوى ولاحضرى إلا هاله وأعجبه

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملاً إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
ترى أثراً لم يبق من يستطيعــه مــن الناس في بدو البلاد ولاحضر

فالحصن فى نظر الشاعر مظهر الجمال والروعة والإبداع، ودليل جلال الدولة الطولونية وعزها، وهو الأثر الباقى الدائم الذى يبهر بجماله وروعته كل من رآه ولافرق فى ذلك بين عربى وبدوى !

ثم يأخذ الشاعر فى إسكاب الدمع مدراراً، على هذه الآثار الطولونية الزائلة، فيبكى ويبكى ويتحسر ويحسر ويتألم ويؤلم كل من استمتع بهذه الآثار، وشاهدها ، وشارك أهلها الفرح والسرور، ثم يعلن فى ثقة واطمئنان بأن هذه الآثار لن تبلى ولن تزول وإن زال أهلها ومات أربابها، فسوف يتوارثها الأجيال ، ويتناقلها الأحفاد والأسباط، يفخرون بها ويزهون فالقبر على ضيقه يضم أجساماً طاهرة، ورجالاً بواسل ، ملؤا الدنيا مجداً وفخاراً .

وهذا أبو الجيش ابن أحمد بن طولون قام بعد أبيه مواصلاً كفاحه ومجدداً نشاطه، أضاف إلى ماعمره أبوه عمارة أخرى وزاد فيما بناه وجمله وحسنه فكانت مدة حكمه متصلة بمجد أبيه ، ولكن غدر الليالى وسطوها لاآمان له، فالأيام متقلبة والدهر غير مستقر، ينشب نابه بلا هواده .

ولكن أيامه كانت أيام مجد وسؤدد ورثه ابنه فكان قوياً شديداً أسدا بعد أسد .

وحدثت حروب كثيرة عبرت مجرى التاريخ ، جعلتهم يتذكرون مجد الآباء والأجداد، ولقد أصاب القوم الهلع والفزع لما أحدثته الدولة العباسية من تدمير وإزالة، فالناس جميعاً يبكون ويحزنون لفقد هذه الآثار الطيبة التى نعموا بها كثيراً وخاصة أهل مصر، فقد كانت هى البلد الطيب المثمر الذى ظهرت أمجاده وآثاره، فقد كان عصر الدولة الطولونية أزهى العصور ، وأيامها من أجل الأيام عمها الخير والسرور وشملها الفرح وغمرتها البهجة .

لذا كان الأثر لزوال معالم هذه الدولة قوياً والألم بالغاً يقول الشاعر :

مآثر لاتبلى وإن باد ربها ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخر
لقد ضمن القبر المقدر ذرعه أجل إذا ماقبس من تحتى حجر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته كما قام ليث الغاب فى الأسل السمر
كذاك الليالى من أعارته بهجة فيالك من ناب حديد ومن ظفر

وورث هارون ابنه تـاج ماجد كذاك أبو الأشبال ذو الناب والظفر
وقد كان جيش قبله فى محلـه ولكن جيشاً كان مستنقص العمـر
فقام بأمر الملك هــارون مدة على نكد من ضيق باع ومــن حصر
ومازال حتى زال والدهر كاشح عقاربه مــن كـل ناحيـة تسرى
يذكرهم لما مضوا فتتابعــــوا كما أرفض سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئاً ضاع بعد أهلــه لفقدهم فليبك حزنـاً علـى مصـر
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم فبورك من دهر وبورك من عصـر[1]

وأثار الحزن بادية في ألفاظ الشاعر وعباراته فاستخدامه للكلمات (دمعه - يد الصبر - يئن - الأسير - أسى - جمر - العبد - غدر - طوى زينة الدنيا - فبادوا وأضحوا) كل ذلك مما يثير الحزن والأسى، ويجرى الدمع مدراراً على زوال هذه الآثار .

وقد حاول بعض الكتاب إظهار الشاعر (سعيد القاص) فى صورة المتذبذب إذ عثر له على قصيدة يمدح فيها (بدر الحمامى) أحد قواد (عيسى النوشرى) وقد تغلب على ابن الخليج وفيها يقول :

حالت معارفهم إلى إنكار وغدا الخميس لهم بيوم بوار

نقول إنها أبيات قليلة جداً لاتقاس بقصيدتين أشاد فيهما بالدولة الطولونية ، فهى تكاد - إن صح ذلك - تكون زلة تغفرها قصائده الطويلة فى مدح آل طولون .

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٥٣ والعقيدة بكتاب الأدب العربي فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى ص١١٥ ومابعدها .

رثـاء الميـدان:

١ - للشاعر :أحمد بن إسماعيل الحكر فى رثاء ميدان أحمد بن طولون قصيدة عدتها تسعة أبيات .

وأحمد بن إسماعيل الحكر من أشهر شعراء الدولة الطولونية ، مصرى المولد، تربى وترعرع فى أحضان نيلها ، شرب من مائه، وتغذى على نباته ، فكان وفياً لقائد الدولة الطولونية وأربابها حافظاً لها مجدها مشيداً بعزها ، فخورا بآثارها وملوكها .

له من المواقف ماينبئ بعقل واع، ونبوغ فكرى، ووطنية حارة وغيرة شديدة على الدولة وآثارها .

وقف من اندثار الدولة الطولونية وذهابها موقفاً كله وفاء وإخلاص فبكاها بشعر صادق العاطفة،حار المشاعر،نبيل الإحساس، فجند نفسه للدفاع عن أمجاد الدولة الطولونية ، والزود عن عزها ، وسجل مفاخرها وأعمالها .

وقد ظهر ألمه وحزنه بشدة عندما هدم الميدان الطولونى الذى شيده قادة الدولة الطولونية بما لهم، وزخرفوة وزينوه، وأقاموا به النافورات والأنوار الباهرة، وكذلك القصور الفخمة التى شيدها الطولونيون، وما أصابها من خراب ودمار وتخريب أفقدها نضرتها وبهاءها ، بعد أن كانت عامرة بالحياة الناعمة المليئة بالقيان والألحان، نرى ذلك واضحاً فى قصيدته التى يرثى فيها الميدان .

فيقول :

وإذا ماأردت أعجوبة الدهر تراهـا فانظـر إلى الميـدان
تنظر البث والهمـوم وأتـوا عا توالت به مـن الأشجـان
يعلم العالم المعصر أن الدهـ ـر فيما نـراه ذو ألـوان
أين مافيه من نعيم ومن عيـ ـش رخى ونضـرة وحسـان ؟
أين ذاك المسك الـذى ذيـ ـف بالعنبر بحثا وعل بالزعفران ؟
أين ذاك الخز المضاعف والوشـ ـى وماستجلبوا من الكتـان ؟
أين تلك القيان تشدوا علـى الفرش بما استحسنوا من الألحان ؟
دور الدهر آل طولون فى هـوة قفـر مسكونهـا غيـر دان
وأعاض الميدان من بعد أهلـيه ذئاباً تعوى بتلـك المغانـى(١)

فالشاعر معجب بالميدان ، مسرورا فخور به حتى أنه اعتبره من عجائب الدنيا ، فهو آية فى الفخار والبناء ، يعجب الناظرين ويبهرهم بجماله وروعته .

وهذا الأثر البارز، والمعلم الواضح، الذى بناه (أحمد بن طولون) وأنفق عليه الكثير ، يصبح أثراً بعد عين، تراه فتتوالى الهموم والأحزان على ما أصابه فبعد أن كان يمتلئ بالقيان تشدو أعذب الألحان أصبح يبث الهموم والأشجان والأحزان .

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٦٥ .

ثم يحـاول أن يهـدئ من روع الناس، فـالكل يتـألم لذهابه، ويتحسر لزواله، ولكنه الدهر الذى لاقرار له ولاثبات ، فالدهر متقلب ذو ألوان .

ويستفهم فى ألم وحسرة عن النعيم الذى ملأ هذا الميدان ورخاء العيش والوجوه النضرة، والقيان الحسان، كل ذلك قد زال وضاع وحرمت العيون من الرؤية الجميلة والمنظر الحسن والعيش النضر .

وهذا المسك الذى تفوح رائحته، وينتشر شذاه، فيملأ الأنوف طيباً وجمالاً وسروراً وإعجاباً ، وفوق ذلك قد ذيف بالعنبر وعل بالزعفران .

وقد اكتسى الميدان بالخز والوشى وماجلبوه من الكتان وبذلك يكون كالعروس المجلوة فى ليلة زفافها جمالاً وبهاء ونضارة . والقيان الحسان تشدو بأحسن الألحان وأجودها.

وبعد أن صور لنا هذا الميدان وأظهر لنا روعته وجماله يذكر تحوله إلى خراب وآثاره إلى دمار وتبدل حاله من شدو القيان إلى عواء الذئاب، ومن العروس المجلوة إلى الجيفة المقبورة، وهكذا تدور الأيام وتتبدل الأحوال ويصبح الميدان أثراً بالياً، ومكاناً قفراً لا أنيس ولا جليس .

٢ - أما الشاعر أحمد بن إسحاق بن بهلول بن حسان بن سفيان أبو جعفر التنوخى، من المخلصين لدولتهم الأوفياء لقادتها أنبارى الأصل ، ولى القضاء بمدينة المنصور عشرين سنة ، مولده سنة

إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة، ومات لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثماني عشرة وثلاثمائة من الهجرة عن ثمان وثمانين سنة، كان عظيم القدر، تام المروءة، حسن الفصاحة، حسن المعرفة بمذهب أهل العراق ولكن غلب عليه الأدب .

ولم يزل على قضاء المدينة عشرين سنة من سنة ست وتسعين ومائتين حتى سنة ست عشرة وثلاثمائة من الهجرة وكان بيناً في الحديث ، ثقة مأموناً جيد الضبط لما حدث به مفتياً في علوم شتى .

وكان تام الحفظ للشعر القديم والمحدث والأخبار ، وكان شاعراً كثير الشعر جداً، خطيباً حسن الخطابة والتفوه بالكلام لسنا صالح الخط في الترسل والمكاتبة والبلاغة في المخاطبة) [1] .

فقد صور لنا الميدان بأنه عروس فقدت زوجها صباح عرسها ، فتتبدل حالها وأصبحت محلاً للرياح تأخذ منها ماتشاء بعد أن كانت صوناً للنفس وحصناً للأرواح ، ومنظراً تستريح إليه العيون .

فقد كان الميدان ناعم الملمس طيب الرائحة ، يمشي في حلل من الديباج الكل يجول فيه كالغزلان ، فتبدل كل هذا، فبعد أن سعد منه الأهل والأحباب ، واستمتعوا بما له من مآثر ومافيه من جمال أصبح أثراً بعد عين .

---

(١) معجم الأدباء - م١ ص١٣٨ ومابعدها. وترجمته في بغية الوعاة ص١٢٨ نزهة الأدب ص٣١٨، شذرات الذهب حـ٢ ص٢٧٦ الأعلام حـ١ ص٩٥ .

يقول الشاعر :

وكأن الميدان ثكلى أصيبت بحبيب صباح ليلة عرس
تتغشى الرياح منه محلاً كان للصون فى ستور الدمقس
ويفرش الإضريح والبسط الد يباج فى نعمة وفى لين مس
ووجوه من الوجوه حسان وخدود مثل اللآلئ ملس
كل كحلاً كالغزال ونجلا ء رواج من بين حور ولعس
آل طولون كنتم زينة الأر ض فأضحى الجديد أهدام لبس[1]

يبكى الشاعر ويذرف الدمع على زوال هذا الأثر الطولونى الذى كان زينة الدنيا وفخارها، نعم به الأهل والأحباب ، واستمتع به كل غاد ورائح .

فعاطفة الشاعر هنا حزينة مكلومة تخرج كلماته من جروح لاترقأ فى القلوب والأفئدة من هول المصاب، وفجيعة الحدث بزوال هذا الأثر، فنكبه آل طولون وزوال آثارهم أصابت كل المواطنين بالحزن والألم .

٣ - وهذا هو الشاعر محمد بن طشويه أحد شعراء الدولة الطولونية الأوفياء المخلصين الذين أظهروا حبهم وودهم لقائدها ، جاء شعره فى بكاء الأثار الطولونية الزائلة معبراً عن عاطفة صادقة ووفاء

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٦٥ .

وإخلاص، وهو فيه حزين أشد الحزن على ميدان بن طولون الذى كان زينة الدنيا فأحاله العباسيون أنقاضاً وخراباً، وهو حريص على إعادة ذكرياته السعيدة وماكان يزخر به الميدان من خدم وحشم، ومابه من رونق وبهاء كان لزواله الحسرة والألم، والفجيعة التى لاتداوى والدمع الذى لايجف ، والكلوم التى لاتبرأ .

من لم ير الهدم للميدان لم يره ... تبارك الله ماأعلى وأقدره
لو أن عين الذى أنشأنه تبصره ... والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيون الورى تغشى لهيبته ... إذا أضاف إليه الملك عسكره
أين الملوك التى كانت تحل به؟ ... وأين من كان بالإتقان ديره؟
وأين من كان يحميه ويحرسه ... عن كل ليث يهاب الليث منظره
صاح الزمان بمن فيه ففرقهم ... وحط ريب البلى فيه فدعثره
وأخلق الدهر فيه حسن جدته ... مثل الكتاب محا العصران أسطره
دكت مناظره واجتث جوسقه ... كأنما الخسف فاجاه فدمره
أو هب إعصار نار فى جوانبه ... فعاد معروفه للعين منكره
كم كان يأوى إليه فى مقاصره ... أحوى أغن غضيض الطرف أحوره
كما كان فيه لهم من مشرب غدق ... فعب طرف الردى فيه فكدره
أين ابن طولون بانيه وساكنه؟! ... أماته الملك الأعلى فأقبره
ماأوضح الأمر لو صحت لنا فكر ... طوبى لمن خصه رشد فذكره[1]

---

(١) الولاة القضاة ص٢٦٤، والنجوم الزاهرة جـ ٢ ص١٤٩ .

فالشاعر هنا يبكى الميدان بكاء حاراً، ويزرف الدموع عليه مدراراً ويتحسر على زواله ، ويتألم لهدمه، فما أجمله وما أعظمه ، فقد كان ذا مكانه مرتفعة فى قلوب أصحابه والمواطنين جميعاً، فكم سعدوا بجماله وتمتعوا ببهائه ، فلو رآه الذى شيده وبناه، ورسم هيكله وزينه وجمله، والحادثات تعصره، وتزيل معالمه وتدك أركانه ، وتقوض بنيانه، وتطمس جماله لأكبره وأعظمه .

ثم يأخذ فى وصف جماله وروعته، فالعيون تقصر عن رؤيته وتحجب عن الإحاطة به خاصة عندما يملتئ بالعسكر من كل جانب والشاعر يكثر من استخدام الاستفهام الذى يثير الحسرة واللوعة والحزن والألم لضياع هذا الأثر الجميل ، فأين الملوك الذين حلوا به واستمتعوا بالإقامة فيه، وأين الذى أتقن بناءه، وأقام عمارته وشيده وزينه؟ وكأنى به يسرى عن نفسه ، ويخفف من وقع المصاب بتذكره هؤلاء، وماصاروا إليه من فناء، فلا بقاء لشئ جماداً كان أم غيره ولابقاء ولادوام إلا لوجه الله ذى الجلال والإكرام ، فإن كان الميدان يندثر وتزول معالمه ويفنى بناءه، فقد زال واندثر ملوك حلوا به، وكذلك من شيده وبناه وأين هؤلاء الأقوياء الشجعان الذين كانوا يحرسونه فلاتمتد إليه يد آثمه، ولم يستطع أحد أن يصيبه بسوء فلقد كان حراسة وحماته ليوث لايهابون أحداً ولو كان ليثاً هصورا تهابه الأسود !! كل ذلك أفناه الزمان وبعثرته الأيام وأصابه البلى ، وأصابه الدهر بالقدم فمحا أثره وأنزل معالمه كالكتاب يمحو الليل والنهار والدهر والزمن أسطره فأصبح باهتاً لايقرأ واستعمل الشاعر الكلمات الموحية المعبرة

عن شدة المأساة وهولها فقوله : دكت مناظره - دليل الإزالة التامة ، والقوة والقسوة في إزالة معالم الميدان، وقوله : واجتث جوسقه ، أي أنه أزيل حتى لم يبق له أثر، ولن تستطيع التعرف على مكانه بعد زواله ، وكذلك كلمة (الخسف) والتي تدل على أنه جعل عاليها سافلها. أو هب عليه إعصار نار فأزال معالمه وغير آثاره حتى أن من رآه لايصدق أنه هو ، ولايمكنه التعرف عليه .

ومن خلال هذه الأبيات نلمح هذا الشعور الحزين والعاطفة المكلومة مما نزل بميدان ابن طولون، وماحق بنفوس المواطنين .

- والقصيدة ومايتضح فيها من شعور مضطرم ولوعة حزينة وحسرة لتعد جمرة متوقدة تكشف عن تأثر عميق، وصدق في الإحساس.

وجاء بكاء الشاعر في هذه القصيدة مخالفاً لسابقيه أحمد بن إسحاق) و (أحمد بن إسماعيل الحكر) ، في رثاء الميدان خاصة، إذ بكاء (الحكر) بكاء للجماعة الكبيرة التي تتجاوب أحاسيسها وأناتها في أرجاء الدولة الطولونية من قادة وملوك وخدم وحشم .

كما أن عاطفة الشاعر جياشة متوهجة صادقة مؤثرة، وأسلوبه انفعالي مثير زاوج فيه بين الآثار العاطفية والآثار العقلية والإكثار من أسلوب الاستفهام وعبارات التفجع والأسف تصويرا لقسوة الرزء وألم المصيبة .

أين الملوك التى كانت تحل به؟! وأين من كان بالإتقان دبره؟!
وأين من كان يحميه ويحرسه ؟! من كل ليث يهاب الليث منظره
أين ابن طولون بانيه وساكنه؟! أماته الملك الأعلى فأقبره

فوقع هذا الحدث أليم، ليس بالسهل على المرء المخلص الذى نعم بالحياة واستمتع بالمآثر الجملية أن يتخلص من مواقف الأسى .

ومايكون لهؤلاء الشعراء الأوفياء المخلصين لوطنهم أمثال (محمد بن طشويه) أن يتقاعسوا أو يتغافلوا تلك الكوارث، فجاءت أصواتهم عالية باكية متفجعة راثية للحال، جازعة لسوء المآل، فعندما هدم الميدان وتهاوت أركانه، وسقطت سقفه، وتخربت قصوره هال كل ذلك الشاعر، وألهب حماسه، فجعله يظهر فجيعته وحزنه فى هذه الأبيات حتى أنه لم يقدم لها حتى ببيت واحد لكنه بدأ بداية حزينة متألمة، سيطر عليه الحدث وأخذ منه كل مأخذ واستولى على مشاعره ووجدانه فأخذ يقارن بين الماضى والحاضر، الماضى الزاهر بالنعيم والحاضر الملئ بالغيوم، الماضى الممتع والحاضر المفظع، فى شريط من الذكريات والصور الحزينة . فما أصاب الآثار الطولونية ، لم يكن لذنب ارتكبته الدولة الطولونية ولا لجريمة فعلتها، ولا لقسوة بالمواطنين ففرحوا بما حل بها، ولكنه تقلب الحدثان، وصروف الزمان.

٤ - أما الشاعر أحمد بن أبى يعقوب بن يوسف بن إبراهيم فقد كان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن، كان من جلة الكتاب بمصر، له مع (أحمد بن طولون) مواقف كثيرة عندما حبس أباه .

وهو من فضلاء مصر ومعروفيهم، وممن له علوم كثيرة فى الأدب مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وله من التصانيف سيرة أحمد بن طولون - سيرة أبى الجيش خمارويه - سيرة هارون بن أبى الجيش - أخبار غلمان ابن أبى طالون - كتاب المكافأة - كتاب حسن العقبى - كتاب أخبار الأطباء - كتاب مختصر المنطق) [1] .

(وأحمد بن أبى يعقوب) من الشعراء الأوفياء لدولتهم المحبين لقادتها أخلص لهم، وحفظ معروفهم ، وورد جميل قائدها (أحمد بن طولون) الذى أخرج أباه من السجن ، فرثا آثار الدولة رثاء حاراً وبكى لزوالها ، وتألم لضياع معالمها .

ومن رثائه ماقاله فى الميدان ، فهذا الأثر الطولونى فى نظر (أحمد بن يعقوب) ليس أثراً عادياً وإنما هو مظهر الجلال والجمال، ودليل ملك عظيم، وآية دولة ناعمة راقية يقول :

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم فارتع وعج بمرابع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وماحوت واسرح بزهرة ذلك البستانى
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة تنبيك كيف تصرف العصران
ياقتل هرون اجتثثت أصولهم وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إذ غدا فى جحفل لجب ولاغسان
وعدية البطل الكمى وخزرج لم ينصرا بأخيهما عدنان
زفت إلى آل النبوة والهدى وتزلت عن شيعة الشيطان [1]

(١) معجم الأدباء م ٣ ص١٥٤ ومابعدها - الأعلام حـ١ ص٢٧٢ .

(٢) الولاة وكتاب القضاة ص٢٥٠ .

أكثر الشعراء في رثاء الميدان، حتى أنه قيل إن (أبو عمر وعثمان النابلسي) قالا: رأينا كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرس شعراء الميدان الذي كان لأحمد بن طولون . قال :إذا كان اسم الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكم يكون شعرهم[١] .

وإن كنا لم نستطع الوقوف على كل هذه الأشعار لأنه ضاع أكثرها كما أوضحنا سابقاً .

والشاعر هنا يريد أن يقول : إن كنت تريد الوقوف على عظمة الدولة الطولونية وجلالها فاذهب إلى ذلك الميدان ، وانظر إلى قصوره المشيدة وماحوت من جواهر ولآلئ، ومن كل زينة الدنيا ، واسرح فيه كيف شئت، وانعم بما فيه من جمال ، فهو خير دليل على ماوصلت إليه الدولة الطولونية من ترف ونعيم .

ثم يوسع دائرة الزمن فيقارن بين الماضي والحاضر، ويدعو إلى الاعتبار بتقلبات الزمن، واختلاف الليل والنهار والغداة والعشي، فالدهر لاقرار له ولابقاء ، فإن كانت دولة (أحمد بن طولون) قد أسست وبنت وزخرفت وشيدت آثاراً زاهية استمتع بها الناس ونعموا فيها وسعدوا بها ، هاهي اليوم قد زالت واندثرت آثارها وضاعت معالمها ، فما أبشع هذه الفعلة وأشنعها فقد أزالت الآثار من جذورها واقتلعتها من أعماقها ، فجيش العباسيين كان قوياً، فقد وقع عليهم ظلمهم وبطشهم، فمزقتهم بعد وحدة وفرقتهم بعد ألفة .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص٣ .

٥ - أما الشاعر (إسماعيل بن أبى هاشم) فقد كان من الشعراء الأوفياء لدولتهم وقد سجل الكثير من مفاخر الدولة الطولونية فى شعره ورثاها رثاء حاراً ولم يرد من شعره مايدل على أنه تقرب للأمراء العباسيين بعد القضاء على الدولة الطولونية ، بل إن من شعره مايدل على بغضه لهؤلاء الفاتحين وحسرته الشديدة على ذهاب دولة بنى طولون، وقد قام ضابط طولونى يعرف بابن الخليج بحركة مضادة حاول بها استعادة الدولة الطولونية، وقد تحقق له الانتصار على جيوش العباسيين، وإن لم يستمر، فاستبشر إسماعيل ابن أبى هاشم بحركته، وبارك خطواته، ودعا إلى تأييده ومساندته غيره على مصر وحرصاً على استقلالها [١] .

وللميدان عند (إسماعيل بن أبى هاشم) منزلة عالية فهو يعدل عنده السمع والبصر، ويدعو له بالسقيا فهو عنده المكان المحبب والمنزل المعهود ، فلا يستطيع الذهاب إليه بعد زوال آثاره، كما يترحم على أهله وأحبائه ويسأله عنهم !!

يقول :

يامنزلاً لبنى طولون قد دثرا سقاك صوب الغوادى القطر والمطرا

يامنزلاً صرت أجفوه وأهجره وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحبتنا أم هل سمعت لهم بعدنا خبرا [٢]

---

(١) الولاة والقضاة ص٣٥٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ص٣ ص١٤٢ وقد سجل صاحب كتاب (أصداء سقوط الدولة الطولونية فى الشعر العربى) سبع قصائد للشاعر فى هذا الغرض .

وقال أيضاً فى رثاء آثارهم عامة :

قف وقفه بفناء باب الســـاج والقصر ذى الشرفات والأبـراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامـــة أيـــام إزعـــاج
كانوا مصابيحاً إذا ظلم الدجى يسرى بها السارون فـى الإدلاج
وكأن وجوههم إذا أبصرتهـــا من فضة مصبوغة أو عـــــاج
كانوا الثريا لايرام حما هـــو فى كل ملحمة وكـــل هيـــاج
فانظر إلى آثارهم تلقى لهـم علماً بكـــل ثنيـــة وفجـــاج
وعليهم ماعشت لاأدع البكا مع كل ذى نظر وطرف ساج[1]

الشـاعـر هنا رقـيق عطوف، يظهـر وده وحبـه لآل طولون، فـهم لم يطردوا ،ولم يحاربوا، وإنما أزعـجوا إزعاجاً، فكانوا يهنأون بدولتـهم، ويسـعدون بما فـيـهـا من مـآثر، وهم مـصابيح الهـدى ونـور الظلام، وهم الثريا لايرام لهم حمام .

من أجل ذلك فـــهـــو يحـزن لزوالهم، ويتــألم لضـيـــاع آثارهم، وسيظل يبكى مابقى فيه نفس يتردد ، ونظر يبصر .

٦ - وبعـد هذا الكم من الشعـر فى رثاء الميدان الطولونى نجد الصورة تختلف صعوداً وهبوطاً عند هؤلاء الشعراء .

فـالميـدان فى نظر (أحـمـد بن إسـحـاق) عـروس تجلت وتزينت وتهيأت لتزف إلى عرسها ، وفجأة فقدت زوجها صباح ليلة عرسها فتشكلت وتبدلت وتغيرت بعد أن عصفت الرياح بصاحبها، ففقدت كل جـميل بل أصبح الحسن فى نظرها قبيح والجديد والجميل رث قديم.

أما الميدان عند الشاعر (محمد بن طشويه) فهو حصن منيع تغشاه العيون هيبة وإجلالاً، وتبتعد الحوادث عنه إكباراً وإعظاماً، خلا من الملوك والأمراء، وانفض من حوله الحراس، وهو كتاب محا الزمان جدته، وأزال أثره، واجتث جوسقه حتى لايستطيع أن يتعرف عليه من ألفه .

والشاعر (أحمد بن إسماعيل الحكر) يرى الميدان أعجوبة الزمان توالت عليه ألوان من الأشجان، فى تبدله وتغييره عبرة لمن أراد أن يعتبر .

وهذه الاستفهامات الكثيرة عن النعيم الذى زال والسرور الذى ضاع والوشى والقيان كل ذلك غيره الزمان .

أما (أحمد بن يعقوب) فقد صور لنا الميدان مظهر الملك وجلاله بما فيه من قصور مشيدة، وبساتين مزينة، لم يغن مافيه من قوة ، وما حوى من أبطال ، بل تصرف فيه الزمان فاجتث أصوله وأشاب رأس أميره .

والشاعر (إسماعيل بن أبى هاشم) يرى الميدان ميتاً يحتاج إلى من يترحم عليه ، ويدعو له بالسقيا ، وهو يعدل عنده السمع والبصر .

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٥٣ .

فنجد كل شاعر أضاف جديداً إلى الميدان، حتى أصبحت صورته بعد قراءة هذه الأشعار واسعة المساحة ، مشرقة الجوانب عالية الأركان، يستحق البكاء بغزارة والحزن بعمق .

ولتعد اتضح لنا بعد القراءة المتأنية والتمحيص الدقيق لتاريخ الدولة الطولونية أن بعض شعرائها لم يكونوا مخلصين لها ، فقد تذبذب بعضهم وفرح بزوال الدولة الطولونية ، وأظهر سروره للفاتح العباسى وتملق له وأنشد فيه شعراً ،وظهر ذلك جلياً فى أشعارهم أمثال (أحمد بن محمد الحبيشى) وهو من الشعراء البارزين فى الدولة الطولونية ولكنه كان غير ثابت الهوى، غير مخلص لها إخلاص رفاقه من الشعراء فقال فى الترحيب بالعهد الجديد، مظهرا سروره وفرحه بمجئ بنى العباس غير مكترث بما حدث لدولة (أحمد ابن طولون) فقال :

الحمد لله إقراراً بما وهبا	قد لم بالأمن شعب الحق فانشعبا
الله أصدق هذا الفتح لاكذب	فسوء عاقبة المثوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها	وفرج الظلم والإظلام والكربا[1]

وقال أيضاً مخاطباً (الحسين بن أحمد الماذرائى) الذى قام بهدم الميدان الطولونى عام ٢٩٢ فى أول شهر رمضان المعظم .

---

(١) الأدب العربى فى مصر ص١٢٤، شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية ٨١ .

هنيئاً لمصر قد فتحت رتاجها وقلدت ماقلدتــــه بتحكــم
وما الفتح إلا فتح رأيك لاالـذى تجمع يوم الجمع من كل معلـم[١]

وقد اتضح موقف الحبيشى المتذبذب فى مواقف كثيرة فقد مدح أحمد بن سليمان) القائد العباسى الذى فتح مصر وقضى على الدولة الطولونية ، ثم لم يلبث أن مدح ابن الخليج الذى استعاد هيبة الدولة الطولونية وهزم الجيوش العباسية، ثم لم يتحرج أن عاد مرة أخرى فمدح (الحسين بن على الماذرائى) الذى قضى على حركة ابن الخليج ، وظل هكذا متقلب الهوى يصافح المنتصر، ويمدح القوى .

من أجل هذا نحيناه جانباً، فلم نذكر له شيئاً، أو لم نر له شيئاً أثار شجنه، وآلم ضميره لفقد أثر من الآثار الطولونية أما هؤلاء الذين ظهر ودهم، وبان حبهم لها ، وغيرتهم على آثارها ، وبكائهم على زوالها أمثال (سعيد القاص) و (محمد بن طشويه) و (أحمد بن يعقوب) ، و(أحمد بن إسماعيل الحكر، و(أحمد بن إسحاق) ، و(إسماعيل بن أبى هاشم) وغيرهم الكثير أما الشاعر (أحمد بن يعقوب) [٢] فكان رثاؤه عاماً لبنى طولون وآثارهم فما حل بهم هو نقمة جاءتهم من الشرق على غرة فأبادتهم وأزالت أثارهم وطمست معالم دولتهم .

---

(١) المرجع السابق ص١٢٤ .

(٢) سبق التعريف به ص٤٧ - ٤٨ .

والأمل فى صلاح هذه الأمة ضعيف، فقائدها غير كفء لايريد صلاحاً، تاريخه معروف فقد ساس الدين والدنيا على غير هدى، آراؤه غريبة، وأفكاره ضحلة، وخياله قصير ، أما آل طولون فهم القادة والسادة، أصحاب الرأى الصحيح والحجة الواضحة، والتسامح والرحمة والعطف حتى مع المخالفين .

يقول :

نقمة أرسلت من الشرق تهوى فأناخت على بنى طولونا

كيف يرجى صلاح هذى البرايا وابن أبا يسوس دنيا ودينا

بأبى خبة ورأى غريب كان يمضى شرايع الحكم فينا

مارأينا من آل طولون إلا مساه فى بطالة مرهوناً

---

(١) الولاة والقضاة ص٢٥١ .

المصادر والمراجع

١ - الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى نهاية العصر الأيوبى محمود مصطفى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بمصر ١٩٦٧ م .
٢ - الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية د/ عبد الرازق حميده .
٣ - الأدب المصرى الإسلامى من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين - د/ محمد كامل حسين - مطبعة الاعتماد.
٤ - أدبنا العربى فى عصر الولاة - د/ محمد كامل حسين - ط دار الفكر العربى .
٥ - أصدار سقوط الدولة الطولونية فى الشعر المصرى - د/ عبد الرحمن هيبة - مطبعة الشناوى بطنطا ١٩٩٠ م .
٦ - بدائع الزهور - محمد بن أحمد بن إياس - ت - محمد مصطفى ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣ .
٧ - تاريخ الأدب العربى - كارل بروكلمان - دار المعارف .
٨ - تاريخ الأمم والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - ط دار الفكر - ١٩٧٩ .
٩ - الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربى حتى آخر الدولة الفاطمية د/ محمد كامل حسين مصر ١٩٥٩ م .
١١ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة - على مبارك - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ .

١٢ - خطط المقريزى .
١٣ - ديوان البحترى - ط دار المعارف - ت حسن كامل الصرفى ..
١٤ - زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحاق إبراهيم بن على المصرى القيروانى شرح محمد على البجاوى طبع عيسى الحلبى ١٩٦٩ .
١٥ - الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث - د/ محمد أحمد سلامه - دار الطباعة المحمدية ١٩٨٠م.
١٦ - شعراء مصر من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الفاطمية . محمد مصطفى الماحى - د/ محمد عبد المنعم خفاجى - الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠ .
١٧ - الشوقيات أحمد شوقى - دار الكتاب العربى بدون تاريخ .
١٨ - صبح الأعشى - القلقشندى - المؤسسة المصرية للتأليف ١٩٦٣.
١٩ - معجم الأدباء - لياقوت الحموى ط دار الفكر ١٩٨٠ .
٢٠ - المغرب فى حلى المغرب - ت - زكى محمد حسن وآخرين ط - جامعة فؤاد ١٩٥٣ .
٢١ - النجوم الزاهرة - ابن تغرى بردى - ط وزارة الثقافة .
٢٢ - الموازنة بين الشعراء - زكى مبارك ط٢ الحلبى ١٩٦٣.

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
إيتاى البارود

الإسلام فى شعر
خليل مطران

إعداد

د/ سالم عواد السيد حشيش

مدرس بقسم الأدب والنقد

بالكلية

" بسم الله الرحمن الرحيم "

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد ،،

ففى هذه الأيام الصعبة يطغى تيار التعصب والكراهية للإسلام والمسلمين متمثلا فى موقف الغرب الأوربى والأمريكى الذى يرى ظلما – فى الاسلام والمسلمين – عدوا بديلا عن الشيوعية الذاهبة...

لقد اكفهر الجو العالمى فجأة، واحتشدت مظاهر العداء للإسلام والمسلمين متخذة من بعض السلبيات لدى بعض المسلمين ذريعة فى تهجمها على الإسلام وأهله ، واستعداء الكون ضده ورميه بالتخلف والجمود ... وأهله بالانحطاط والبربرية...

وحين طالعت شعرا لشاعر خليل مطران ورأيت دفاعه عن الإسلام ومبادئه وقيمه السامية فى وقت كثر فيه أعداؤه فى الخارج والداخل ... أقدمت على الإلمام بهذا الشعر ، وبذل الجهد من أجل إظهاره لمن يطالعه بوصفه صورة مضيئة لوجه الإسلام.

متخذا من ذلك مدخلا لدراسة شعر الشاعر فى هذا الجانب الموضوعي من الناحية الفنية ، باعتبار هذه الدراسة دراسة أدبية متخصصة...

والله من وراء القصد ، وهو الهادى إلى سواء السبيل،،،

الإسلام فى شعر خليل مطران ...

حين يدافع المسلم عن دينه ضد من يجترؤن عليه، فهذا مايجب عليه .. أما حين يدافع عن الإسلام من لا يعتنقه فهذا ماينبغى الالتفات إليه ، وحق علينا أن نشجع مثل هذه الأصوات المنصفة ونقدرها حق قدرها ليكون ذلك دليلا علي أن الإسلام دين قويم يعرف قدره من يعتنقه كما يقدره المنصفون من غير أهل الملة من المنصفين له والمعترفين بفضله...

وحقا إن من الأصوات المنصفة للحق والمعترفة بالدين الإسلامى ومبادئه وقيمه فى الحياة ، واثقة من أن تلك القيم والمبادئ هى دستور الحياة الفاضلة..

هذا الصوت المتصف بالإنصاف للإسلام ومبادئه وقيمه هو صوت الشاعر خليل مطران[1].

---

(١) الشاعر خليل مطران . لبنانى مسيحى - ولد فى بعلبك فى يوليه ١٨٧٢م لأب ثرى فى قومه وأمه من أسرة الصباغ من فلسطين . دخل الكلية البيطربركية للروم الكاثوليك ١٨٨٥ وتخرج منها وعين بها، ونشأ على حب الشعر بتأثير اليازجى قدوته المثلى.
كان له دور وطنى كان السبب فى تركه وطنه إلى الاسكندرية ومنها سافر إلى مرسيليا ثم باريس ، ثم غادرها إلى الاسكندرية ١٨٩٢م.
وفى عام ١٨٩٣م سافر إلى الأستانة وعمل بالتجارة والصحافة وأصدر المجلة المصرية ١٩٠٠م ، ثم جريدة الجوائب واعتزل الصحافة وتوفى يونية ١٩٤٩م.

ومطران كما نعلم شاعر لبناني مسيحي ، عاش حياته متمسكا بدينه المسيحي ، إلا أنه لم يغلق عينه وفكره عما في الدين الإسلامي من مبادئ وقيم سامية تعلى من قيمة الإنسان وترفع من قدره وتسمو بالحياة وترتقي بها .. فلم يكن منه إلا أن تناول تلك القيم والمبادئ الإسلامية فى شعره ، وبين أهميتها وقيمتها للحياة وأثرها فى الحضارة الإنسانية...

وفى شعره كثير من المبادئ والقيم التى أبرزها وجسدها وتغنى بها رغم مخالفة بعضها لمعتنقه كرجل مسيحى معتز بدينه ...

ولاشى هناك يوجب عليه الثناء على دين لايعتنقه .. ولكنه الحق الذى ارتآه والإنصاف الذى يجده من يقلب النظر فى شعره ظاهر الكل ذى عينين، فى شعره الذى نظمه يجسد فيه مبادئ الدين الإسلامى ..

إن هذا الشاعر قد تناول فى شعره كثيرا مما هو من أسس الدين الإسلامى وثوابته ، وكان له ثناء وتمجيد لكل عمل عظيم . كان له شأنه فى إعلاء الدين الإسلامى ، كما تناول فى شعره صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، وأشاد به ، وأبرز دوره العظيم ومعاناته من أجل تبليغ رسالته ، كما أثني على صحابته وأبرز دورهم وقارنهم بسواهم ممن سبقوهم من الأمم ، وكان لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم المنزلة الأسمى فى عقله ووجدانه وجسد ذلك فى خلال شعره الذى أقام بنيانه ...

كما كان له إشادة وثناء في بعض المناسبات الإسلامية وعلي بعض الرموز الإسلامية التى كان لها دورها في مسيرة الإسلام الصاعدة والأشخاص الذين كانت لهم أعمال بارزة فى خدمة الدعوة الإسلامية .

وها نحن أولاء بصدد مطالعة شعره فى كل غرض نظم فيه شعرا فى الإسلام ....

لقد كان المصريون فى بداية هذا القرن يحتفلون بمناسبة الهجرة النبوية فى بداية شهر المحرم من كل عام، تذكيرا لهم بما كان لهذا الحدث العظيم من آثار حسنة غيرت مجرى تاريخ البشرية ، وكان ذلك الاحتفال اتكاء علي التاريخ ليكون عونا للمصريين علي حفز نفوسهم وشد أزرهم فى بداية نهضتهم ومجابهة عدوهم الذى يجثم على صدورهم .

لقد كانت المحافل تجتمع وينشد الشعراء شعرهم ويتبارون فى إظهار أمجاد العرب والمسلمين ، وتتوقد العزائم ، ويعلوا التهليل والتكبير حين يشحذ النفوس إيراد صور الماضى الغاير وأمجاده العظيمة لتكون زادا يغذى نفوس الشعب ويدفعه إلى الحماس والحمية في مواجهة أعدائه الذين يحاولون طمس معالم حضارته ، والإلتفات إلى غيرها بالتبجيل والاحترام رغم مغايرتها لقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا وما فيها من هدم لإسلامنا وعقيدتنا ...

لقد اطلعت على شعر كثير من الشعراء المسلمين كانوا فيه معبرين عما يعتمل في نفوسهم ويملأ جوانحهم . وأظهروا من خلال تعبيرهم مبادئ الدين الإسلامى وكان شعرهم دفاعا عن الإسلام ومبادئه وقيمه ..

وإذا كان الشعراء المسلمون ينظمون شعرهم دفاعا عن الاسلام فذلك ماينتظر منهم وهو حق وواجب عليهم ...!!

أما حين ينظم شاعر مسيحي شعرا يمتدح فيه الإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وكتابة المنزل من عند الله تعالى ، كما يمتدح أهله من الرواد الأوائل ويثنى على فعالهم ويجسدها فى شعره ، فذلك هو مالفت نظرى لأتتبع مانظم هذا الشاعر المسيحى مدحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ، كما يظهر من خلال شعره منزلة الدين الإسلامى وقيمه ومبادئه وأثره علي الحضارة الإنسانية ...

وإذا كانت الأحداث غير متساوية فى أهميتها وأثرها على الحياة الدنيا فإن حدث الهجرة النبوية يعد من الأحداث الجسام والوقائع العظام التي كان لها أثرها الهام في تغيير وجه الحياة إلى الأفضل ، لذا كان حريا بالاحتفاء به والاحتفال بقدومه ، لما كان له من أثر عظيم فى انتشار الإسلام وظهور نوره يملأ الأرجاء ....

وهذا هو شاعرنا خليل مطران يحتفل مع المحتفلين بعيد الهجرة النبوى ويشنف آذان المستمعين ، ويغذى عقول القارئين والسامعين

بشعره العذب الذى يجسد المعانى النبيلة التى اشتمل عليها الدين الإسلامى وها هو ذا يقول :[١].

هل الهلال فحيوا طالع العيـــد	حيوا البشير بتحقيق المواعيد
يا أيها الرمز تستجلى العقول به	لحكمة الله معنى غير محدود
كأن حسنك هذا وهو رائعنـــا	حسن لبكر من الأقمار مولود
لله فى الخلق آيات وأعجبهـــا	تجديد روعتها فى كل تجديد

الشاعر - كما يظهر من الأبيات - منبهر بهلال الهجرة مستبشر به تراه فى شعره يوجه الأنظار إليه ويتفاءل به ويحض الناس إلى الالتفات إلى هلال الهجرة ، فقد كانت بداية الإشراق لفجر الإنسانية كما أنها رمز كبير لمعنى عظيم يمثل انتقال الحياة من ظلمات الجاهلية إلي نور الإسلام ، كما كانت فتحا ونصرا للإسلام والمسلمين .

وإذا كانت الأمة الإسلامية تعانى فى تلك الآونة من العنت والمشقة لبعدها عن دين الله تعالى فإنها كانت فى حاجة إلي من يذكرها بالتاريخ لتتخذ منه العظة والعبرة وتستمد منه الدرس والخبرة.

وإذا كانت الهجرة النبوية قد آتت أكلها وأدت دورها في الماضى فإن ذلك لم يكن إلا بعزائم الرجال الأشداء الذين نصروا اللـه

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

فنصرهم وكان منهم الدرس والعبرة والرمز والتجلة .. وهو ما يجب على رجال اليوم أن يكونوا كما كان أسلافهم ويجددوا روعة تلك الأحداث بعزائم اليوم حتى يحققوا ماحققه الأسلاف ...

لقد كان الاحتفال بمثل تلك الأحداث يمثل شحذا للنفوس وبعثا للهمم وتغذية للعزائم علها تفيق من سباتها وتسلك خير السبل فى الحياة إلى ماينفعها وتتخذ من التاريخ وأبطاله قدوة حسنة ونبراسا يستضيئون به خلال رحلة الحياة...

لقد كان حال الوطن وما آل إليه فى تلك الآونة هم يؤرقه ويقض مضجعه فهو وإن لم يكن مصرى المولد إلا أنه قد صار مصرى العيش فقد احتضنته مصر وعرفت له قدره وأعلت مكانته وسمت بمنزلته بما كان له من أعمال عظيمة تميز بها ولذلك لم تبخل عليه بالجزاء والعرفان وقابلت عمله الطيب بما يستحق من تقدير وامتنان.

ولهذا لم يتوان الشاعر فى أن يأخذ لشباب مصر وفتيانها ورجال غدها العظة والعبرة من هلال الهجرة ويحثهم علي العمل الدؤوب والجد والاجتهاد ، وأن الراحة الكبرى لاتنال إلا على جسر من التعب ، ويضرب لهم المثل بهلال الهجرة حيث يبدأ رحلته هلالا صغيرا ، ثم تنتهى به الأيام بدرا متألقا يفيض علي الدنيا سناه فالواجب عليهم أن يكونوا مثله وأن يسيروا سيرته ويجعلوا الأيام سلما لتطورهم وصلاح حالهم وآية على تقدمهم وعزتهم.

إن أهم مايزجيه الشاعر فى قصيدته إلى فتيان مصر فى تلك المناسبة لعظيمة.، أنه يربط الحاضر بالماضى ، كما يبين لنا أن التمام و الاكتمال فى أى شأن من شئون الحياة لايكون إلا بالسعى والدأب والجد والاجتهاد ولن يكون لذلك من نتيجة إلا الفوز والفلاح وكل مايتمناه الإنسان فى دنياه ...

إن هذا العيد العظيم قد جاء على ميعاد ليعيد إلى الذاكرة صورة ذلك الحدث العظيم المتمثل فى الهجرة النبوية الشريفة . التى كانت لها أهميتها فيها تفتحت آفاق الدعوة الإسلامية ، واتسع ميدانها ، وانساحت بعد الهجرة المباركة تضرب فى شتى أرجاء الأرض ولم تكن لتستطيع ذلك لو قدر لها البقاء في مكة حيث التضييق عليها ومحاولة خنقها ولكن بالهجرة انفسح المجال أمامها وانطلقت الدعوة الوليدة قوية هادرة ، وبها سر المسلمون الأوائل وانجابت عن صدورهم ماكانوا يلاقونه فى سبيلها من أهل مكة فكان انشراحهم عظيما وتفتح نفوسهم كبيرا ....

واليوم يتذكر الخلف تاريخ السلف ويستفيدون من أمجادهم ، ويستمدون منه العزم والقوة والصلابة ، وما عليهم إلا أن يسيروا على نهج أسلافهم حتى ينجحوا نجاحهم ويوفقوا توفيقهم قال الله تعالى : "ولينصرن الله من ينصره " (١).

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠.

هذا مـا أراد به الشـاعـر حـفـز همم المصريين كي يبـذلوا الجـهـد ويواصلوا السـعي والدأب كي يصلوا إلى أرقى الدرجـات وأسـمى الغايات ، ويكونوا كأسلافهم جدا وعملا رغبة في الرقي والتقدم ....

ثم ينتقل الشاعر إلي الحديث عن شئون الدعوة الإسلامية ويبين ما لاقاه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام وما تحملوه من تعب ومشقة فيقول:- (١).

رسالة الله لا تنتهي بلا نصب   يشقى الأمين وتغريب وتنكيد

في هذا البيت اعتراف صريح وصحيح -الشاعر- وهو مسيحي كمـا نعلم - بأن الإسلام رسالة سماوية أتت من قبل الله تعالى ، كلف الله تعـالى بهـا رسـوله الأمين مـحـمـد صلى الله عليـه وسلم ليبلغها إلى الناس كافة ، ليخرجهم بها من ظلمات الجهالة إلى نور الهداية ...

لقد عبر الشـاعـر فأحسن التعبير بلا زيف ولا مراء مقرا بأن الإسلام رسالة الله تعالى إلى خلقه أنزلت على بشر رسول ليبلغها عن الله تعالى وتلك مشقة كبيرة ومسيرة عسيرة لا تتم ويعظم اكتمالها بلا نصب ولا تعب يلحق صاحب الرسالة كما يصيب تابعيه بشتى ألوان الإيذاء .

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

ولقد قاسى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم ألوانا من الإيذاء وقاتلوا وقتلوا فى سبيل الله ، وانساحوا فى أرجاء الأرض فرارا بدينهم وهاجروا إلى الحبشة هجرتين، ولم يمهلهم كفار مكة فى ديار الغربة والهجرة فى الحبشة يهنئون بعبادة الله الواحد الأحد بعيدا عن الإيذاء المكى ، بل انطلقوا يتعقبونهم لدى النجاشى وأرسلوا الوفود محملين بالهدايا إلي ملك الحبشة وبطا رقته ليرد المسلمين إلى مكة، ليذيقوهم شتى ألوان الإيذاء لوأد دعوتهم والقضاء عليهم وتخويف من يحاول أن يسلك مسلكهم ، ولكن خاب سنيهم ، ورجعوا يجرون أذيال الخيبة والعار ، لأن الله تعالى نصر عباده المسلمين حين وفق النجاشى إلي رفض طلبهم يرد المسلمين إلى مكة وطردهم ، فلقد بقى المسلمون في مهجرهم يعبدون الله تعالى فى حرية تامة وإن كانوا يقاسون آلام الغربة والبعد عن الوطن والأهل إلا أن ذلك كله يهون من أجل غاية أسمى وهدف أرقى وهو العقيدة الإسلامية التى اختطلت بدمائهم واشتملتها قلوبهم فليسوا بمفرطين فيها مهما بلغ بهم الأين والمشقة...

وإكمالا للمعنى الماثل فى هذا البيت الذى يصور ما فى الرسالة وتبليغها من أين وعناء يردف الشاعر البيت الثانى ليتم الصورة الكبرى . والتى تمثل إضافة ظلال وألوان من المشقة والعناء والعنت الذى لحق بصاحب الرسالة وتابعيه فيقول :-(١)

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

رسالة الله لوحلت على جبل   لاندك منها وأضحى بطن أخدود

وفي كلا البيتين عبر الشاعر عن الإسلام بقوله "رسالة الله" وكرر ذلك فى البيتين ، ففى تعبيره تأكيد واعتراف بأن الإسلام رسالة من عند الله، ولايملك المنصف إلا أن يكبر هذا الشاعر ويثنى عليه ويعلي من قدره ويعلن رأيه هذا دحضا للمتعصبين والكارهين من أعداء الدين قائلا : هاقد شهد شاهد من أهلها .. بقدسية الدين الإسلامى وكونه رسالة من عند الله تعالى .. وما قال شاعرنا غير الحق ولكن مايميزه أن غيره ينكره ولايكاد يطيق سماع خير عنه .. !!

لقد كان شاعرنا فى غنى عن أن يعبر هذا التعبير في شعر يطير مع الأيام يقرؤه ويسمعه القاضى والدانى . وهناك أهل ديانته . ومنهم كثيرون ينكرون ولو ظاهرا أن يكون الإسلام رسالة من عند الله تعالى لأنهم لايعترفون إلا بما لديهم من كتب قد تم تحريفها قديما لتسير وفق هوى محرفيها ممن .. "يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها "...

وكما عبر العزيز الحكيم فى محكم كتابه الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد... حيث صور حال أهل الكتاب وموقفهم من رسالة الله تعالى فقال جلت قدرته : "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم"[٢] ، بل إنهم أكثر

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

(٢) سورة البقرة الاية .

معرفة بالحق المتمثل فى الدين الاسلامى من معرفتهم لأبنائهم ، لأنه كما ورد في المتواتر من الأخبار أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أحد أحيار اليهود عن معنى الآية السابقة فأكد الحبر للخليفة عمر بن الخطاب صدقها فى كونهم أكثر معرفة بالحق الإسلامى من معرفتهم لأبناءهم قائلا له : لأنه ربما زنت نساؤنا...

إلا أن الجاحدين المنكرين لايعترفون بذلك، ولايرون إلا مايدينونه به، ولو أنصفوا لتدبروا وسألوا أنفسهم قائلين : ما الهدف من الرسالات السماوية ؟ ثم استعرضوا ما فى الرسالات كلها من خير للإنسانية وأعادوا النظر فيما تحمله الرسالة الخاتم من خير وفير يجعلها إتماما لما سبق من رسالات سماوية ولكنهم عرفوا وكفروا وجحدوا...

فإن اعترف أحدهم بالحق عد ذلك منه شيئا عظيما يستحق الشكر والعرفان والإظهار والإعلان بدل أن يظل طى الكتمان ...

أما الدين الإسلامى فإنه يفرض على معتنقيه أن يؤمنوا بالله تعالى ورسله وكتبه الذين سبقوا رسالة الإسلام عملا بقوله تعالى : "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله.."[1].

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٥.

فإذا أعدنا النظر مرة أخرى فى البيت لنرى مافيه من معان وأحكام وجدنا أنه يحمل معنى آية كريمة من آيات كتاب الله الكريم .. والبيت كما نظمه الشاعر يصور رسالة الإسلام في ثقل حملها ومشقة تبعاتها تكاد تؤدى إلى تفتت الجبل إن هى ألقيت عليه فتتركه وقد تصدعت أركانه وتفوض بنيانه قال تعالى(١): " لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.." وكأن هذا الشاعر - غير المسلم - قد استقي هذا المعنى الذى حملته الآية الكريمة ليبرزه واضحا فى بيته السابق مصورا ثقل الأمانة وما لاقاه الأمين من مشقة فى أداء تبعاتها ولايكتفى بالتأكيد الذى ورد فى البيت السابق مبينا قدسية الرسالة ومشقة تحملها ولكنه فى البيت التالى يزداد تأكيدا لهذا المعنى وإظهارا للصورة فيقول (٢) :

ولو تحملها بحر لشب لظى   وخف وأنهار فيه كل جلمود

لقد كان الرسول صلي الله عليه وسلم محبا لبلده مكة ، ففيها ولد وترعرع حتى بلغ سن الرجولة ، ورأى مجد أهله وعشريته ، وفيها اكتحلت عيناه الكريمتان بمرأى البيت العتيق ، وفيها أكرمه الله تعالى بالوحى ، واختاره الله من سائر خلقه لتبليغ رسالته إلي الناس كافة، فكيف لايفيض قلبه الكريم حبالها ، ولكنه بعد نزول الوحـــى

---

(١) سورة الحشر الآية : ٢١.

(٢) ديوان الخليل جـ ٢ ، ص٤٠.

عليه وأمر الله تعالى له بتبليغ الرسالة يلاقى المشقة والعناء والكفر والعناد من الأقارب والأباعد فى مكة وماحولها هو ومن اتبعه ، وحين ضاق الأمر به فى مكة لم يكن أمامه إلا أن يتجه إلى القبائل يعرض نفسه عليهم ويبلغ دعوة الاسلام إليهم فمنهم من آمن به ومنهم من استمر علي كفره وعناده ، ثم كانت الهجرات المتتالية من المسلمين إلى الحبشة ، ثم كان الفتح المبين من الله تعالى للدعوة الإسلامية ببيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد هاتين البيعتين المباركتين عقد العزم علي الهجرة من مكة هو وأصحابه - بالرغم من حبه لها ولاغرو. فهو القائل صلى الله عليه وسلم : ..." والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ، وأحب بلاد الله إلى ، ولولا أن قومك أخرجونى ماخرجت .. " .

وأمر الإخراج من مكة قد بلغه على لسان ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة رضى الله عنهما ، وذلك حين جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها يرتعد خوفا بعد نزول الوحى عليه فى غار حراء ، فلم تملك إلا أن ذهبت به إلى ورقة بن نوفل ابن عمها وكان من الموحدين وله نظر فى كتب الأقدمين، وحكى له محمد صلى الله عليه وسلم ماوقع له فى غار حراء، فلم يكن من ورقة إلا أن طمأنه وبشره بالرسالة التى اختاره الله تعالى لها ثم قال له: ليتنى أكون معك إذ يخرجك قومك؟ فقال صلى الله عليه وسلم:أو مخرجى هم؟[١] فأخبره

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٤٨.

ورقـة أن تلك سنة عـانـاها من سـبـقـه من الرسل حين يشـتـد الظلم ويطغى ويكبر التكذيب للرسول لايكون أمامه إلا الهجرة من مـوطنه إلى موطن آخر يجد فيه أنصارا وأعوانا ينصرون دين الله تعالى .

والشـاعر هنا يصور مـاكان يعتمل فى نفس الرسـول (ص) من ألم وأسى بالنسـبـة إلى مكة وأمـره بالهـجـرة عنهـا إلى يثـرب فيقول: (١)

ينوى الترحل عن أهل وعن وطن   وفى جوانحه أحزان مكبود
يكاد يمكث لولا أن تداركـــه   أمر الإله لأمر منه موعود

ففي نفسه عليه السلام - حزن وحسرة وهم وأسي لمفارقة وطنه ويكاد ينفطر قلبه حزنا على فراق مكة، لأنها موطنه وبها أهله وأول الخير كان فيها وربما وطن نفسه علي مجابهة الأذى وتحمله ، ولكن الله تعالى يوحى إليه بكل مايخص الدعوة الإسلامية، قال الله تعالى : "ومايـنطق عن الهوي إن هو إلا وحى يوحى" (٢) فكان أمر الله تعالى له بالهجرة هو وأصحابه إلى يثرب وهاهو الشاعر يتناول هذا المعنى فيقول: (٣)

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

(٢) سورة النجم : الآية ٤.

(٣) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

يكاد يمكث لولا أن تداركـــه أمر الإله لأمر منه موعود

وحقا كان الرسول صلي الله عليه وسلم يحب مكة ويود المكث بها إلا أن الله تعالى يريد الخير والنصر للدعوة الإسلامية حين ينتقل صاحبها والذين آمنوا معه إلى يثرب حيث الأمن والأمان والاطمئنان خصوصا بعد أن اشتد إيذاء المشركين فى مكة له ولأصحابه ولم يعد هناك احتمال لشتى ألوان العذاب والايذاء التي يصبها المشركون على المسلمين فلم يكن أمامه صلى الله عليه وسلم بعد توجيه الله تعالى له بذلك إلا أن يدعو أصحابه إلى الهجرة إلى يثرب فيقول الشاعر[1]:

فإن غلا القوم فى إيذائه خطلا وشردوا تابعيه كل تشريـــد
دعا الموالين إزماعا لهجرتـــه فلم يجبه سوى الرهط الصناديد

وها هم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم تظهر صورتهم فى شعره فكيف صورهم؟ إنهم - فى نظر الشاعر - رهط صناديد أشداء في الحق بواسل، وبهم ارتفع لواء الإسلام عاليا خفايا، فلقد كانوا قلة فى العدد كثرة فى الحماسة والحمية والدفاع عن الإسلام.

ثم يصور الشاعر مسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فيقول:[2]

---

(١)، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

مضى هو البدء والصديق يصحبه

يغامر الحزن في تيهاء صبخود

وهذا تصوير لهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، فحين قام بالهجرة صحبه أبو بكر الصديق وكله حزن وأسى لفراق مكة وطنه ومهوى فؤاده ، وانساح في دورب الصحراء الموحشة ، في طريق غير مأمونة ولا مطروقة كي يسلم من ترصد كفار مكة له وتتبعهم إياه من أجل الإيقاع والفتك به ، وقد رصدوا الجوائز لمن يأتي به حيا أو ميتا ومقدار الجائزة مائة ناقة وهي كفيلة بإسالة لعاب الطامحين والمغامرين من أهل مكة وخاصة الصعاليك والمحرومين ولكن أنى لهم ذلك وقد قال الله تعالى " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز"[١] .

ويصور الشاعر وجهة الرسول صلى الله عليه وسلم في هجرته فيقول[٢] .

موليا وجهه شطر المدينة في ليل أغر على الأدهار مشهود

وحقا كان ليل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي المدينة أغر علي الزمان يفيض بالبشر والنور والضياء ، فبتلك الهجرة الميمونة ولد فجر الإسلام وانتشر ضياؤه وازداد تألقه وارتفعت رايته

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢١.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

عالية خفاقة في شتى الأرجاء واتساح فى شتى المدن والقرى يضرب فى أرجاء الدنيا ، مؤذنا بحياة أفضل لبنى البشر قدخلت من الإثم والظلم وامتلأت بالتقوى والخير للإنسان .

لقد تربص المشركون بالرسول صلى الله عليه وسلم محاولين قتله حين يخرج عليهم ليلة الهجرة وقد حشدوا لذلك حشدا عظيما من كل قبيلة قد أخذوا منها فتى شابا جلد ا وأعطوه سيفا صارما وأمروا الفتيان الملتفين حول منزل الرسول صلى الله عليه سلم أن يضربوه ضربة رجل واحد مريدين بذلك تفريق دمه في القبائل فلايكون أمام بنى هاشم إلا قبول الدية ، وبذا يستريح الكل من محمد وما أتى به ، ولكن الله مانعه من الناس .

لقد كلف رسول الله عليه السلام ابن عمه على بن أبى طالب أن يبيت مكانه ليلة الهجرة ويتدثر ببردته فكان المشركون حينما ينظرون من ثقب الباب يرونه راقدا ويزعمون أنه طلبتهم، وظلوا كذلك فى موقفهم حول منزل الرسول حتى أتاهم من أخبرهم برؤيته لمحمد وهو خارج من مكة كلها فأفاقوا من سباتهم الذى ضربه الله على أبصارهم وأسماعهم وأسرعوا بالدخول إلي منزل المصطفى وكشفوا غطاء النائم ليجدوه عليا فكم كانت خيبتهم؟ وهم يرون الصيد الثمين وقد أفلت من قبضتهم.

لقد خرج الرسول (ص) وهو يشق صفوفهم ونشر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ قول الله تعالى " وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون" [١] فأصابهم العمى ، والصمم وسلم بذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام من أذاهم وانطلق إلي حيث أراد الله تعالى له ليكمل دعوته ويتم الله على يديه نعمته علي سائر خلقه فكانت الهجرة المباركة إلى يثرب.

ثم يصور الشاعر خطوات الرسول فى طريق هجرته .. فيقول[٢]

حتى إذا اتخذ الغار الأمين حمى

وقام بين صفاه نوم مجهـــود

حماه وشى بباب الغار منســـول

من الأولى هددوه شر تهديـــد

وحقا صدق الله تعالى إذ يقول جلت قدرته " ولله جنود السموات والأرض[٣] ومن جنود الله تعالى حمام يبيض على باب الغار وعنكبوت يبني بيته على بابه ليوهم المشركين أن الغار غير مطروق وأن أحدا لم يلجه منذ أزمان بعيدة...

---

(١) سورة يس الآية ٩ .

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

(٣) سورة الفتح الآية ٤.

وهكذا ألقى الله تعالى هذا الفكر في قلوبهم وعقولهم حتى إن قائلهم حين أشير عليه بالولوج إلي داخل الغار رفض قائلا : إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد .... (صلى الله عليه وسلم).

لقد أفزع قدوم المشركين على تلك الصورة المفزعة قاصدين الغار أبا بكر الصديق رضى الله عنه فارتعد قائلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله لو نظرا أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا .. ولثقة الرسول (ص) فى ربه ووعده له بالنصر رد قائلا:" يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما" والقرآن الكريم يصور ذلك فيقول : " إلا تنصروه فقد نصره الله إذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم"(١).

ثم يتحدث الشاعر عن روح التضحية والفداء والعزيمة والإيمان لدى أصحاب رسول الله (ص) متمثلا فى شخص أبى بكر الصديق ويظهر ذلك أثناء مسيرة الهجرة ، فلقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يسبق الرسول صلى الله عليه وسلم ويسير أمامه تارة ، وتارة يسير عن يمينه وأخرى عن يساره ثم يسير خلفه وحين يسأله

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٠.

الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك يجيبه الصديق بأنه يتخيل العدو مقبلا عليهم فينتقل إلى الجهة التى يظن العدو قادما منها ليكون فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ....

وحين يصلان إلي الغار يكون الصديق أول الداخلين ليطمئن على خلوه من الأذى ويسهر على راحة رسول الله وحراسته وكله خوف وإشفاق أن يناله أذى ، وحين يستقر المقام برسول الله (ص) فى الغار تقبل أفعى تجاه رسول الله وهو نائم ويتلقفها الصديق محاولا إبعادها عن أن تمس رسول الله بالأذى فتنال الصديق بأذاها وتوجعه فيبكي لما أصابه من أذى الأفعى وامتزج فى ذلك ألمه من الأذي وفرحه لفدائه رسول الله وتلك هى العقيدة التى صورها الشاعر فأحسن وأجاد يقول :[1] .

يا للعقيدة والصديق فى سهر
تؤذيه أفعى ويبكى غير منجود
إن العقيدة إن صحت وزلر لها
مغنى القرى فهى حصن غير مهدود

وتلك سمة العقيدة الحقة لاتزلزلها الأعاصير ولاتلين من قناتها الأحداث إنها حصن حصين وقوة قوية تقى صاحبها الزلل وتعصمه من الخطأ .

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

ثم يتناول بشعره هجرة أصحاب النبى ومافعلوه ليلحقوا بصاحب الدعوة على أرض يثرب حيث الآفاق الرحبة والحياة الجديدة التى تفتح ذراعيها لهذا النور الباهر الذى آذن الله تعالى له بالسطوع والانتشار فيقول: (١)

أما الصحاب الذين استأخروا فتلوا

سارين فى كل مسرى غير مرصود

لقد سرى المهاجرون من أصحاب رسول الله (ص) في كل الطرق وسلكوا كل السبل إلى الهجرة ليلحقوا برسول الله (ص) فهل كانوا فى ذلك ضعافا مهازيل تزعزهم الأحداث وأحوال الصحراء الموحشة؟ ونقول كلا .. فلقد تحول هؤلاء المهاجرين بالعقيدة فى قلوبهم إلى أسود شرى وتحصنوا بحصن الله الحصين الذى لاينهد جانبه ...

ويواصل الشاعر إبرازه لأبطال المهاجرين وقت خروجهم للهجرة فى صور متتالية عظيمة فبالرغم من خروجهم مستخفين فى الغالب إلا أنهم كانوا أعزاء النفوس فرسانا عظماء لايقاس بهم جند كسرى ولاجند قيصر .. ثم يقارن الشاعر بين أولئك الطغاة البغاة جند كسرى وقيصر وهؤلاء الأماجد من أصحاب رسول الله المهاجرين حاملوا لواء الخير والنور للبشرية ، أما طغاة الروم والفرس فلم يحملوا إلا راية الظلم والظلام والبغى والعدوان إلي كل بقاع وأجوها....

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

وشتان بين قوم الله ناصرهم لأنهم ينصرون دين الله تعالى فى الأرض وينشرون العدل والمساواه وآخرين ينصرون الشيطان والهوى يقول الشاعر [١]:

ماجند قيصر أو كسرى إذا افتخروا
كهؤلاء الأعزاء المطاريـــــد
كأنهم فى الدجى والنجم شاهدهـم
فرسان رؤيا لشأن غير معهـــود
كأنهم وضياء الصبح كاشفهـــم
آمال خير سرت فى مبهجة البيد
فى حيطة الله ما شعت أسنتهـم
فوق الظلال على المهرية القـــود

فما أجمل وما أجل هذه الصفات والمزايا والخصال التي أبرزها شاعرنا لخير الرجال من أصحاب الرسول الكريم ، ومهما بالغ الشارحون فى إبراز مافيها من معان فهى فى نظمها وهيئتها التى رسمها الشاعر أثرى وآثر من شرح الشارحين وتدبيج المدبجين ...

ونهاية هذه الأبيات دعاء الشاعر لهؤلاء الأماجد أن يحفظهم الله تعالى من كل سوء ويجنبهم كل مكروه فهم الرواد الأوائل الذين قامت بسواعدهم أعمدة بنيان الدين الجديد.

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٠.

ثم يصور الشاعر معاناة الرسول (ص) في دعوته وفى هجرته وغزواته وحروبه ووقوفه بقوة فى وجه أعدائه حتى مكن الله تعالى له ولدعوته فى الأرض فيقول: (١)

عانى محمد ماعانى بهجرته　　　لمأرب فى سبيل الله محمود

وهكذا كانت الهجرة إلى يثرب وما كان فيها من مشاق تحملها الرسول (ص) ابتغاء مرضاة الله تعالى فكان منها الخير الكثير والنفع الوفير للبشرية جمعاء وكانت الهجرة إلى يثرب بداية طريق الفتح والجهاد لم يركن المسلمون إلى الدعة والراحة بل شمروا سواعد الجد فى سبيل إظهار الدين الجديد وكثر أعداء الإسلام والمسلمين فى يثرب من مشركين ومنافقين ويهود واستقبل المسلمون حياتهم فى يثرب مشمرين عن سواعد الجد والمثابرة وتحملوا المشاق ابتغاء ورضوان الله تعالى حتى يكون لهم النصر والبقاء والتأييد من الله تعالي يقول الشاعر (٢).

وكم غزاة وكم حرب تجشمها　　　حتى يعود بتمكين وتأييد

وكأن التمكين والتأييد والقوة فى الأرض لا تكون إلا بجهد جهيد وصبر عتيد وهذا هو ما فعله رسول الله (ص) وهو القدوة المثلى لم يركن ولم يتخاذل بل أخذ بالأسباب وتحمل المشاق وتوكل علي الله

---

(١)، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

تعالى فكأن في عمله يقسمه شطرين فشطر يتحمله بقوة واقتدار ويهيئ له الأسباب وشطر يتوكل فيه على الله تعالى.

وبذا كان الرسول (ص) فى الحياة يأخذ بالأسباب ويبذل الجهد من أجل كل هدف يرمى إليه وهو مثلنا الأعلي وكان هذا شأنه فى الحياة فالواجب علي متبعيه أن يكونوا مقتدين به فى كل شأن من شئون حياتهم صغر أم كبر ...

يقول الشاعر حاثا على الجهاد والعمل ملتمسا العبرة من رسول الله[1] :

كذا الحياة جهاد والجهاد على قدر الحياة ومن نادى بهما فودى

فمن أراد الحياة الحرة الكريمة فعليه بالعمل والجهد وتحمل المشاق من أجل جند أفضل حتى يستطيع أن يعيش حياة كريمة طيبها أرغد وخيرها أكثر ونعيمها أوفر ويؤكد الشاعر هذا المعنى فى الأبيات التالية :

أوفى الكفاح كفاح المرء عن سفة
للاحتفاظ يعمر رهن تحديد[2]

لينعم العيش طلنا كل مقتحم
وليبلغ فى الأرض شقا كل وعديد

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١ .

الحياة عمل وكفاح والآجال محددة عند الله تعالى لايملك الإنسان إطالتها أو تقصيرها - إلا إذا ألقى بنفسه إلى التهلكة . وفيما عدا ذلك فالأعمار بيد الله تعالى وعلى المرء أن يستثمر أيام عمره فيما يعود عليه بالنفع العميم وهو إن فعل ذلك ضمن السعة والرغد فى الدنيا ، فإن قيده الخوف والجبن عن اقتحام الخطوب ضاقت عليه مسالك الدنيا "وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى " [١].

وكأن الشاعر أراد أن الإنسان يبلغ فى حياته على قدر جهده من العيش فى سعة وغنم إن هو بذل الجهد وتحمل المشاق فإن تقاعس وارتجفت أوصاله ضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وانزوى في ركن بعيد ضيق لايؤبه له ولايلتفت إليه ، وإذا كانت قيمة الإنسان فيما يقدم من أعمال وفيما يترك من أثر حسن يبقى بعده عمرا ثانيا يخلد علي الأيام ذكره وينشر عطره.

نجد الشاعر يقول[٢]

ومن عدا الأجل المحتوم مطلبه   عدا الفناء بذكر غير ملحود

---

(١) سورة النجم الآيات ٣٩-٤١.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

فإن من عمل بجد و نشاط ولم يعمل للمخاطر حسابا ، ولم يجعلها تقيد حركته فى الحياة فإنه يعيش مرفوع الرأس ، ويبقى عمله ذكرا طيبا على مدى الأيام كما قال الآخر[١].

فاعمل لنفسك بعد موتك ذكرها   فالذكر للإنسان عمر ثان

والشاعر يتوجه بالحديث إلى شعب مصر ويذكرهم . بكونهم مسلمين فى الغالب بأنهم يعلمون سيرة نبيهم ويقتدون بسنته ، فالواجب عليهم أن يسلكوا مسلكه وأن يسيروا على دربه فى الحياة حتى يحققوا آمالهم ولن يكون ذلك إلا بالجد والكفاح اقتداء بسنة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم.

والشاعر لاينسى مسيحيته فينبه المصريين إلى أنهم يجب أن يكونوا ملتفتين إلى سيرة نبيهم ومتمسكين بمسلكه فى الحياة لأنهم أعلم بذلك من سواهم ممن هم ليسوا علي دينهم كهذا الشاعر حين يقول: [٢].

لقد علمتم وما مثلى ينبئكم   لكن صوتى فيكم صوت ترديد

فهو لايرى نفسه عالما بشئون الدين الإسلامى بل هو مردد فقط لبعض مايعرفه وهو قلة بالقياس إلى مايعرفه معظم المسلمين من أمور

---

(١) الشوقيات أحمد شوقى جـ٢ ، ص٣٥.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

دينهم فحق عليهم أن يكونوا أشد تمسكا بدينهم وملتفتين بذواتهم إلي خصائص دينهم ليسوا بحاجة إلى من يلفتهم إلى ذلك وبخاصة من كان على غير دينهم...

ثم يتحدث عما أثمرته الهجرة لأمة الإسلام وهى السيادة والقوة علي الدنيا طالما تمسك الناس بالدين فيقول[1]:

ما أثمرت هجرة الهادى لأمته   من صالحات أعدتها لتخليد
وسمودتها على الدنيا بأجمعها   طوال ماخلقت فيها بتسويد

" فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها" "وإن الله لايضيع أجر من أحسن عملا" .. قاعدة وقانون باق على مدى الأيام أن الإنسان مجزى بعمله وقيمته فيما يسديه ويقدم للحياة الإنسانية من خبر أو شر وهكذا كانت ثمرة الهجرة كل الخير والسؤدد والرفعة للإسلام والمسلمين ...

إن الشاعر يرسم صورا فريدة فى قصيدته وهاهى صورة الشرك فى مكة وكيف كان؟ وما لحق الناس من جرائه من شر وبيل وأذى مستطير، وكيف كانت الحياة تسير في تلك البقاع التى انغمست في الشرك؟ وكيف جابه الرسول (ص) الشرك والمشركين ؟ وكيف تغلب

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

على كثير من العقبات والمصاعب، وبذا يعطى الشاعر صورة واضحة عن المجتمع المكى قبل بعثة النبى (ص) والثوابت التى كان يسير عليها المجتمع وقد كانت بلاشك خطلا فى الرأى وفسادا فى التفكير وضلالا وبهتانا ، وكان على الرسول (ص) أن يجابه ذلك وأن يقتلع من المجتمع كل تلك الأدران والأرزاء التى تعوق مسيرة الدعوة الوليدة يقول(١):

بدا وللشرك أشياع قوطده ... فى كل مسرح باد كل توطيد

والجاهليون لايرضون خالقهم ... إلا كعبد لهم فى شكل معبود

مؤلهون عليهم من صفاعتهم ... بعض المعادن أو بعض الجلابيد

هكذا كان حال الناس فى مكة من الناحية الدينية ، فهم فى شرك ووثنية يعبدون أصناما يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو من التمر فإذا جاع أحدهم أكلها...

فإذا تطرق إلي تصوير الحياة الاجتماعية والسياسية للعرب قبل الإسلام صور فيهم الكبر والبطر والتمزق والتشتت والكراهية ومحاولة بطش القوى بالضعيف وغلبة السفه والطيش عليهم فمن لهم ليخرجهم من ظلام الجاهلية إلى نور الإنسانية!!

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

يقول الشاعر :[١]

مستكبرون أباه الضيم غر حجى ثقال بطيش لدان كالأماليد
لاينزل الرأى منهم فى تفرقهم إلا منازل تشتيت وتبديد
بأي حلم مبيد الجهل عن ثقة وأى عزم مذل القادة الصيد

كان هذا حالهم فى الجاهلية ، فهم مستكبرون فى الأرض ، يرفضون الظلم من غيرهم ويذيقونه لسواهم ، ويفتكون بغيرهم فى صراعهم الدموى ، وحروبهم التى كانت تشب بينهم لأتفه الأسباب وهم متفرقون متناحرون غالبا لايطيقون حكما من سواهم ، ولايرضون إلا بأحكامهم التى تكون غالبا من منطلق الهوى بعيدة كل البعد عن الحق والرشاد .

وإذا كان الأمر كذلك فى تلك البيئة فمن لمثل هؤلاء وهم على مثل تلك الصفات أن يسوسهم ويبدل من سئ أخلاقهم ويذل قيادهم ويصهرهم في بوتقة واحدة ويجمع قوتهم المتفرقة التى يسودها الكفر والضلال ليجعل منها قوة قوية راشدة مؤمنة تصنع الخير متحدة غير متفرقة.

وإذا كان الجاهليون على مثل تلك الصفات التى ذكرها الشاعر فأى حلم وأى عزم يقدر على أن يعيد صياغة تلك النفوس

---

(١) ديوان الخليل جـ١ ، ص٤١.

ويبرئها من الشرك ليحل محله توحيد الواحد الأحد ، وأن يتمكن من محو هذا الطغيان الشيطانى ليحل محله العز الربانى حتى يكونوا كما قال الله تعالى .. "أذلة على المؤمنين أعزه على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولايخافون لوم لائم.." [١].

وهكذا نجد أن هذا الشاعر المسيحى يجسد صفات رسول الله (ص) ويصورها أحسن تصوير ، ويعظمها ويجعل لها الغلبة على ماسبق تصويره من صفات المشركين وخلالهم فيقول[٢]:

بأى حلم مبيد الجهل عن ثقة وأى عزم مذل القادة الصيد

وهذه بعض الصفات المثلي التى تحلى بها رسول الله (ص) وتمكن بها من تغيير حال المجتمع إلى الأفضل وانتشال أمة العرب من رغام الجاهلية ورفع رايتها عاليه خفاقة ، فقد قضى علي الشرك والوثنية ووحد المجتمع وصهره فى بوتقة واحدة ونحى عوامل الفرقة والتباغض بما أتي من مبادئ سامية كانت بها إعادة صياغة المسلم ليكون لبنة قوية فى مجتمع قويم فيقول: [٣].

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٤.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

(٣) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

أعاد ذاك الفتى الأمى أمتـــه شملا جميعا من الفر الأماجيد
لتلك تالية الفرقان فى عجـــب بل آية الحق إذ يبقى بتأكيـد
صعبان راضهما: توحيد معشرهم وأخذهم بعدا إشراك بتوحيـد

أمران غاية في الصعوبة : التوحيد بعد الإشراك والوحدة والائتلاف بعد الفرقة والشتات فكيف يتم ذلك ؟ وبيد من يحدث ؟ إنها المعجزة الكبرى التى أتت من عند الله تعالى الذى لايعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء لخير الإنسانية ، فكانت الرسالة ، وكان القرآن الكريم وستور الأمة بلسما لكل آلامها وشفاء لكل جراحها وبذا تحققت المعجزة الكبرى وأصبح الناس فى دين الله إخوانا متحابين حين تمسكوا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه امتثالا لأمر الله تعالى .

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعاد بناء المجتمع على دعامتين هامتين هما التوحيد لله تعالى والوحدة بين المؤمنين ، وبذا صار المجتمع قويا متماسكا فقد اتجه بعد ذلك إلي نواح أخرى تتعلق بالمجتمع الجديد....

ولما كان الإنسان مدنى بطبعه ولم يخلقه الله تعالى ليعيش منفردا فى عزلة عن غيره ، ولما لم يكن المسلمون وحدهم الذين يعيشون فى يثرب بل كان يجاورهم سواهم من غير المسلمين من مسيحيين ويهود ، فقد كان من أعماله العظيمة بتوجيه الله تعالى أن

قام بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فى المدينة وبعد أن تم التئام شمل المجتمع المسلم فى المدينة قام الرسول (ص) بإبرام المعاهدات مع مساكنيه من غير المسلمين ، فقد تعاهد معهم على أن يكونوا جميعها يدا واحدة فى وجه من يحاول إلحاق الأذى بيثرب .. والعدل والمساواة فيما بينهم وبهذا كان عليهم ألا يناصروا أعداء المسلمين على قيامهم بحرب المسلمين .

ولاشك أن هذا من الأعمال العظيمة التى قام بها الرسول الكريم يقول الشاعر: [١]

وزاد فى الأرض تمهيدا لدعوته　　　بعهده للمسيحيين والهود

لقد كان المسلمون فى مكة يواجهون عدوا واحدا هم المشركون ، ولكنهم بعد الهجرة زاد حسادهم ، وتعددت مصادر العداء لهم ولدعوتهم ودولتهم الوليدة ، فبالإضافة إلى مشركى مكة وعدائهم برز عنصر اليهود والمنافقين كأعداء جدد للدعوة الإسلامية ، فما كان من الرسول الكريم إلا أن عقد معهم العهود والمواثيق لتأمين جبهة المسلمين وتحييدهم فى الصراع الدائر بين المسلمين والمشركين، وقد فعل الرسول الكريم ذلك ليتفرغ لنشر الإسلام فى شتى البقاع ، والتخوم وتأمينا لجانب المسلمين ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا بعهودهم مع رسول الله وحاولوا إلحاق الأذى ، ببعض المسلمين والمسلمات بل تعدى الأمر إلى محاولتهم قتل رسول الله (ص) فى كثير من الأحيان ونجاه الله من شرورهم.

---

(١)　ديوان الخليل جـ١ ، ص٤١.

وحين قابلوا الإحسان بالإساءة وفعلوا مافعلوا برسول الله والمسلمين لم يكن من رسول الله إلا . أن حاربهم وقضى عليهم وطهر المجتمع المدنى من شرورهم.

ويواصل الشاعر إبراز أعمال الرسول (ص) المجيدة فى سبيل بناء المجتمع الإسلامى الجديد فيقول: (١)

وبدئه الحكم بالشورى يتم به   ماشاءه الله عن عدل وعن جود

وفى هذا البيت يتحدث الشاعر عن ركيزة مهمة من ركائز الدين ودعامة قوية من دعائم المجتمع المسلم التى يقوم عليها بناؤه، ألا وهى الحكم بالشوري والبعد عن التسلط والاستبداد بالرأى والطغيان والديكتاتورية كما يقال الآن - وبذا يكون الإسلام قد سبق كل دساتير العالم فى أمر الحكم بالشورى والعدل والديمقراطية والسماحة والمساواة بين الرعية ، ولقد بدأ الرسول الكريم حكمه للمجتمع الإسلامى بالشورى والعدل امتثالا لأمر الله تعالى قال تعالى وأمرهم شورى بينهم (٢) "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (٣) ، ثم تكون النتيجة التى خلص إليها الشاعر عن الرسول الكريم والإسلام والمسلمين ، ومسلك الرسول (ص) فى بناء المجتمع الإسلامى الوليد متمثلا فى هذا البيت الذى يقول فيه (٤).

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

(٢) سورة الشورى الآية ٣٨.

(٣) سورة النحل الآية ٩ .

(٤) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

هذا هو الحق والإجماع أيــده فمن يفنده أولى بتفنيــد

نعم هذا هو الدين الحق كما صوره الشاعر فمن يحاول إلصاق النقائص به فهو المخطئ دون الإسلام ، وهو عدو يحاول النيل من الإسلام دون سند هذه هى الصورة المثلى التي قدمها الشاعر عن الرسول الكريم (ص) وجهاده وهجرته وما لاقى فى سبيل إتمامها ، كما صور الشاعر صحابة الرسول (ص) وتحملهم المشاق والأذى ، وقارن بينهم وبين جند من سبق من الأمم ، وكان الرجحان والامتياز والتفرق من نصيب صحابة رسول الله (ص) دون جند كسرى وقيصر....

وبذا يكون شاعرنا قد رسم صورة عظيمة أبرز من خلالها جهد الرسول الكريم وبلاء أصحابه الأبرار فى سبيل نشر الدعوة ، وماتحملوا فى سبيل ذلك ، حيث تغلبوا على كل الصعاب ولم يهنوا ولم يحزنوا ولم يركنوا بل أطاعوا الله ورسوله، وأخذوا عن الرسول (ص) الأسوة والقدوة والمثل الأعلى ، حتى نجحوا فى مسيرتهم فى الحياة وكانوا بذلك أسوة لغيرهم .

وبعد أن جسد الشاعر صورة جهادهم نجده يتجه إلى المصريين حاثا لهم على الأخذ بالقدوة والأسوة الحسنة متمثلة فى رسول الله (ص) وصحابته وذلك موضع الدرس وموطن العبرة من هذه الأبيات التى تفيض سناء وعطرا فواجا من شذى سيرة الرسول الكريم وصحابته الأبرار وهنا يلفت الشاعر أنظار المصريين إليهم فيقول[١]:

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

أى مسلمى مصر إن المجد دينكم

وبئس ماقبل شعب غير مجدود

طال التقاعس والأعوام عاجلــة

والعام ليس إذا ولى بمـردود

هبوا إلى عمل يجدى البلاد فما

يفيدها قائل يا أمتى سودى

إن دين الإسلام هو دين العمل والكفاح والرسول وصحبه خير مثال ألم يأمرنا الله تعالى فى كتابه بالعمل قال تعالى .. وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" [1] . وقال تعالى فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله" [2] .. ولما كان الشعب المصري مسلما حق عليه أن يلتزم بما أمر الله تعالى ويعمل ليعيش حرا كريما ، وإذا كان قد لحق بالكثير التقاعس والإهمال وترك الأعمال فإنه قد آن الأوان ليشمر كل سواعده ويقبل على عمله فإن الأيام تمر ، فإذا لم يكن عمل مفيد فإنه سيكون الضياع فإن البلاد فى حاجة إلى عمل نافع يعود بالخير عليها وعلى مواطنيها وفرق بين العمل والكسل، ففى العمل الخير وفى الكسل البوار ولايصلح حال الأمة من يكون همه القول دون العمل فإن سيادة الأمم

---

(١) سورة التوبة ١٠٥.

(٢) سورة الجمعة الآية ١٠.

لاتكون إلا بالأعمال، أما الأقوال فلا تجدى ولاتسمن ولاتغنى من جوع " يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون"[١] ، ولهذا فإن الشاعر يواصل حثه لشعب مصر طالبا منهم أخذ العظة والعبرة والاستفادة بالمثل والقدوة من التاريخ الإسلامى فيقول[٢]:

أبناء مصر عليكم واجب جلل   لبعث مجد قديم العهد مفقود

ولم يكن ذلك المجد القديم العهد المفقود إلا مجد الإسلام الذى فقدناه يوم تركنا ما أمرنا ربنا بالتمسك به ، وما وجهنا إليه نبينا ، ولم نعمل بقول الله تعالي .. "ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" [٣].

فتركنا ما أمرنا الله تعالى بأخذه ، ولم ننته عما نهانا الله عنه فصرنا إلى ما نرى من الضعف والهوان والتمزق وصار بأسنا بيننا شديدا ، ولم ننصر الله فى دينه فلم ينصرنا ونسينا ، وحين ننصر الله تعالى بالتمسك بدينه والعمل بشريعته ينصرنا الله تعالى وتكون لنا العزة والغلبة على أعدائنا المتربصين قال الله تعالى .." ولله العزة ولرسوله والمؤمنين.."[٤].

---

(١) سورة الصف الآية ٢.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

(٣) سرة الحشر الآية ٧.

(٤) سورة المنافقين الآية ٩.

وهذا هو مايريده الشاعر إذ يقول[١]:

فليرجع الشرق مرفوع المقام بكم
ولتزه مصر بكم مرفوعة الجيد

ولن يرتفع مقام الشرق اليوم إلا بما ارتفع به فى الأمس ...

ويواصل الشاعر حلمه الجميل لمصر فيقول: [٢].

ما أجمل الدهر إذ يأتى وأربعنا حقيقة الفعل والذكرى بتمجيد

إن الحياة تزهو بالعمل الطيب والتقدم الجميل الذي يحفظ للإنسان كرامته إذا أقبلت الأيام وفى جنباتها المدنية والحضارة والتقدم والسيادة كما كانت فى الماضى فإن بلادنا تكون غاية الإبداع والجمال وطيب العيش ولن يتحقق ذلك إلا بالعمل الجاد الذى يرفع من قيمة الوطن والمواطن حين تكون ذكرى الهجرة عاملا على بث روح العزيمة والحماس والحمية فى نفوس المواطنين .

هذا هو الدرس الذى حاول الشاعر توجيه النظر إليه وكان غرض الشاعر من العظة والعبرة فى هذه المناسبة الهامة فى التاريخ الإسلامى هو إيقاظ العزائم وبث الحماس فى نفوس المصريين علهم يثوبوا إلى رشدهم ويهبوا نشطين إلى خير الأعمال لصالح وطنهم

---

(١) ، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤١.

وتكون الهجرة ودورسها هى محركهم نحو التقدم والنهوض كما كانت فى الماضى بداية للحق الأبلج ونهاية للباطل الأحمق الذى كان يضرب بجرانه فى سماء الدنيا قبل الإسلام.

وبذا يكون الشاعر خليل مطران قد تناول الهجرة وتحدث عن الإسلام ورسوله الكريم وصحابته الأبرار وأبرز فضائلهم الجليلة وأعمالهم العظيمة ليكون ذلك نبراسا يهتدى به السالكون من أبناء مصر في محاولتهم إنهاض الوطن وإسعاده..

ولا يقف الأمر بالشاعر فى تناوله لمعانى الإسلام عند هذا الحد ففى ديوانه الزاخر أشعار متفرقة من يقرؤها ويمعن النظر فيها يجدها تتناول مظاهر إسلامية جسدها الشاعر فى شعره فغدت معانيها واضحة للعيان.

وهكذا نجد هذا الشاعر المسيحى منصفا للإسلام أى إنصاف وحق لنا أن نقدره حق قدره ، وأن نظهر منه هذا الجانب المضئ فيه والذى اتسم بالشجاعة والإنصاف لمبادئ الإسلام وأهله من الرواد الأوائل...

وتأكيدا من الشاعر على أهمية الهجرة للرسالات كلها ومنها الرسالة المحمدية وللهجرة المحمدية التى كانت فتحا للإسلام والمسلمين نجده يقول[١]:

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٢٣٧.

موسى وعيسى بعده ومحمد فروا من الظلام أى فرار !!

وبذا يظهر من خلال تعبير الشاعر تأكيده على بشرية الرسل الثلاثة الذين ورد ذكرهم في البيت ، كما يؤكد مالاقوة من ظلم وعسف وأذى بسبب اختيار الله تعالى لهم ليكونوا رسلا إلي الناس الأمر الذى أدى بهم إلى أن يهاجروا فرارا من الظلم إلى ربوع آمنة يستطيعون فيها عبادة الله تعالى وقد تحقق من ذلك لمحمد (ص) ما كان يريده من الهجرة من الأمن والعزة يقول الشاعر.. (١)

بالهجرة اتسقت لهم أسباب ما أو توه من نقض ومن إمرار
فى كل ماجل إجتماعا شأنه شفعت قوى لدعاته الأطهار
ومن إبتداء الدهر أعلنت غربة كلم الثقات على قوى الفجار

فبالهجرة اتسعت آفاق الدعوة الإسلامية وكانت بداية طريق النصر والقوة وإعلاء كلمة الله تعالى .. وفى قصيدة أخرى يشيد بذكرى الهجرة وآثارها للدين الإسلامى فيقول(٢):

سلام على ذاك الهلال من امرئ صريح الهوى والحر لا يتكتم
سلام وتكريم بحق كلاهما وأشرف من أحببته من تكرم

ويذكر مطران السبب فى هذا الحب الذى يكنه فى قلبه للإسلام فيقول مخاطبا الهلال: (٣).

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٢٣٧.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص١٢٧.

(٣) ديوان الخليل جـ٢ ، ص١٢٧.

هويتك إكبار الما أتت رمــزه   من المأرب العلوى لو كان يفهم
وعلما بأن الشرق ينمو ويرتقى   بأن يتصافى عيسوى ومسلــم

وكل ماتحمله للأبيات من معان سامية توافق ماجاء فى القرآن والسنة المطهرة من العلم والعمل والسماحة والطهارة وحسن الخلق وكلها خير للإنسان يقول الشاعر: (١)

أرى كل دين جاء بالخير طاهرا   ولاشئ غير الشر عندى منهم

في رثائه للزعيم مصطفى كامل يبدأ قصيدته بقوله(١)

أعلى مكانتك الإلــه وشرفــا   فانتم بطيب جواره يا مصطفى
اليوم فزت بأجر ما أسلفتـــه   خيرا وكل واجد ما أسلفـــا
وجزيت من فانى الوجود بخالد   ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

الشاعر يذكر أن للكون إلها ينتقل الإنسان بالموت إلى جواره وهو سبحانه يجزى كل إنسان بما قدمت يداه من خير أو شر.

وفى شعره فى رثاه الزعيم مصطفى كامل يتطرق إلي الدين الإسلامى وموقف الشهيد منه، ويبين الشاعر كيف أن الإسلام متهم فى نظر أعدائه وكان الزعيم يدافع عنه فى حياته فمن يدافع عنه بعد

---

(١)، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص١٢٧.

رحيل الزعيم يقول الشاعر: [١]

من يبرئ الإسلام من تهم العدا ويرد نقد الناقدين مزيفا

ويثير من غضب الغضاب لمجده همما تعيد له المقام الأشرفا

وكأن الشاعر يتجسر لفقد الزعيم الذى كان يرد عن الإسلام فقد الناقدين وسهام الكائدين ويعيد مجده الذى كان ...

ثم يقول : [٢]

ولعل حرا لايدين به أنبرى ليذود عنه خصمه المتعسفا

وأرجح الآراء لدى أن الشاعر يقصد نفسه بهذا البيت وقد تبين ذلك من خلال مطالعتنا لشعره فى مناسبة الهجرة النبوية وهو يدلل على ذلك الموقف المنصف بقوله [٣]:

لم تنزل الأديان إلا هاديا للعالمين ورادعا ومثقفا

بشعار حى على الفلاح وما بها إن قصر الأقدام عنه فأخلفا

فهذا موقف الشاعر من الأديان وهو موقف إسلامى وكأن الشاعر قد نظر إلى قوله تعالى " قولوا آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أتى

---

(١) ، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص ١٢٧.

(٣) ديوان الخليل جـ١ ، ص٣٠٨.

موسى وعيسى وما أوفى النبيون من ربهم لاتفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" [١].

ثم يشيد الشاعر بما كان للإسلام من مجد وعزة وقت أن كان المسلمون يطبقونه عمليا فى حياتهم فكانت لهم الحضارة الزاهرة يقول الشاعر [٢]:

ملأ البلاد إنارة وحضارة ....

وبذا يرد الشاعر على من يتهمون الإسلام ظلما بأنه دين البربرية والتعصب والهمجية - ولقد كان للإسلام هذا الشأن الذى صوره الشاعر حين كان الناس متمسكين بدينهم وحين تركوا ماأمرهم الله بالتمسك به ضلوا وتاهوا ولاهداية لهم إلا بالعودة إلى ماكان عليه الأسلاف وذلك هو مايصفه الشاعر لأدواء الأمة فيقول[٣].

ومنى السماحة عوده مستأنفا ... !!

فلا صلاح لآخر الزمان إلا بما صلح به أوله وهو الإسلام ، وكذبت كل النظريات الحديثة بجانب الإسلام . "لأنه تنزيل من حكيم حميد" وسواه من وضع البشر ويؤيد ذلك الشاعر فيقول[٤]:

---

(١) ، (٢) سورة البقرة الآية ١٣٦.

(٣) ، (٤) ديوان الخليل جـ١ ، ص ٣٠٨.

فالخير كل الخير فيه مقيلا والشر كل الشر أن يتخلفا
وهذا هو الدين الحق والعدل الذى لامراء فيه ....

إن رسول الله خاتم النبين والمرسلين ورسوله إلى الناس أجمعين جدير بأن تؤلف في سيرته الكتب وتدبج القصائد والمقالات ثناء عليه وإشادة بذكرة لما قدمه للإنسانية من نور وخير ...

* حين يثني مسلم على نبيه فى كتاب لايكون ذلك منه بدعا أو شيئا لافتا للنظر فهذا واجبه وفرض عليه أن يصلى على رسول الله (ص) في كل حين ويكون ذلك خيرا له فى الدنيا والآخرة ، إضافة إلى مايجب عليه عمله تجاه الرسول الكريم من تمسك بسنته.

لقد ألف أحد الكتاب مؤلفا تناول فيه حياة الرسول الكريم وأعماله وجهاده فلم يملك هذا الشاعر المسيحى إلا أن أثنى على الكتاب ومن خلال ذلك كان ثناؤه علي الرسول الكريم الذى وصفه باليتيم الذى تنزل الوحى عليه نورا تجلى لخير الدنيا من عند الله تعالى يقول الشاعر(١) :

كتاب محمد فيه افتنان أفاض من الحديث على القديم
وحلى باليتيم سموط در تسلسل سيرة الفرد اليتيم
إذا ما الوحى عاد به جديدا ولم يك بالهجين ولا السقيم
فذلك أن أنوارا تجلت به من مهبط الله الحكيم

---

(١) ديوان الخليل جـ١ ، ص ١٧٩.

لآيات الحجى والقلب فيـــه   روائع تستبى لب الحكيـــــم
هو الشعر الطليق من القوافى   ومفخره النثير على النظيـــم

وإذا كان الإسلام دين الدنيا والآخرة ، ولا خير فى المسلمين إن لم يكونوا متمسكين بما أمرهم به ربهم ليكونوا صورة مثلى للإنسان على الأرض فإن فعلوا ذلك فقد أرضوا ربهم وجلبوا الثناء لهم من سواهم وهذا شاعرنا يثنى على المسلمين الذين كانوا فيما مضى وقد حسن إسلامهم فنالوا الدرجات العلى بقول الشاعر[1].

فتية المسلمين بالعلم والتقوى   لخير الفتوح خير الجنـود
سلكوا كل مسلك حسن فـى   طاعة الله والتزام الحدود
فإذا استنفروا لدرء الأعادى   عن حماهم فما هم بعـود

وهذا هو خلق المسلم علم وتقـوى ورجـولة وطاعـة لله تعـالى وشجاعة فى الحق وتلك خلال المسلمين التى سادوا بها الدنيا وقت أن كانت الشعوب الأخرى تهيم فى الجهالة الضلال.

* والأزهر قلعـة الإسـلام التى تحطمت عليـهـا أمـواج الكفـر والضلال والغزو الخارجى الذى أتى من وراء البحار وطلابه فى حاجة إلى من يمد لهم يد المساعدة على ولوج طريقهم فى تحصيل العلـــم

---

(١) ديوان الخليل جـ٢، ص ٢٧٣.

النافع بما يصيرون به حراسا للعقيدة وحماة لدين الإسلام ورجال الدين الموفورين ، والشاعر يثنى عليهم ويطالب بإعانة الطلاب الفقراء منهم حتى يشبوا ويأخذوا طريقهم فى حماية الدين فيقول[١] :

أهلا يرهط الفضل من نجب ... بهم التقى والعلم واللسن

بالناصحين ونصحهم بلج ... بالناهجين ونهجهم سنن

خير الدعاة إلى الوفاق على ... مايقتضيه الشرع والسنن

جادوا بسعى لايوازنه ... بالقدر حمد جل مايزن

بجميل ماصنعوا وماردفوا ... فاز الوئام وخابت الإحن

حكماء إن عرضت لأمتهم ... حاج نهم لأدقها فطن

الأزهر الأزهى له منن ... عظمت وهدى دونها المنن

هذه صورة الأزهر فى عقل شاعر مسيحى ، لايعنيه الأزهر فى شئ ومن الممكن أن يكون واجدا عليه موغر الصدر منه ، يرى فيه صخرة صلبة تقف في وجه مايعتنقه ولكنه الإنصاف الذي يتحلى به الشاعر وهو الذى جعل شاعرنا يعرف لعلماء الأزهر قدرهم ويرى منزلتهم عظيمة لفضلهم وعلمهم ربما رأينا مسلمين يجحدون فضل الأزهر وعلمائه ودوره فى الحياة رغم كونهم مسلمين فشتان بين الموقفين...

ثم يكون حثه على تقديم المساعدة لطلاب الأزهر فيقول[٢] :

---

(١) سورة الزمل الآية ٢٠.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص١٧٠.

طالب العلم أجدر بالحسنى إذا ما ابتغى الصلاح الأنام
من يعاونه بالحطام يحقق في غد قدر ما أفاد الحطام

ودينتنا يأمر بالبر والتقوى ولن يضيع أجر من أحسن عملا- وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله "[١] يقول الشاعر[٢]:
من يقلده نعمة يوم عسـر فعلى قومه له الإنعام
من يبدد عنه الغياهب يطلع كوكبا تهتدى الأحـلام
للنبيين معشر كفلوهـم والنبيون قصر أيتـام

نعم كان رسول الله (ص) يتيما كفله جده وخلفه فى كفالته عمه ولذا يقول :
ماعلى العلم لا ولا طالبيـة من نصير غضاضة أو ذام

* ومن المعاني الإسلامية التى بدت ظاهرة للعيان فى شعر مطران مانظمه من شعر فى فجيعة مقتل المجاهد الكبير الشهيد عمر المختار حيث يقول[٣] :
أبيت والسيف يعلو الرأس تسليما
وجدت بالروح جود الحر إن ضيما

---

(١) سورة الزمل الآية ٢٠.

(٢) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٨١.

(٣) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٨١.

ففى البيت تصوير لمعانى الإباء والشمم والجود بأغلي مالدي الإنسان وهى الروح ، وتلك صورة مثلى في الفداء والتضحية ، حيث يقدم الإنسان على الاستشهاد فى سبيل هدف أسمى لينال رضا الله والجنة وذلك هو ما كان يفعله المسلمون الأوائل ويمثله سادوا والشهيد يعيد الماضى المجيد فى تضحيته بنفسه من أجل وطنه يقول الشاعر[١]:

تذكر العرب والأحداث منسية

ما كان إذ ملكوا الدنيا لهم خيما

فإذا نسى الناس التاريخ فإن فى مثل تلك الفجيعة مايذكرهم بالمجد الغابر ويبين لهم كيف كان العرب يحصلونه ..

ولما كان المسلم مؤمنا بالقضاء والقدر ومعتقدا أن مايصيب الإنسان مقضى ومقدر وأن الآجال بيد الله تعالى وهى معلومة ومحدودة من الله تعالى لذا فإنه لاينكص على عقيبة عند الشدائد ولايعرف الجبن طريقه إليه يقول الشاعر :[٢]

لله ياعمر المختار حكمته فى أن تلاقى مالاقيت مظلوما

إن يقتلوك فما إن عجلوا أجلا قد كان مذ كنت مقدور ومحتوما

هل يملك الحى لو دانت له أمم لأمر ربك تأخيرا وتقديما

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٨١.

وصدق الله تعالى فى محكم كتابه إذ يقول " فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون".[١]

وهكذا يتجلى فى شعر الشاعر إيمانه بالقضاء والقدر وأن الإنسان مهما علت منزلته واتسع جاهه وامتد سلطانه فلن يستطيع تأخير ساعة منيته إن هى حلت ...

* اللغة العربية : هى لغة العرب وبها نزل القرآن الكريم وهى عامل أساسى في وحدة الأمة العربية والإسلامية فواجبنا الحفاظ عليها لأنها معجزة الإسلام ولغة القرآن ، فحق علينا الحفاظ عليها حتى لايستعجم علينا فهم القرآن الكريم ، لذا كان الحاقدون دائما يتوجهون إلى الفصحى محاولين إماتتها وإحلال العامية محلها...

وهنا يأتى دور المخلصين والمحبين للعربية الذين ينبرون للدفاع عنها ورد كيد الكائدين فى نحورهم وتبقى الفصحى لغة القرآن قوية على مدى الأزمان رغم ماقد يعتريها من ضعف لعدم العناية بها ممن هم أهلها الذين يهملون شأنها ويتركون الفرصة للعامية يزداد انتشارها.

والشاعر هنا يبين منزلة العربية وأهميتها وواجب العرب نحوها حتى تعيش قوية تؤدى دورها فى الحياة وتجمع الأمة على كلمة سواء يقول الشاعر :[٢]

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) ديوان الخليل جـ٤ ، ص ١٠١.

إن للفصحى قشورا هيـــأت   أمم العرب له كل سبـــب
مايريدون من الشعـــر إذا   لم يكن صور القشور المرتقب
ذلك البحث هو الفتح الـذى   ليس يعدوه لذى لـــب أرب
وهو الجامعة الكبرى لمن فاه   فى الشرق بضاد أو كتـب
فلئن لم تؤت ماحق لهـــا   قبل الجيل لقد تب وتـــب

وفى موضع آخر يدافع عن اللغة الفصحى ويشيد بها ويتساءل عن يحاولون إلصاق المعايب بها فيقول: (١)

أصول الضاد طيبـــة الأروم   تفرع كل تفريع مـــروم
ترى فى روضها ماتشتهـــيه   هناك من البواسق والنجوم
وتلقى من طريف الوشى فيها   أفانين الأزاهر والوشـــوم
فدع مايدعيه كل خصـــم   خفى الكيد أو قدم غشوم

وإن من يحاول إلصاق المعايب بها فهو واهم لأن المعايب سوف تعود إليه هو لما قصر فى حق لغته يقول الشاعر: (٢).

وسل عما جنى منها الجبـــل   فجيل كل مطلع عليـــم
أما فى عصرنا هذا فخـــول   أعادوا روعة العصر العظيم
وآتوها مفاخر أثلوها تزيـــد   مفاخر الإرث الكريـــم

---

(١)، (٢) ديوان الخليل، جـ٤، ص١٧٧.

فإن ينعوا على الفصحى قصورا   فقد يقع الملام من المليـــم
أمنها العجز أم منا ومـــاذا   على المخدوم من عجز الخديم

وهذا مايراه شاعرنا بالنسبة للفصحى فلا عجز بها ولا ضعف في ذاتها أما العجز إن وجد - فهو بالقائمين على أمرها والمقصرين فى حقها.

* ومن الأمور التي وردت فى شعره وتحدث عنها وهى من سمات الإسلام الصبر عند المصيبة. وتجلى ذلك فى حديثه فى مناسبة وفاة إحدى الشخصيات الهامة فى عصره فيقول معزيا: [١].

عظم الله أجركم إن وعد الله   حق للصابرين الكرام
يابنيه بسنة الله لـــو ذوا   فيها برء كل جرح دام

وكأنه أراد قول الله تعالى - وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون" [٢].

وفى شعره حديث عن رموز إسلامية ...

---

(١) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٢٧٧.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٥٥.

فمن ذلك قوله حين مدح الملك عبد العزيز آل سعود :[١]

نعم الأمين لبيت الله يوسعه برا ويرعاه فى تقوى وإيمان
أقر حاضره عدلا وباديه ما أنفع العدل مقرونا بإحسان

ففى البيتين حديث من الشاعر عن الأمانة وهى ثقيلة تأباها النفس، وذكر لبيت الله الحرام، والتقوى والإيمان والعدل والإحسان...

وكل ماسبق الحديث عنه فى شعر الشاعر أسس وحقائق من الدين الإسلامى .. تناولها السشاعر فى شعره وعبر عنها فأحسن التعبير ولم يكن ذلك التصوير والتعبير الذى صدر عن الشاعر فى صورة قوية متسقة إلا إنصافا وإحقاقا للحق وعدلا وإحسانا قل أن نجده لدي سواه .

وفى كل مامر من معان إسلامية برزت فى شعر شاعرنا خليل مطران ومن خلال ذلك يلمس القارئ أنه نظم هذه المعانى فى شعره من منطلق عقلانيته وإنصافه لدين قويم لاعوج فيه ولا التواء بل هو الطريق السوى المستقيم قال الله تعالى .. وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[٢].

---

(١) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٣٦٣.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥٣.

الدراسة الفنية

بعد أن طوفنا فى شعر مطران الإسلامى - هذا الشاعر غير المسلم والذى تناول به أمورا من صلب الدين الإسلامى وحقائقه ومبادئه وقيمه العليا فى شعر تناولناه بالتمحيص والدراسة.

حق علينا أن نبين ما اشتمل عليه شعره من معان وأفكار ، وكيف حلق بخياله فى شعره ورسم صوره الشعرية وهندس أبنيته التعبيرية التي حاول من خلالها إظهار تلك المعانى ...

ولما كان الأدب يشتمل فى مضمونة على عناصر أربعة هى :
الفكرة - العاطفة - الخيال - الصورة
كان لزاما علينا أن نبحث عن هذه المضامين بين طيات شعر هذا الشاعر وأولها :

١- الحقيقة أو الفكرة أو المعنى أو المضمون ، وهذا العنصر أساسى فى كل عمل أدبى ، إذ لابد من حقيقة ننفعل بها ، وموضوع متأثر به، وفكرة تستولي على مشاعرنا وإلا فبماذا ننفعل إذا لم يكن ثمة مايثير عواطفنا ويوقظ مشاعرنا ويهز نفوسنا [١].

---

(١) دراسات فى النقد الأدبى د.حسن جاد حسن ص٥.

فماذا بالنسبة للشاعر خليل مطران من حقائق الإسلام ومبادئه وقيمه ، والتي جعلته ينفعل بها ويعبر عنها في شعره ، ويجسدها للعيان كأعظم مايكون الشعر ...

إن الاسلام دين قويم لا عوج فيه ولا التواء فهو كما قال الله تعالى في شأنه "دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وماكان من المشركين"(١).

ومن حقائقه توحيد الله تعالى وعبادته وعدم الإشراك به تعالى يقول رب العزة جل وعلا "واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا"(٢).

ويلي ذلك شخص الرسول الكريم (ص) وكونه بشرا سويا ومبلغا عن رب العزة ومبشرا ونذيرا ، لايرقى إلى مرتبة الألوهية لأنه بشر ولا تعدد للآلهة فأمرنا التوحيد، ولاينحط إلى أدنى مراتب البشرية ، بل "هو خيار من خيار" ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه.

وهناك الرسالة الآلهية التي كلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودورها في إنقاذ البشرية ورقيها ، ثم إيذاء المشركين المعاندين له.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦١.

(٢) سرة النساء الآية ٣٩.

ولدعوته الحقة ، ثم الهجرة ودورها في فتح آفاق الدعوة الإسلامية وانطلاق الإسلام إلى شتي الأرجاء ترفرف رايته وتعلو مكانته وتتسع رقعة دولته ، من أقصى الدنيا إلى أقصاها بفضل جهاد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وجهاد أصحابه الأبرار من بعده ، كل هذه وأكثر منها حقائق انفعل بها الشاعر وتأثر ...

ثم هناك قدوة حسنة متمثلة في شخص الرسول (ص) وجهاده من أجل دين الله تعالى وتحمله المشاق وتغلبه على الصعاب ، كل ذلك كان مناط القدوة بالنسبة للشعب العربى الذى يقاسى الأهوال ، ويعيش حياة قاسية.

وبالتالى فهو فى حاجة إلي أخذ العظة والعبرة والقدوة الحسنة من رسول الله (ص) وأصحابه فهو كما قال الله تعالى "لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة.."[١] فحق على كل مسلم أن يقتدى برسول الله (ص) فى حياته وجهاده وهذا هو مايعنيه الشاعر فى أبياته .. وها هو يصور فى شعره ماكان عليه الحال فى مكة من جاهلية وشرك متأصلين فى وجدان البشر يطبقان على مسيرة حياتهم ومعاملاتهم يقول الشاعر:[٢]

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

بدا وللشرك أشياع توطـــده   فى كل مسرح باد كل توطيد
والجاهليون لايرضون خالقهـم   إلا كعيد لهم فى شكل معبود
مؤلهون عليهم من صناعتهم   بعض المعادن أو بعض الجلاميد

ألم يكن هذا هو حال مكة وأهلها من المشركين فى بعدهم عن التوحيد وعبادتهم للأصنام وفسادهم وسوء اختيارهم.
لقد كان الشرك حقيقة واقعة تناولها الشاعر وعبر عنها فأجاد وأحسن التعبير ، ولقد عانى الرسول (ص) فى سبيل تغيير تلك العقائد الفاسدة لإحلال الدين الإسلامى محلها قويا خلاقا يحترم كرامة الإنسان بجعله لايسجد إلا لله تعالى ولايوحد سواه .. خالقه ورازقه والمتفضل عليه.

وعلى هذا نجد الشاعر يبرز فى شعره أهم الحقائق والأعمال التى قام بها الرسول (ص) بقوة واقتدار أولاها جعل المجتمع الجاهلى يؤمن بعقيدة التوحيد لله تعالى ، والقضاء علي تشرذم الجاهليين وجعلهم أمة واحدة ربها الله تعالى ودينها الإسلام وقبلتها واحدة وهدفها واحد ، كما أن قواها التى كانت مبعثرة قد بعثته من جديد قوة واحدة قوية فاعلة ومؤثرة فيما حولها من البقاع المجاورة لها كما ظهر من خلال التاريخ.

يقول الشاعر [1]:
صعبان راضهما توحيد معشرهم   وأخذهم بعد إشراك بتوحيد

(١) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٤٠.

لقد أحس الشاعر بما لاقاه الرسول (ص) فى محاولته تغيير مجتمع الشرك والوثنية والعصبية الجاهلية إلي مجتمع التوحيد والأخوة الإسلامية فعبر عن تلك الحقائق فأحسن التعبير فى أسلوب يعبر عن الصبر والأريحية وقوة التحمل والعزيمة لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن الحقائق العظيمة والأعمال السامية التى قام بها الرسول الكريم وجسدها الشاعر فى شعره أيضا معاهداته مع أهل الكتاب مساكنيه فى المدينة المنورة "المجتمع الجديد" . وقبل ذلك كان إخاؤه بين المهاجرين والأنصار.

وكل هذه الأعمال العظيمة كان الهدف منها إيجاد التلاحم والإخاء الإنسانى داخل المجتمع الواحد ليقوى المجتمع الوليد ويصبح جبهة واحدة قوية يكون مستندا عليها فى مجابهة الأعداء خارج هذا المجتمع الوليد...

ويجسد الشاعر هذه الحقيقة فيقول :

وزاد فى الأرض تمهيدا لدعوته   بعهده للمسلمين والهود

وبدئه الحكم بالشورى يقيم به   ماشاءه الله عن عدل وعن جود

فالحكم بالشورى كان من الحقائق الهامة فى الدولة الاسلامية الوليدة تنفيذا لأمر الله تعالى من الأخذ بالشورى فى كل الأمور قال الله تعالى : وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله"[1]

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

وكل هذه حقائق تأثر بها وعبر عنها فقال: [١]

هذا هو الحق والإجماع أيـده   فمن يفتده أولى بتفنيـد

ومن الحقائق التى عبر عنها وربط فيها الحاضر بالماضى هو حثه المصريين على إعادة المجد القديم للعرب حتى يكونوا كأسلافهم [٢].

أبناء مصر عليكم واجب جلـل   لبعث مجد قديم العهد مفقود
فليرجع الشرق مرفوع المقام بكم   ولتزه مصر بكم مرفوعة الجيد

وهذا هو الهدف الأسمى من سرد تلك الحقائق واستعراض ذلك التاريخ فى شعر الشاعر، ألا وهو إحياء المجد السالف ولن يكون ذلك إلا بالعمل المجاد المثمر الذى تفيد منه البشرية .

وفى تأثره وإيمانه بالقضاء والقدر نجده يقول فى رثاء الشهيد عمر المختار [٣] .

إن يقتلوك فما إن عجلوا أجـلا
قد كان مذ كنت مقدورا ومحتوما
هل يملك الحى لو دانت له الأمم
لأمر ربك تأخيرا وتقديمـا

---

(١)، (٢) ديوان الخليل جـ٤ ، ص٤٠.

(٣) ديوان الخليل ، جـ٤ ، ص٧.

وهذا يتطابق مع قول الله تعالى: "إن أجل الله إذا جاء لايؤخر لو كنتم تعلمون"[١].

وينطبق هذا الحكم الحق علي العالمين أجمعين لافرق في ذلك بين من كان بلا حول ولاطول ، وبين من دانت له الدنيا لايستطيع أن يؤخر أجل الله وقضاءه...

وإذا كان الأمر كذلك فلا قيمة للحرص على الحياة إلا بمقدار الحفاظ عليها من التهلكة فقط ، أما ماعدا ذلك فأمره متروك إلى الله تعالى وحين يحتاج الأمر إلي التضحية والفداء فإنه يكون من الواجب العمل بمقتضى قول الخليفة الأول " احرص علي الموت توهب لك الحياة .. هو الأساس والواجب على كل مسلم وبهذا تكون العظة والعبرة".

وإذا كان الإسلام دين الحق القويم فإنه لايعدم الكارهين والشانئين الكارهين لدعوته ولكنه لايعدم المدافعين عنه من معتنقيه أو سواهم من غير المسلمين وها هو شاعرنا يعبر عما كان يقوم به الزعيم مصطفى كامل فى حياته بالنسبة للإسلام فقد كان ناذرا علي نفسه للدفاع عن الإسلام ورد كيد الكائدين وكشف زيف المزيفين.

وها هو يقول فى رثائه[٢]:

من يبرئ الإسلام من تهم العدا ويرد نقد الناقدين مزيفا

---

(١) سورة الآية نوح الآية ٤ .

(٢) ديوان الخليل جـ١ ، ص٣٨.

فمن الحقائق التى احتواها هذا البيت :

براءة الإسلام من تهم العدا ، ثم رد فقد الناقدين الزائف للإسلام تلك أمور يرى الشاعر أنها فى حاجة إلى من يقوم بها بعد فقد الزعيم والشاعر يتساءل عمن يقوم بهذا الدور بعد فقد الزعيم.

ثانيا : العاطفة أو الانفعال أو التجربة الشعرية أو المعاناة النفسية ومعناها انفعال الأديب بحقيقة من الحقائق أو مشهد من المشاهد أو فكرة من الأفكار أو موضوع من الموضوعات ، فهى الحالة التى تتشبع فيها نفسه بشئ من هذه الأشياء وتتأثر به تأثرا قويا يدفعه إلى الإعراب عنه[1].

" وان أول مايتميز به الأدب القوى الصادق أنه تعبير عن العاطفة أو العواطف التى تجيش بنفس الأديب .."[2]

وإذا كان الشعر الدينى خاصة صدى لعاطفة الشاعر نحو دينه كما هو الحال بالنسبة لشاعر كشوقى مثلا له شعر دينى قوى غرير ومؤثر ، من يقرأه يجده صدى لعاطفته الدينية، لأن شوقى كما يستبين من خلال حياته " قد كان رجلا متدينا ، مؤمنا بالله تعالى محبا لرسوله تشربت نفسه عزة الإسلام ، كما كان فخورا بمجـــد

---

(١) دراسات فى النقد الأدبى د.حسن جاد حسن ص٦.

(٢) الإسلام فى شعر وشوقى ضيف ص ١١٢.

المسلمين أسيفا على فقدانهم ما كان لهم من عزة وسلطان تواق إلى استرجاع ماضيهم العظيم ، ولم يكن فى بيئته أو وظيفته أو حياته مايضطره إلى أن ينهج هذا النهج"(١).

كان هذا حال شوقى فى شعره الدينى الإسلامى وهو مسلم منتدين كما نعلم فما بال شاعرنا خليل مطران فى شعره الإسلامى..!!

لقد تناول فى شعره معانى إسلامية سامية عالجها فى أسلوب شعرى قوى متسق يشعر من يقرؤه بقوة العاطفة وجيشان الشعور ، كما يجد أن هذا الشعر كان صدرى لما فى نفسه من عاطفة دينية إسلامية يلمس ذلك من خلال انفعال القارئ أو السامع بذلك الشعر، وذلك أمارة الصدق العاطفى وانفعال الشاعر مع تلك الأحداث.

فالشاعر .. من يشعر ويشعر . ومن يشعر بجوهر الأشياء" (٢) وشاعرنا خليل مطران . فى شعره الإسلامى- ورغم مسيحيته -موفور والأحاسيس والمشاعر بتلك المعانى والأفكار والحقائق التى تعبر عن الدين الاسلامى ، وشعره صدى لأحاسيسه ومشاعره ، كما أن شعره يجعل قارئه أو سامعه يفيض هو الآخر عاطفة وجيشان نفس ،

---

(١) السابق والصفحة.

(٢) الديوان فى الأدب والنقد ، ص ١٣٤.

وشفافية روح ، وما زاك إلا لأنه يجسد المعانى فى قوة ، ويصورها فى اتساق وصدق لا مبالغة فيه ولا ادعاء لما ليس له أصل فى الحقيقة، بل إن شعره لم يوجد فيه إلا كل حق كان له وجود .. وفي كل معنى تناوله فى شعره على مدى الأيام ...

فإذا تحدث عن السبب فى تجديد ذكرى الهجرة فإنه يقول[١]

لله فى الخلق آيات وأعجبها   تجديد روعتها فى كل تحديد

ويستبين من خلال البيت أن الهدف من تجديد ذكرى الهجرة هو بعث الأمل فى النفوس والبهجة فى القلوب لتحيى مع ذكريات الأيام العطرة التى كانت تمتلئ بهجة وروعة وعزة وجمالا...

وفى حديثه عن الهجرة ومالاقاه الرسول الكريم (ص) هود وأصحابه من أذى وصد عن سبيل الله ، ومالقى من الحزن والألم لفراق موطنه مكة والتحول عنه إلى المدينة ، إلا أنه مأمور من قبل الله تعالى لحكمة سامية وآفاق رحبة لخير الدعوة من أجل نشر الإسلام فى شتى الربوع فيقول: [٢]

ينوى الترحل عن أهل وعن وطن

وفى جوانحه أحزان مكبود

---

(١) ، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

يكاد يمكث لولا أن تداركـــه

أمر الآله لأمر منه موعـــود

معنى هو البدء والصديق يصحبه

يغامر الحزن فى تيهاء جينحود

ثم ما أجمل تعبيره عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله [١]

لقد علمتم وما مثلى ينبئكـم   لكن صوتى فيكم صوت ترديد

ما أثمرت هجرة الهادى لأمته   من صالحات أعدتها لتخليـد

وسودتها على الدنيا بأجمعها   طوال ماخلقت فيها بتسويـد

فـفى قـوله هذا الحق والصدق والواقـعيـة ، وضع كل شئ ، فى موضعه، دون مغالاة فى زيادة أو نقصان من قدره ، إضافة إلي أنه لاينسى واقع نفسه. وهو كونه مسلم غير مسلم .. !!

لذا فإنه يري أن حديثه عن أمر الهجرة فى رأيه - أنه ترديد لما يقوله له أهل الإسلام ، وهو يرى أن الهجرة النبوية أثمرت خيرا كثيرا لأمة محمد (ص) ، وكان للهجرة أثرها الكبير فى تخليد الأمة وتبوئها موقع العزة والسيادة على سواها من الأمم في الدنيا بأجمعها ، كما كان لها الأثر الكبير فى رفع راياتها واتساع رقعتها ، ولم يكن ذلك من فراغ ، بل كانت الأمة الإسلامية جديرة بذلك التسويد والسمو لقاء ماجهدوا وما تحملوا من مشقة وعناء طواعية ومحبة لله تعالى ..

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

وحين يتحدث الشاعر عن عزم الرسول (ص) وجهاده وحلمه وثقته بربه وأنه تعالى ناصره ومظهر على مدى الأيام أمره ، تلكم الصفات العظيمة والشيم الكريمة هي التى قابل بها جهل الجاهلين ، وأذل الجبابر من المشركين ووحد الأمة ، وواجه القوة الغاشمة والجبروت الشيطاني الذى كان بين جوانحهم ليكون كل ذلك خيرا يعود على البشرية جمعاء ، بعد أن كان شرا يتبادلون اصطلاءه فيما بينهم فيقول[1]:

بأى حلم مبيد الجهل عن ثقة   وأى عزم مذل القادة الصيد
أعاد ذاك الفتى الأمى أمته   شملا جميعا من الغز الأماجيد
لتلك تالية الفرقان فى عجب   بل آية الحق إذ يبقى بتأكيد

وعند قياس هذا الشعر بمعايير الصدق نجد أنه قول لايجاوز الحقيقة ولاتجالجه ادعاء ، بل إنه عبر عن الواقع بما أجابته نفسه المنطوية علي الصدق والوفاء لدين الاسلام...

وشاعرنا فى تأثره بما لدى الإسلام من قيم ومبادئ ومثل عبر عنها فأحسن التعبير، فقد تأثر بهما كأحداث ومواقف وجاشت بها نفسه ولعب بها خياله وطاف بها جوانب عقله ، وحين أراد التعبير بما أحس كان تلوينه وتوشيته ورسمه لتلك الأمور التى تناولها فى شعره فى صور قوية متسقة قد تزيت بأثواب قشيبة ذات ألوان بديعة تلعب

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

بالعواطف وتأخذ بالمشاعر وتستهوى النفوس وتلفتها إلى مواطن القوة والقدوة الحسنة فى جهاد الرسول (ص) وأصحابه كى ينهض الخلف من كبوته ويعمل بجد ونشاط ليتبوأ ما كان يتبوأه السلف من السمو والسموق ...

٣- الخيال : هو الذى يمكن الشاعر من الدوران حول الموضوع ورسم صورة له فى عقله ومخيلته يجسمها ويوشيها في وجدانه وفق ما أراد الله تعالى له، إنه يعيش مع الموضوع فى الخيال و حين يتسنى له أن يبرز هذا الخيال الوجداني إلى المتلقى فإن ذلك يكون فى صور شيقة فذة تقترب من الواقع أو تبتعد عنه قد وشاها بألوان البيان والبديع ، وكل ذلك يجعل المتلقى يعيش نفس الخيال والجو الذى سبق أن عاشه الشاعر وكان صورة لما سبق من مجد الأمة وازدهارها وتألق ضوء نهضتها فى تلك الأيام.

انظر إليه وهو يرسم ويخيل ذلك فيقول[1]:

قد كان للإسلام عهد باهر — نلنا به هذا الرقى مسلفا

ملأ البلاد إنارة وحضارة — ومنى السماحة عوده مستأنفا

فالخير كل الخير فيه مقيلا — والشركل الشر أن يتخلفا

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

وفى الأبيات يسرح الشاعر بخياله محلقا راسما للإسلام خيالا رائقا فى معانيه وأحكامه وقيمه ومبادئه ، أسسه ودعائمه ، وغزواته وكفاحه من أجل نشر نوره ، ثم ينقل للمتلقى هذا الخيال الرائق فى صور باهرة ليجعله وكأنه يعايش تلك الفترة المشرقة من حياة الإسلام.

إن الشاعر يربط الحاضر بالماضى ويلفت الأنظار إلى أن الكفاح والمشاق طريق السعادة وبلوغ المأمول ، وذاك مايتخيله الشاعر وكأنه يقول هذا سبيل المجاهدين المجتهدين الذين يضمنون عيشهم الرغد بكفاحهم واقتحامهم الصعاب ، أما الكسالى والقاعدين ففهيهات أن يتسع لهم شق من الأرض يحيون فى ضنكه وضيقه يقول :(١)

عانى محمد ماعانى بهجرتــــه
لمأرب فى سبيل الله محمـــود
وكم غزاة وكم حرب تجشمهـــا
حتى يعود بتمكين وتأييـــد
كذا الحياة جهاد والجهاد علـــى
قدر الحياة ومن فادى بها فودى
أد فى الكفاح كفاح المرء عن سفه
للاحتفاظ بعمر رهن تخليـــد

---

(١) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

ليغنم العيش طلقا كل مقتحم
وليبغ فى الأرض شقا كل رعديد
ومن عدا الأجل المحتوم مطلبه
عدا الغناء بذكر غير ملحـــود

فلا حياة إلا للمجتهدين ورسول الله خير من جد واجتهد من أجل غد أفضل لأمته ودعوته وهكذا الحياة فمن أراد سعة العيش فعليه بالجهاد وإلا فضنك الحياة متسعه وسيبقى الذكر الحسن لكل مسد جميلا ...

٤- التعبير : أو الأسلوب أو نظم الكلام ، وهو الأدلة التى بواسطتها ينقل الأديب إحساسه المضمر فى نفسه للناس ، وقد وشاها بصور الخيال وظلاله فيؤثر فى نفوسهم، ويدفعهم إلي مشاركته الوجدانية فيما انفعل به، وفعنى بهذه الأداة اختيار الألفاظ وحسن تأليفها ومطابقتها للمعنى والشعور بإيحائها وإيقاعها وجرسها والأديب العظيم يختار ألفاظه ويهيئ لها الجو الغنى الذى تشع به الصور والظلال والايحاء بالمعنى "[١].

---

(١) دراسات فى النقد الأدبى وحسن جاد حسن ص٦٠.

إن الصورة الشعرية تنقل إلى القارئ عاطفة الشاعر وتجربته وتنقل كذلك فكرته التى انتقل بها.. [١]

وحين نطالع شعر خليل مطران الإسلامى نجده يستخدم الصور الجزئية المتمثلة فى التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، كما نجده يستخدم الصور الكاملة المؤلفة من صور جزئية مترابطة ترسم مشهدا عاما...

فمن الأولى وهى الصور الجزئية على سبيل المثال قوله في حديثه عن هلال الهجرة يقول[١]:

كأن حسنك هذا وهو رائعنا حسن لبكر من الأقمار مولود

ففى البيت تشبيه عن الهجرة بما تحمله ذكراه من خير ونور وضياء بمطلع القمر الذى يضيئ الدنيا بنوره ، ويهدى السالكين فى دروب الحياة الموحشة.

ومن الصور الجزئية أيضا قوله[٢]:

كأنهم فى الدجى والنجم شاهدهم فرسان رؤيا لشأن غير معهود

وقوله أيضا: [٣]

كأنهم وضياء الصبح كاشفهم آمال خير سرت فى مهجة البيد

---

(١)، (٢) ، (٣) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

وفى تصويره لجهل المشركين وعبادتهم أصناما لاتضر ولاتنفع.

والجاهليون لايرضون خالقهم   إلا كعبد لهم فى شكل معبود

وحين ينتقل الشاعر إلى تصوير حالتهم الاجتماعية ومعاملاتهم مع بعضهم البعض فيقول[1]:

مستكبرون أباه الضيم غر حجى   ثقال بطش لدان كالأماليد

ومن الصور الكاملة التى أدى بها الشاعر مشاق الطريق فى رسم بديع فيقول[2]:

دعى الموالين إزماعا لهجرته

فلم يجبه سوى الرهط الصناديد

مضى هو البدء والصديق بصحبه

يغامر الحزن فى تيهاء صيخود

موليا وجهه شطر المدينة فى

ليل أغر على الأدهار مشهود

حتى إذا اتخذ الغار الأمين حمى

ونام بين صفاه نوم مجهود

حماه وشى بباب الغار منسول

من الأولى شيردوه شر تشريد

(١)، (٢) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

يا للعقيدة والصديق فى سهـر
تؤذيه أفعى ويبكى غير منجـود
إن العقيدة إن صحت وزلزلهـا
مغنى القرى فهو حصن غير مهدود

وهى تصور حدث الهجرة فى حركة وتدفق وتجسيد ومالاقاه الرسول الكريم فى هجرته وجند الله التى تعهدت برعايته ، ومافعلته الأفعى بالصديق ثم يكون تجسيده لدور العقيدة فى حياة الإنسان ودورها فى إيجاد السمو والرقى الإنسانى .

٥-

اللغة :

الألفاظ والتراكيب فى شعر خليل مطران :

إذا تأملنا شعر خليل مطران لنتبين مدى توفيقه فى اختيار الألفاظ المناسبة لمعانيها ، وكذا التراكيب اللغوية لنتبين مدى اتساقها وترابطها فإننا نجد الشاعر قد أجاد فى اختياره الألفاظ لأبنيته الشعرية والأمر الذى لاشك فيه أن خليل مطران شاعر رائد ، علي علم ودراية باللغة الفصحى ، قد حفظ الكثير من ألفاظها وتعبيراتها لكثرة ما قرأ أو حفظ من أساليب اللغة الفصحى التى راقته فوعاها وعبر عن معانيه من خلالها وامتلأت ذاكرته بمفرداتها وحين رأى المهاجمين لها امتشق حسام نظمه ليدافع من خلاله عنها فى شعر يظهر دورها ويبرز محاسنها .

وحين نتصفح شعره نجده يحسن انتقاء الألفاظ واختيارها لتكون ملائمة للعاطفة موائمة للفكرة ، ومن هنا كثرت فى شعره الدينى ألفاظ مستقاه من الدين أو متصلة به تؤدي الغرض وتجسد المعاني التى تدل عليه وتدعو إليه ومن هذه الكلمات :

الإله - الملائكة - الإسلام - رسالة الله - الأمين - الصديق - الغار - العقيدة - حيطة الله - محمد - سبيل الله الهادى - الشرك - الفتى الأمى - الفرقا- التوحيد - الحكم بالشورى - العهد - إشراك.

ومن هنا نجد أن شاعرنا خليل مطران قد تخير الألفاظ المناسبة من قاموسه اللغوى للمعانى المناسبة فى أبنيته الشعرية ، فجاءت الألفاظ على قدر المعاني ، متسقة أيما اتساق ، كلها عربية فصيحة لا غرابة فى الكثير منها ، ظاهرة المعنى ، لايشوبها غموض وليست فى حاجة إلى البحث عن معانيها فى القواميس اللغوية ، إلا فى القليل مما ندر من الكلمات مما هى بحاجة إلى التنقيب عنها لمعرفة معناها فى قواميس اللغة - كما يمكن القول إنه توجد في شعره بعض الكلمات ذوات المعاني العامية فمن الأول قوله فى بعض الكلمات:

مناجيد - تبعيد - تنكير - حلمود - مكبود - صيخود - القود - ملحود - المستسر - إزماعا - تيهاء - منجود - الأماليد.

ومن الثانى يمثله وجود مثل هذه الألفاظ : تعبير - مهدود - المطاريد - مردود ...

-٦

المحسنات البديعية فى شعر خليل مطران .

فى شعر خليل مطران الإسلامى استخدام منه لبعض المحسنات لتكون توشية لصوره الشعرية ، ولتساعد على جلاء الضور وإيضاح المعانى التى يجسدها ويعبر عنها ، وكل ذلك حسن فى الشعر مالم يتجاوز المقدار الذى يصير به تكلفا يخل بالصورة.

وفى شعره الجناس والطباق .

فمن الجناس قول الشاعر [١]:

هل الهلال فحيوا طالع العهد ... حيوا البشير بتحقيق المواعيد
كأن حسنك هذا وهو رائعنا ... حسن لبكر من الأقمار مولود
لله فى الخلق آيات وأعجبها ... تجديد روعتها فى كل تجديد

وفى قوله أيضا [٢]:

عانى محمد ماعانى بهجرته ...

وقوله أيضا [٣]:

كذا الحياة جهاد والجهاد على ... قدر الحياة
أدنى الكفاح كفاح المرء عن سفة ......

---

(١)، (٢)، (٣) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

إلي غيـــر ذلك من صـــور الجناس التى لاتخــفى ، وهى فى معظمها غير متكلفة وكل لفظة فى الأبيات بما فيها الجناس تؤدى دورها فى إظهار المعنى دون أن يكون هناك تكلف أو ثقل فى اللفظ وتكرار أو ضآلة فى المعني .

فإذا بحثنا عن الطباق فى شعره وجدناه يكثر فى العديد من أبيات شعره ولكنه لايخل بالمعنى ولايؤدى إلى الجلبة اللفظية دون طائل فشاعرنا خبير باستعمالات اللغة ومثال ذلك قوله [1]:

وجزيت من فانى الوجود بخالد

ومن الأسى الماضى تقبل الصفا

وقوله أيضا: [2]

فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم

من دمعهم إن خانهم فتكفكفا

وقوله [3]:

من يبرئ الإسلام من تهم العدا .....

وقوله [4]:

فالخير كل الخير فيه مقبلا والشر كل الشر أن يتخلفا

وقوله [5]:

والجاهليون لايرضون خالقهم إلا كعهد لهم فى شكل معبود

---

(١)، (٢)، (٣) ، (٤) ، (٥) ديوان الخليل جـ٢ ، ص٤٢.

وقوله :

بأبى حلم مبيد الجهل عن ثقة وأى عزم مذل القادة الصيد

إلى غير ذلك من ألوان البديع التى وشى الشاعر شعره بها فجاءت مساوقة للبناء الشعرى : لم يخرج بها إلى التكلف فى الأخذ والاجتلاب والإبعاد فى المعنى والتقيد لكل ماهو عسير المطلب فى البناء الشعرى فجاء أسلوبه بعيدا عن التكلف وبذا يكون الشاعر خليل مطران قد عبر عن تأثره بالاسلام بالرغم من أنه لم يعتنقه وقد رأى الحق فى حياته متمثلا فى مبادئه السامية وقيمه النبيلة الفاضلة فعبر عنها فى شعره وجسدها فى تصويره ، ودافع فى شعره هذا عن الإسلام دفاعا قويا ، وكان الحر الذى لايدين به ولكنه إحقاقا للحق - ينبرى للدفاع عنه ويزود عنه خصومه المتعسفين ..

كما أن هذا الشعر شهادة حق من لم يكذب ولم ينافق بل كان شعره توشيه وإبرازا لمعانى الإسلام وتجلية لها بالحق ..

وتصويرا للخير يأتى به الإسلام ، ويكون فيه الرقى والسعادة لمن تمسك بالاسلام واعتصم بحبله ، وكان جديرا بتلك السيادة لقاء جهد جهيد وعمل مجيد وتمسك بالخير رشيد ...

والله تعالى أعلى وأجل وأعلم ،،

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .
٢- ديوان خليل مطران - نظمه ...
جـ ١، جـ٢ ، جـ٣ ، جـ٤.
٣- الشوقيات نظم أحمد شوقى .
جـ١ ، جـ٢ دار نهضة مصر للطباعة والنشر .
٤- الإسلام فى شعر شوقى .
د. أحمد الحوفى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٦٢.
٥- دراسات فى النقد الأدبى . د.حسن جاد حسن ١٩٧٧م.
٦- الديوان فى الأدب والنقد- عباس محمود العقاد نسخة مصورة.
٧- العمدة - ابن رشيق القيروانى .
٨- مع الشعراء المعاصرين . د.محمد عبد المنعم خفاجى .
٩- خليل مطران شاعر الأقطار العربية - د.جمال الدين الرماوى .
١٠- خليل مطران شاعر الحرية . د.محمود بن الشريف .
١١- خليل مطران - د. محمد مندور .
١٢- خليل مطران - محمد عطا .
١٣- الشعراء الثلاث شوقى - مطران - حافظ . حسن السندوبى .
١٤- في الأدب الحديث - عمر الدسوقى .
١٥- غايات الأدب في مجتمعنا المعاصر بين النظرية والتطبيق جـ٢ الجانب .
١٦- التطبيقى فى الشعر خاصة د. محمود على السمان .
١٧- فى الأدب الحديث . عمر الدسوقى .
١٨- وحدة القصيدة في الشعر العربي د. محمد عبد المنعم خفاجي
١٩- رائد الشعر الحديث . د.محمد عبد المنعم خفاجى .

٤٢٣

شرح المصطلح النحوى
ورأى فى ظاهرة الجزم فى اللغة العربية

تأليف

د/ جمال الدين محمد حماد شحاته
المدرس بقسم اللغويات
فى كلية اللغة العربية - بإيتاى البارود

" بسم الله الرحمن الرحيم "

شرح المصطلح النحوى ورأى فى ظاهرة الجزم
فى اللغة العربية

تمهيد :

ليس الهدف من هذا البحث الموجز إحصاء المصطلحات النحوية، أو ذكر ما وقع من خلاف فيها بين النحويين ، أو ما دار من نقاش حولها بين المدارس النحوية، أو بيان لتطورها تاريخيا ، فما إلى هذا قصدت ، وإنما أردت أن ألفت نظر الباحثين فى اللغة العربية بوجه عام، وفى النحو العربى بوجه خاص إلى أهمية شرح المصطلح فى أى علم من العلوم، فذلك من أهم العوامل التى تسهم فى تقريب ذلك العلم إلى أذهان القارئين والمتلقين له، وقد لفت نظرى إلي هذا أن كثيرا من الكتب النحوية ملء بمصطلحات غامضة خاصة بأصحابها ، مما يجد معه الناظر فيها عناء شديدا فى فهمها والتمرس عليها ، فضلا عن معرفة العلاقة بين المصطلح اللغوى وبين ما أطلق عليه من الموضوعات النحوية، وخير شاهد على هذا" الكتاب" - لسيبويه الذى توجد فيه جمهرة من المصطلحات والعنوانات للأبواب المختلفة لم يألفها الباحث المتخصص فضلا عن المتلقى لهذا العلم الذى يسعى المتخصصون فيه إلى تقريبه إليه ، وهو غايتهم، وجل جهدهم، وقد توخيت فى هذه الصفحات أن أذكر فيها من المصطلحات ما أرى أنه يحتاج إلي مزيد إيضاح، فلا أعرض منها ماهو ظاهر في الأذهان ، فلا يظن قارئ هذه الصفحات أن كل مصطلح مذكور فيها ، فقد قام

غيرى بهذا الجانب مشكورا ، ولكنها دعوة إلي الباحثين فى علم النحو العربى أن يعطوا لشرح المصطلح مزيدا من العناية والاهتمام.

وقد ذيلت هذا البحث المختصر برأى فى معنى الجزم فى اللغة العربية، طولت فيه الحديث ليتضح كظاهرة من الظواهر التى اختصت بها لغتنا ، فوظفته لغرض وهدف ذكرته هناك بعون الله وتوفيقه.

شرح المصطلح النحوى

أولا : مصطلحات فى إعراب الفعل :

مصطلح المضارع : لم أطلق النحويون مصطلح (مضارع) على الفعل الدال- زمنا - على الحال والاستقبال؟

أقول:جاءفىاللسانوالقاموسالمحيط:"ضارعه: شابهه[1]... والمضارع: المشابه"[2]. ومن ثم نستطيع أن ندرك أن النحويين إنما أطلقوا هذا المصطلح على هذا النوع من الأفعال؛ لأنه يضارع أى : يشابه اسم الفاعل فى ثلاثة أشياء: يقول ابن يعيش :

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة (ض - ر -ع) .

(٢) انظر اللسان - لابن منظور (ض- ر -ع).

" هذا القبيل من الأفعال يسميه النحويون المضارع، ومعنى المضارع المشابه يقال: ضارعته ، وشابهته، وشاكلته، وحاكيته إذا صرت مثله[١] ... والمراد أنه ضارع الاسماء ، أى شابهها بما فى أوله من الزوائد الأربع وهى: الهمزة ، والنون ، والتاء والياء، نحو : أقوم ، ونقوم، وتقوم، ويقوم ، فأعرب لذلك ، وليست الزوائد هى التي أوجبت له الاعراب وإنما لما دخلت عليه جعلته على صيغة صار بها مشابها للاسم والمشابهة أوجبت له الاعراب"[٢] ولقد أشبه المضارع الاسم من جهات يذكرها ابن يعيش قائلا" أحدها أنا إذا قلنا زيد يقوم فهو يصلح لزمانى الحال والاستقبال، وهو مبهم فيهما، كما إنك إذا قلت: رأيت رجلا فهو لواحد من هذا الجنس مبهم فيهم ، ثم يدخل على الفعل ما يخلصه لواحد بعينه ويقصره عليه نحو قولك : زيد سيقوم، وسوف يقوم ، فيصير مستقبلا لاغير بدخول السين وسوف ، كما إنك إذا قلت : رأيت الرجل، فأدخلت على الواحد المبهم من الاسماء الألف واللام قصراه على واحد بعينه فاشتبها بتعيينهما مادخل عليهما من الحروف بعد وقوعهما أولا مبهمين .

---

(١) أصل المضارعة: تقابل السخلين على ضرع الشاة عند الرضاع يقال : تضارع السخلان إذا أخذا كل واحد بحلمة من الضرع ، ثم اتسع فقيل لكل مشتبهين متضارعان ، فاشتقاقه إذا من الضرع لامن الرضع " انظر ابن يعيش ٦/٧ ".

(٢) انظر ابن يعيش ٦/٧.

ومنهـا- يقـصـد الأمـر الثـانى- أنه يقع فى مـواقع الاسـمـاء، ويؤدى مـعـانيـهـا نـحو قـولك : زيد يضـرب كمـا تقـول : زيد ضـارب ، وتقـول فى الصـفـة: هذا رجل يضرب، كـمـا تقـوله : هذا رجل ضـارب، فقد وقع الفعل هنا موقع الاسم، والمعنى فيهما واحد.

والثـالث: أنهـا تدخل عليـه لام التـأكـيـد التى هى فى الأصل للاسم لأنهـا فى الحقـيـقـة لام الابتـداء ، نحـو قـولك : إن زيدا ليـقـوم ، كما تقول : إن زيد القائم ، ولايجوز دخولها على الماضى لبعد مابينه وبين الاسم ، فـلا يقـال : إن زيدا لقـام على مـعنى هذه اللام ، فلمـا ضارع الاسم من هذه الأوجه أعرب لمضارعة المعرب"[١].

وهكذا يتـضح لنا السر فى إطلاق النحـاة مـصطلح (مـضـارع) على هذا النوع من الأفعال.

مصطلح الجزم :

جاء فى اللسان والقاموس أن الجزم هو القطع فى اللغة فصاحب القـامـوس يقـول " جزمـه يجزمـه قطعـه، واليـمين أمضـاها ، والأمـر قطعـه قطعـا لاعـودة فـيــه ، والحـرف أسكنه ، وعليـه سكت" [٢] وورد مــثـل ذلك فى اللسان[٣].

---

(١) السابق نفس الجزء والصفحة.

(٢) القاموس المحيط مادة (خـ -ع- ز- م)

(٣) اللسان مادة (ج - ز- م).

فـالجـزم لغـة : القطع ، وأطلق مـصطلحـا على هذه الحـالة من أحوال إعراب المضارع، لأنه يحدث فيه انقطاع آخر جزء من الفعل، فقد يكون ذلك الجزء المقتطع حركة[1] الحرف الأخير، وذلك إذا كان الفعل صحيح الآخر مثل : يشرب ، فتقول : لم يشرب ، فحذفت ، أو قطعت أو جزمت الحركة الواقعة بعد الباء ، فعلامة الجزم قطع الحركة، وبقاء الباء ساكنا ، فقالوا : علامة الجزم السكون.

وإذا كان معتل المعتل الآخر كانت علامة جزمه حذف حرف العلة من آخره كما قال النحاة، فهو أيضا قطع للحرف الأخير من الفعل.

وإذا كان الفعل من الأفعال الخمسة فجزمه باقتطاع مقطع كامل وهو النون [2].

هذان المصطلحان أهم المصطلحات فى إعراب الفعل ، وبقية المصطلحات واضحة لا حاجة لشرحها.

ثانيا: مصطلحات فى إعراب الاسم:

والمصطلحات فى قسم الأسماء تتفاوت - أيضا - فى وضوح دلالتها على ما أطلقت عليه فمن المصطلحات الواضحة التى لا تحتاج إلى شرح: المبتدأ و الخبر ، الفاعل والمفعولات إلا المفعـــول

---

(١) انظر الايضاح فى علل النحو ص ٢٣.

(٢) ولطول الكلام عن الجزم أرجأت الحديث عنه بالتفصيل إلى نهاية هذا البحث فى مبحث خاص به .

المطلق، والمفعول معه ، ففى هذين المصطلحين بعض الغموض ، والعلاقة بينهما ، وبين ما أطلقت عليه تحتاج إلي مزيد بيان.

أما المفعول معه، والمفعول المطلق فإنى رأيت دلالتهما على ما أطلقا عليه فيهما بعض الغموض ، فالمفعول معه اسم وقع الفعل معه وبمصاحبته ، فقولنا مثلا: (سهرت والصباح) فإن (الصاج) لم يشترك فى الفعل ، وهو السهر ، وإنما أوقع الفاعل الفعل فى معيته ومصاحبته ؛ فالفعل مفعول معه، أى أن الفعل وقع بمصاحبه ذلك الاسم ، ولذلك سمى مفعولا معه.

وأما المفعول المطلق فهو مصطلح أكثر غموضا ، وقد شرحه بعض النحاة شرحا لايشفى الغلة.

سمى هذا الاسم بالمفعول المطلق لأن الفعل مع كل المفاعيل الأربعة مقيد ، أما مع هذا الاسم فمطلق ، وبيان ذلك ما يأتى : يجب أن نفهم أولا كلمة : (مفعول) هذه الكلمة معناها فعل الفاعل ، فإن الفاعل أوقع ذلك الفعل ، فالفعل مفعول الفاعل ، لأنه فعله وأوقعه. هذا المفعول هو فعل الفاعل إن وقع على اسم سمى ذلك الاسم مفعولا به.

فقولنا كتب محمد الدرس ، فالكتابة حدث أحدثه محمد، فهى مفعول ، هذا المفعول - أى الفعل - وقع على الدرس ، فالدرس مفعول به فعلامته مقيدة بالوقوع به ، وقولنا : كتب محمد ساعة ،

فالكتابة فعل أوقعه محمد ، فالفعل مفعول ؛ لأن محمدا أوقعه ، هذا المفعول وقع فى الساعة أى أن الساعة بالنسبة لهذا الفعل الذى هو مفعول الفاعل كالظرف بالنسبة للمظروف ، تسمي مفعولا فيه أو ظرفا ، فعلامة الفعل أى المفعول مقيدة بالوقوع فى ذلك الاسم الدال على الزمن، فسمى مفعولا فيه، وقولنا : كتب محمد رغبة فى الفهم، فإن الحدث، ، وهو الكتابة وقع بسبب الرغبة ، فقد فعل الفعل فهو مفعول لأجل الرغبة فقد فعل الفعل فهو مفعول لأجل الرغبة فى الفهم، ولما كان الفعل الذي هو الكتابة مفعولا لأجل الرغبة فى الفهم سمى هذا الاسم - وهو الرغبة - مفعولا لأجله أو له ، فالمفعول الذى هو فعل الفاعل مقيد بوقوعه من أجل ذلك الاسم ، وقولنا : كتب محمد وطلوع الفجر، فإن الفعل هو الكتابة مقيد بأنه وقع مع طلوع الفجر، وقولنا : كتب محمد كتابة ، ففهم منه أن الفعل وهو الكتابة، والذى هو مفعول؛ لأن الفاعل أوقعه غير مقيد ، وإنما فعل من أى قيد ، فهو مفعول مطلق. وموجز القول : إن دل الاسم على أن مفعول الفاعل - أى فعله- مقيد بالوقوع به فهو مفعول به ، وإن دل على أنه مقيد بالوقوع فيه فهو المفعول فيه، وإن دل علي أنه مقيد بوقوعه من أجله فهو المفعول لأجله ، وإن دل على أنه وقع مقيدا بصحبته فهو المفعول معه، وإن دل على أنه وقع مطلقا دون قيد بما وقع به أو فيه أو من أجله أو معه فهو المفعول المطلق.

ومن هنا نفهم أن المفعول المطلق هو فعل أوقعه الفاعل مطلقا لم يقيد بشيئ وقع عليه ، ولم يقيد بزمان أو مكان وقع فيه ، ولم يقيد

بشيئ وقع بسببه ، ولم يقيد بشيئ وقع معه ، فإن قلت: إن الفعل (أكرم) فى جملة (أكرمت أخى إكراما) يدل على وقوع الإكرام مجردا من هذه القيود فهو يفيد ما أفاده المفعول المطلق فى الجملة ، وهو (الإكرام).

قلت : نعم هو كذلك ، ومن أجل هذا فهو توكيد للفعل؛ لأنه لم يفد معنى جديدا إلا توكيد الفعل ، أو بيان نوعه ، أو عدد مرات وقوعه ، ولذلك قالوا : إنه مفعول الفاعل حقيقة بخلاف سائر المفعولات فإنها ليست بمفعول الفاعل حقيقة.

لقد أسهبت فى الشرح ، وكررت القول حتى يتضح المراد ، ويتأكد ويبعد عنه اللبس والغموض لهذه المفهومات التى تساعد على التمكن من اللغة، وقواعدها.

ومن المصطلحات التى تحتاج إلى بعض التوضيح

المضاف والمضاف إليه :

معنى الإضافة لايتضح كثيرا ، ولذلك نجد بعضهم يختلط عليه الأمر فلا يفرقون بين المضاف والمضاف إليه ، فيقولون عن المضاف إليه إنه مضاف ، وهذا خطأ واضح.

---

(١) الأشمونى على الألفية مع حاشية الصبان جـ٢ ص ١١٠.

فالمضاف له موقع من الإعراب ، فقد يكون فاعلا ، وقد يكون مفعولا به، وقد يكون مبتدأ ... إلى آخره ، وأن المضاف إليه موقع من المواقع الإعرابية ، وسمى المضاف مضافا؛ لأنه أضيف أي : أسند لما بعده ، وأن المضاف إليه سمي بذلك لأن الاسم الواقع قبله ، أي المضاف أضيف إليه.

المعطوف والمعطوف عليه :

ومثل ماحدث في الإضافة حدث في العطف فبعضهم يظن أن المعطوف هو الاسم السابق علي حرف العطف ، وأن المعطوف عليه هو الاسم اللاحق فالعطف معناه في اللغة : الميل[١] ، وأننا تعطف أي : نميل الكلمة التالية لحرف العطف على الكلمة السابقة وأن الكلمة السابقة هي (المعطوف عليه) وأن (المعطوف) هو التالي ، وأن قولنا : المعطوف عليه ليس موقعا من المواقع الاعرابية، وأن المعطوف موقع من المواقع الإعرابية.

النكرة والمعرفة:

أطلق النحاة على الاسم الشائع في جنسه مصطلح (نكرة) لأنه غير محدد فهو غير معروف ، أما المعرفة فهي كل اسم معين معروف قال تعالى: (فعرفهم وهم له منكرون)[٢] فالضمير - وإن كان غير

---

(١) انظر القاموس واللسان مادة (ع - ط-ف).

(٢) من الآية ٥٨ من سورة يوسف .

مختص بشئ معين - إلا أنه عند الاستعمال فى الكلام خاص يدل على معين ، والاسم الموصول ، وإن كان مبهما أيضا - إلا أنه عرف وعين بصلته واسم الاشارة مبهم ، ولكنه عند استعماله فى الكلام قصد به مشار إليه معين ، ومن هنا صار معرفة، والعلم - وإن كان يصح أن يسمى به مسميات كثيرة - إلا أنه عند الاستعمال يراد به شخص معين ، وإن قلت : رأيت أحمدا فيكون أحمد معرفة لأنه علم لشخص معين ، وإن قلت : رأيت أحمدا من الأحمدين لم تكن كلمة أحمد معرفة ؛ لأنه لم يقصد به شخص معين، وتقول : رأيت زينب فتكون كلمة زينب معرفة ؛ لأنها أطلقت على شخص معين ، وإن قلت: اختر زينبا من قائمة الزينبات صارت كلمة (زينب) نكرة لأنه لايقصد بها شخص معين.

أما لماذا أطلق على الضمير مصطلح (ضمير) فلان معنى الضمير في اللغة : الشيئ الخفى غير الظاهر [١] لأن هذا النوع من الأسماء قد يكون مستترا ، وعلى ذلك جاء قول الشاعر بالمعنى اللغوى : سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا ... سريرة ود يوم تبلى السرائر

وقال الأعشى يتحدث عنه ابنه له تخاطبه :

ويا أبتا لم تزل عندنا .·. فإنا بخير إذا لم ترم

نخاف إذا أضمرتك البلا .·. د تجفى ويقطع بنا الرحم

---

(١) انظر القاموس واللسان مادة (ض - مـ - ر) .

فمعنى أضمرتك : أخفتك، ومعنى البلاد : القبور، أما الضمير الظاهر فقد أطلق عليه هذا المصطلح، لأن حروفه قليلة فهو مشتق من الضمور لهذا السبب.

وأما لماذا سمى الاسم الموصول بذلك المصطلح؛ فلأنه موصول بجملة توضحه وتعرفه ، وأطلقوا على اسم الاشارة هذا المصلطح ؛ لأنه يشار به لمعين . وأما مصطلح (العلم) فلأن الشخص معلم به ويعرف بواسطته.

مصطلح الحال :

أطلق النحاة هذا المصطلح (الحال) على كل صفة غير ثابتة فى موصوفها وإنما تدل علي هيئة أو حالة من أحوال تتقلب على موصوفها أو صاحبها ، وإذا كانت هذه الصفة ثابتة فى صاحبها أو موصوفها فذلك النعت ، وهذا فرق أساسي بين الحال والنعت فكل منهما صفة فإن دلت على تحول وعدم ثبوت فهى الحال ، وإلا فهى النعت.

هذا وأحب أن أشير إلى أن هناك علاقة بين الحال وعاملها تلك العلاقة التى تميز بينها وبين النعت، فالحال تقع دالة على صفة أو هيئة من هيئات صاحبها عند وقوع الفعل، فعندما تقول: جاء محمد ضاحكا ، فقد وصفت محمدا بصفة الضحك عند وقوع الفعل ، وهو المجئ ، ولم تفد (الحال) اتصافه بالضحك قبل المجئ ولابعده ، أما إذا قلت : جاء على الضاحك، فعلى موصوف بالضحك قبل المجئ ،

وأثناء المجيئ وبعده ، فصفة الضحك ملازمة ثابتة فى صاحبها ولا علاقة لها بالفعل الذى هو المجئ ، وقد رأيت النحويون في باب الحال لايهتمون كثيرا بتوضيح هذه العلاقة التى تبين الأمر وتوضح المراد فالحال وصف لصاحبها أثناء وقوع الفعل أما بعد وقوعه فالغالب أنها تنتقل عن صاحبها ، وتحول إلي حال أخرى ؛ ولذلك أطلق عليها النحويون (مصطلح) حال، ولكنها قد تستمر وتلازم صاحبها بعد وقوع الفعل كقول الشاعر :

فجاءت به سبط العظام كأنما .·. عمامته بين الرجال لسواء

فهذه الحال وهو كونه سبط العظام ، أى حسن الخلقة مستويا حال لازمت صاحبها ، ولكنها وضحت هيئة صاحبها أثناء وقوع الفعل وهو (جاءت به)- فلا يعترض علينا بأنها قد تستمر بعد وقوع الفعل ، وأقصد بالفعل هنا : الفعل أو ما يشبه الفعل فى العمل - أو مافيه رائحة الفعل ، فاسم الاشارة فيه معنى الفعل كقوله تعالى : (وأنا هذا صراطى مستقيما) [1] .

فاسم الاشارة فيه معنى أشير، ومثل ذلك (كأن) فيها معنى : أشبه كقول النابغة الذبيانى فى معلقته في قرن ثور طعن كلبا :

كأنه خارجا من جنب صفحته   سفود شرب نسوه عند مفتأد

---

(١) من الآية ١٧٣ من سورة الأنعام .

الحال قد يكون صاحبها نكرة :

أجاز النحويون أن تأتى الحال من النكرة إذا خصصت بوصف نحو جاءنى أخ كريم مساعدا ، أو باضافة نحو : جلست مع رجل علم مقبلا على شرح الدرس وتأتى من النكرة الذالة على العموم ، وهى الواقعة فى سياق النفى ، كقوله تعالى : (وما أهلكنا من قريه إلا لها منذرون) [١].

ولكننى أقول : تأتى الحال من النكرة بدون شرط إن كانت بالمعنى الذى ذكرته وهو وصف صاحبها فى حالة وقوع العامل ، أى : الفعل وما يشبهه . فلك أن تقول : حضر رجل راكب عربة ، إن قصدت وصفه بالركوب مطلقا وإن قصدت وصفه بالركوب عند حضوره قلت : حضر رجل راكبا عربة . وفى الحديث الشريف : " صلى رسول الله قاعدا ، وصلي وراء رجال قياما" ؛ لأن المعنى الأخير هو المقصود.

التمييز :

هذا أيضا من المصطلحات التى تحتاج لمزيد توضيح فلقد أطلق عليه النحويون هذا المصطلح ؛ لأنه يميز اسما مبهما أو نسبه مبهمة ، فلو أنك قلت : عندى عشرون ، وسكت مافهمنا مقصودك من هذا الاسم (عشرون) فهذا اسم مبهم يحتمل كل المعدودات ، فقد تكون

---

(١) من الآية ٢٠٨ من سورة الشعراء .

المعدودات كتبا ، وقد تكون رجالا ، وقد تكون دراهما .. إلى آخره، فإذا قلت : عندى عشرون كتابا ذهب الابهام والغموض عن العدد (عشرون) فقد ميزتها بكلمة (كتاب) أو فسرتها بة بعد أن كانت مبهمة فكلمة كتاب تميز وتفسير وتبيين ، ومن هنا أطلق عليه بعض النحويين مصطلح (تفسير) لهذا السبب .

الممنوع من الصرف :

إختلف اللغويون فى إشتقاقه : هل هو من الصرف ، وهو الخالص من اللبن ، ولذا فالمنصرف خالص من شبه الفعل والحرف ، أو من الصريف وهو الصوت؛ لأن الصرف وهو التنوين صوت فى الآخر، أو من الانصراف ، وهو الرجوع ، فكأن الاسم ضربان : ضرب أقبل علي شبه الفعل فمنع مما يمنع منه ، وضرب إنصرف عنه ، أو من الانصراف إلي جهات الحركات، أو من الصرف الذى هو القلب . أقوال[1] هذا نص ذكره صاحب التصريح يظهر منه الخلاف حول السبب فى إطلاق النحويين مصطلح (الممنوع من الصرف) على الاسم المعرب الذى لم ينون ، وأقرب هذه الأقوال - فى نظرى - إلى حقيقة هذا الاسم هو القول الثانى ، وذلك لأن النون الساكنة فى آخر الاسم تشبه صوت البكرة[2]، تكون على البئر، وعند الاستسقاء تدور البكرة عند نزول الدلو بسرعة فيحدث لها صوت يشبه صوت نون التنوين.

---

(١) التصريح على التوضيح ٢٠٩/٢.

(٢) شرح ملحة الإعراب للحريرى ص ١٨.

وأختبرت هذا القول؛ لأنه شامل لجميع أنواع التنوين العشرة[(١)]، وبقية الأقوال خاصة بتنوين الصرف.

الإعراب والبناء :

مصدر أعرب به أي : أبان، ومنه حديث : " الثيب تعرب عما في نفسها" أي : توضح وتبين ، ومن هنا تدرك أن الكلمات المعربة سميت بذلك لأنها تعرب عن مواقعها في الجمل والعبارات بعلامات في آخرها [(٢)] ، وندرك - أيضا - لماذا أطلق العلماء مصطلح (البناء) على الكلمات التي تلزم حالة واحدة ، ولا يكون في آخرها علامات توضح مواقعها ، وذلك لأنها تشبه البناء في الثبات ، جاء في همع الهوامع: " سمي بناء للزومه طريقة واحدة كلزوم البناء موضعه" [(٣)].

ألقاب الإعراب : (الرفع - النصب - الجر - الجزم)

وضح لنا الزجاجي في الإيضاح[(٤)] هذه المصطلحات حيث قال: " لما كان الرفع والنصب، والجر ، قد يكون في الكلام بأشياء سوى الحركات، وكان الأصل الحركة، وهو الأعم الأكثر ، نسبوا ذلك كله

---

(١) المغني لابن هشام جـ٢ ص ٣ ط الحلبي .

(٢) همع الهوامع للسيوطي جـ١ ص ١٣.

(٣) همع الوامع للسيوطي جـ١ ص ١٥.

(٤) انظر الايضاح ص ٩٣.

إلى الحركة ، فنسبوا الرفع كله إلى حركة الرفع؛ لأن المتكلم بالكلمة المضمومة يرفع حنكه الأسفل إلى الأعلى ، ويجمع بين شفتيه ، وجعل ما كان منه بغير حركة موسوما أيضا بسمة الحركة؛ لأنها هى الأصل. والمتكلم بالكلمة المنصوبة بفتح فاه فيبين حنكه الأسفل من الأعلى فيبين للناظر إليه كأنه قد نصبه لإبانته أحدهما عن صاحبه. وأما الجر فإنما سمى بذلك؛ لأن معنى الجر الإضافة ، وذلك أن حروف الجر تجر ماقبلها فتوصله إلي مابعده كقولك : مررت بزيد ، فالباء أوصلت مرورك إلي زيد ، وكذلك الحال لعبد الله . وهذا غلام زيد . هذا مذهب البصريين وتفسيرهم . ومن سماه من الكوفيين خفضا فإنهم فسروه نحو تفسير الرفع والنصب ، فقالوا : لإنخفاض الحنك الأسفل عند النطق به ، وميله إلي أحد الجانبين".

ومن نص الزجاجى السابق نفهم هذه المصطلحات النحوية ، وأرى أن مصطلح (الخفض) له دلالة تتعلق بالنطق. وذلك أن المتكلم عندما ينطق بالكسرة ، – وهى الأصل لعلامات الخفض– يخفض فكه الأسفل ، وأما المصطلح البصرى (الجر) فله دلالة علي وظيفة هذه الحروف ، وهو أنها تجر معنى الفعل لتوصله إلي الاسم ، وسموها أيضا حروف الإضافة ؛ لأنها تضيف معنى الفعل إلى الاسم بعدها ، وتسميتها بحروف الإضافة تسمية بصرية وليست كوفية كما وهم بعض النحويين[١].

---

(١) الموفى فى النحو الكوفى ص ١٣٦، وهمع الهوامع – للسيوطى ٩/١.

فإن قلت : يرد على الكوفيين أن علامة الجر قد تكون فتحة.
قلت: ولذلك كانوا يطلقون على المجرور بالفتحة مصطلح (النصب)
قال أبو القاسم الأنبارى فى شرح قول إمرئ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجته من جنوب وشمال

" توضح": خفض على النسق ، ولكنه نصب لأنه لايجرى (١) "
- يجرى : مصطلح كوفى معناه : ينصرف .

ثالثا: مصطلحات الحروف

أما عن المعنى اللغوى لكلمة حرف فيقول ابن فارس فى مقاييسه " الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول : حد الشئ ، والعدول ، وتقدير الشيئ (٢) ويقول صاحب القاموس " الحرف من كل شيئ طرفه وشفيره ، وحده ومن الجبل أعلاه المحدد ... وواحد حروف التهجى .. ، وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولافعل وما سواه من الحروف فاسد " (٣) ، ومما سبق نستطيع أن ندرك أن النحويين سموا هذا النوع من الكلام حرفا لقلة مبناه ، فقد يكون - غالبا- على حرف واحد من حروف الهجاء ، وقد يكون علي حرفين ، والقليل

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

(٢) المقاييس لابن فارس ٢/ ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) القاموس المحيط مادة (ح - ر - ف).

أن يكون مبناه أكثر من حرفين ، ولذلك فإن من أسباب بناء الاسم هو شبهه بالحرف فى الوضع على قلة الحروف قال ابن مالك :

والاسم منه معرب ومبنـــى لشبه من الحروف مدنـــى
كالشبه الوضعى فى اسمى جئتنا والمعنوى فى متى وفى هنا

والناقة الحرف : هى القليلة الحرف المهزولة ، قال الشاعر :

فرد جآزرهم حرفا مصرمـــه ولا كريم من الولدان مصبوح

وهنا أذكر بعض المصطلحات فى الحرف يكثر ذكرها فى كتب النحو ، وتحتاج إلي مزيد بيان : منها **حروف الجر :**

سميت بذلك لأنها تجر مابعدها من الأسماء ، أى : تخفضها ، ويسميها البصريون أيضا حروف الإضافة ؛ لأنها تضيف معانى الأفعال قبلها إلى مابعدها [1] وقد سبق أن ذكرت أن بعض النحويين أخطأ فنسب هذا المصطلح إلى الكوفية [2] وإنما المصطلح الكوفى هو أنهم سموها : حروف الخفض ؛ لإنخفاض الحنك الأسفل عند النطق بالاسم الذى دخلت عليه ، وقد يسمونها أيضا حروف الصفـــات ؛

---

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٧/٨ مكتبة المتبنى - القاهرة بلا تاريخ .

(٢) انظر همع الهوامع ١٩/٢ ، والموفى فى النحو الكوفى للكنغراوى ص ١٣٦ بشرح محمد بهجة البيطار - مطبوعات المجمع العلمى بدمشق. ومدرسة الكوفة ص ٣١٤.

لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات[١] ، وقد عقد لذلك ابن قتيبة بابا : " باب دخول بعض حروف الصفات مكان بعض "[٢] فقد كان ابن قتيبة كوفى المذهب ، فالكوفيون هم الذين يجيزون نيابة بعض الحروف عن بعض .

ومعظم مصطلحات الحروف واضحة الدلالة على ما أطلقت عليه كحروف النفى والجواب والردع ، والقسم والنداء والاستثناء .. الخ أما الحروف المشبهه بالفعل ، وهى إن وأخواتها فسميت بذلك لأنها تشبه الأفعال الماضية فى البناد علي الفتح، ولأن لها معنى فى غيرها كالحرف ، فإذا قلت : إن زيداً قائم كان بمنزلة ضرب زيد عمرا.

وهناك حروف أخرى يحتاج مصطلحها للتوضيح والبيان مثل اللام المزحلقة، وهى اللام الداخلة - أصلا - على المبتدأ فى نحو : لمحمد صديق ، فلما دخلت عليها (إن) زحلقت إلي الخبر فقلت إن محمدا لصديق ، فسميت بذلك، ومعنى هذه اللام التوكيد، وكثير من النحويين في كتبهم يذكرون الوظيفة النحوية للعامل، ولايذكرون معناه ، مثل ذلك - أيضا- الحرف " ألا" يقولون : إنها للاستفتاح؛ لأنه يفتتح بها الكلام ، ولايذكرون معناها ، وهو أنها للتنبيه إلى أهمية مايتلوها من كلام كقوله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف

---

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش ٨ /٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٥٦٥.

عليهم ولاهم يحزنون)[١] وكذلك اللام المؤذنة أو الموطئة : وهى الداخلة على آداة الشرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبنى على قسم قبلها ، لا على الشرط ، وسميت الموطئة ؛ لأنها وطأت الجواب للقسم أى : مهدته[٢] ، وهذه اللام تفيد معنى التوكيد ، وهى لام الإبتداء عند الكوفيين ، ولام القسم عند البصريين ، ومثالها قوله تعالى : " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا" [٣].

هذه كلمة موجزة عن بعض مصطلحات الحروف تليق بهذا المختصر الذى أهدف فيه إلي بيان أهمية شرح المصطلح ، ولم يكن الغرض منه إحصاء هذه المصطلحات كما قلت ، ومن يحتاج إلى مزيد شرح مصطلح فأمامه الكتب المختصة بذلك مثل شرح المفصل لابن يعيش والمغنى لابن هشام .....الخ.

ظاهرة الجزم فى اللغة العربية

معنى الجزم لغة وإصطلاحا :

سبق[٤] فى أول هذا البحث أن ذكرت معنى الجزم فى اللغة ، وأضيف إلى ماسبق ما أورده ابن فارس فى مقاييسه حيث يقول :

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة يونس .

(٢) المغنى لابن هشام ١/ ١٩٣.

(٣) من الآية ٨٦ من سورة المائدة.

(٤) انظر ص ٥ من هذا البحث .

" الجيم والزاء والميم أصل واحد، وهو القطع . يقال جزمت الشيئ أجزمه جزما . والجزم فى الاعراب يسمى جزما؛ لأنه قطع عنه الإعراب" (١) وبهذا الذى ذكره ابن فارس نستطيع الربط بينه وبين ماذكره النحويون فى تعريفهم الاصطلاحي للجزم بأنه : حذف أو إقتطاع الجزء الأخير من الفعل المضارع ليدل على حالة من حالاته الاعرابية الثلاثة : الرفع - النصب - الجزم ، فهو لقب من ألقاب الاعراب، وهى : الرفع - النصب - الجر - الجزم ، أما ألقاب البناء فهى : الضم ، الفتح ، الكسر ، السكون أو الوقف.

مواضع الجزم :

الجزم - كما قلت - معناه القطع ، وعلى ضوء هذا المعنى اللغوى الشامل أسرد مواضعه فى اللغة العربية : .

أولا : قطع الحركة :

وتكون فى الفعل المضارع المنتهي بحرف صحيح مثل : لم يكتب ، وقد عبرت عن ذلك بقطع الحركة ، وكذا عبر عنها ابن فارس من قبلى بأن الجزم قطع الإعراب عن الفعل لأننى - كما قلت - سأسير فى حديثى هذا على المعنى اللغوى الشامل، وهو القطع ، وقطع الحركة هو ماعبر عنه النحويون بالسكون ؛ لأن الحركة إذا حذفت بقى آخر الفعل ساكنا ، ولكن لشدة اتصال الحركة بالحرف الواقع

---

(١) انظر مقاييس الغة لابن فارس ٤٥٤/١.

قبلها جعل النحويون يقولون : إن علامة الجزم السكون، فالباء في : (لم يكتب) حرف ساكن ، وقد ظهر سكونه بعد جزم الحركة الواقعة عليه[1] – ولكن النحويين لم يدركوا أن علامة الجزم قطع الحركة أو لعلهم أدركوا ذلك ، ورأوا أن يجعلوا السكون علامة للجزم؛ لأن ذلك أيسر متناولا ، وأقرب إلي الأفهام فمصطلحهم هذا أفضل.

ثانيا : وقد قال علماؤنا العرب أيضا:

إن الفعل الأجوف إذا جزم كانت علامة جزمه السكون، والسكون وحده ، فالذى حدث فيه قطع الحركة ، وبقاء الحرف الأخير ساكنا .

ثالثا: أما عن الفعل الناقص نحو لم يرم ، فقطع الحركة فيه صاحبه حذف حرف فى كتابة الخط العربي حيث قالوا : إن علامة الجزم حذف هذا الحرف ، وهذا أمر يجب الإبقاء عليه فى دراسات اللغة العربية .

رابعا : قطع حرف وحركة :

وذلك فى الأفعال الخمسة نحو : يسمعون ، فتقول عند الجزم : لم يسمعوا إنقطعت النون وحركة الفتح بعدها .

---

(١) اختلف فى ذلك : هل الحركة قبل الحرف أو بعده أو معه ، والصواب أنها بعده (انظر الخصائص لابن جنى ٢ /٣٢١ ، ٣٢٧).

ومعلوم أن فعل الأمر تابع للمضارع فى هذه المواضع وغيرها، فهو مجزوم مثل مضارعه، أقصد أنه يقطع منه ما اقتطع من مضارعه وقلت مجزوم مثل المضارع؛ لأنني - كما ذكرت - أقصد الجزم بالمعنى اللغوى الشامل، والبصريون يقولون: إنه ينبنى على مايجزم به مضارعة لأنهم يخصون الجزم بحالة من حالات الإعراب الذى هو تغيير أواخر الكلم على حسب العوامل الداخله عليه، والكوفيون يقولون إنه مجزوم كمضارعه[١].

الجزم يفيد توكيدا المعنى :

الجزم سواء كان فى المضارع أو الأمر يفيد توكيد المعنى، وهذا مالم يقل به أحد - فيما أعلم - اللهم إلا إشارات بعيدة لبعض النحويين[٢]، وذلك لأنه قطع فى اللفظ - كما سبق أن ذكرت - يقابله قطع، أي: توكيد في المعنى، تقول: رأيك هو الرأى القاطع أى: المؤكد. فالجزم - إذا - فى اللفظ يدل على الجزم فى المعنى، وبعبارة أوضح: جزم الفعل يدل على توكيد معناه، وأعرض هنا أدوات الجزم على ضوء هذا المعنى حتى نقف عليه ونتثبت من حقيقته.

أولا : المجزوم بلم ولما :

نقول: قد حضر محمد، فتؤكد حضوره بحرف التحقيق (قد) فيكون الجواب: لما يحضر، فتؤكد نفي الحضور.

---

(١) الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الانبارى ٦/٢، المسألة ٧٢.

(٢) انظر بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية ٩٥/١.

أما النفى فيكون بالآداة (لما) وأما توكيده فبجزمه . وكذلك جزم الفعل بعد (لم)، ولكن أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس يرى أن: (لم) هى التى أفادت معنى توكيد الفعل[١]، أى أنها أفادت النفى وتوكيد النفى . قال ذلك فى موازنة بين (ما) النافية ، و (لم) ولكن أقول : إن هذا الفهم الذى سبق إلى ذهن إستاذنا- وهو التوكيد فى الفعل الواقع بعد (لم) - ليس السر فيه - كما ظن - كامنا فى (لم) ولكن السر فى جزم الفعل نفسه .

ثانيا: الجزم بعد لام الطلب ولا الطلبية:

مثل ذلك بعد لام الطلب قوله تعالى : (فليتقوا الله)[٢] فلو كان لفظ الفعل غير مجزوم هكذا (فليتقون) ما أدى المعنى المطلوب الذى أداه فى حالة الجزم ، وذلك لأن إقتطاع جزء من الفعل يجعل اللفظ حادا سريعا يدل على قطع وجرم ، وتوكيد فى المعنى ينعكس أثره علي السامع المأمور فيبادر إلى فعل المطلوب أما بقاؤه دون جزم فإنه يدل على طول وتراخ فى اللفظ ينعكس أثره على السامع فيتراخى فى أداء المطلوب وكذلك يقال فى الفعل المجزوم بعد (لا) الطلبية ، وذلك كقوله تعالى : (ولا تجسسوا)[٣] ، فلو لم تحذف النون لكان فى الكلام تراخ ينعكس أثره على السامع كما قلت .

---

(١) من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ص ١٨٥ فى مقال عن (النفى) ط الخامسة.

(٢) من الآية ٩ من سورة النساء .

(٣) من الاية ١٢ من سورة الحجرات .

وقد يقال : ما قولك فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : " لايشر أحدكم إلى أخيه بالسلام" لم جزم الفعل بعد الا) ؟

قلت : إن (لا) نافية ، فهو صلى الله عليه وسلم - لايقصد النهى ولكنه يريد معنى آخر وهو أن المؤمنين ليس من شأنهم أن يفعلوا ذلك حتى ينهوا عنه ، فأسلوب النفى أبلغ من أسلوب النهى

ليست (لام الأمر هى الجازمة) وليست (لا) الناهية هى الجازمة ، وإنما الجازم هو المنفي الذى اقتضاه الموقف الإعرابي كما قلت.

ثالثا : الجزم بعد أدوات الشرط :

وعن المعنى اللغوى لكلمة الشرط يقول ابن فارس فى مقاييسه: "الشين والراء والطاء أصل يدل على علم وعلامة، وما قارب ذلك من علم . من ذلك الشرط : العلامة وأشراط الساعة علاماتها ، ومن ذلك الحديث حين ذكر أشراط الساعة وهى علاماتها ، وسمى الشرط لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها... ومن الباب شرط الحاجم ، وهو معلوم ؛ لأن ذلك علامة وأثر ، ويقال إن أشراط الساعة أوائلها.." (١).

ويقول صاحب اللسان: "الشرط الزام الشيئ وإلتزامه فى البيع ونحوه كالشريطة ، والجمع شروطه ، وفى المثل الشرط أملك عليك أم

---

(١) المقاييس ٣/ ٢٦٠ ، ٢٦١.

لك .. وبالتحريك العلامة - يقصد الشرط - والجمع أشراط .."[1].
مما سبق ندرك أن معنى الشرط : العلامة ، وأشراط الساعة، علاماتها[2] ، وإذا وضعت شرطا بينك وبين غيرك فمعنى ذلك أنك وضعت حدا وعلامة حتى لايحدث خلاف بينكما.

ولعل النحويين سموا هذا الأسلوب أسلوب شرط؛ لأن فيه هذا المعنى ، فسميت الجملة الواقعة بعد الآداة جملة الشرط؛ لأنها حدا وعلامة يترتب على وجودها شيئ آخر ، وهو مضمون جملة الجزاء ، فجملة الجزاء مرتبة على جملة الشرط، ويتوقف مضمونها على حصول مضمون الجملة الشرطية ؛ ولذلك لابد أن تكون جملة الشرط - غير الإمتناعي - مستقبلية حتى يمكن أن يرقب حدوث مضمون جملة الشرط ، فإذا وقع مضمون الجملة الشرطية عرفنا أن جملة الجواب والجزاء مضمونها واقع.

الجزم بعد إن الشرطية:

ما السبب الذي يقتضي جزم فعل الشرط بعد إن مع أن جملة الشرط مشكوك في وقوع مضمونها ؟

ولماذا لايجزم فعل الشرط عندما تكون جملة الشرط محققة الوقوع، وذلك بعد (إذا) الشرطية؟

---

(١) القاموس المحيط ٢/ مادة (ش - ر - ط) .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ٧ /٤١ .

لا نستطيع أن نقبل هذا الجواب ، جواب العاجزين ، ألا وهو هكذا نطق العرب وسمعنا منهم ، وعلى السماع وضعت القواعد النحوية. إن وراء جزم فعل الشرط المشكوك في وقوعه بعد (إن) ، وعدم جزم فعل الشرط المحقق الوقوع بعد (إذا) لسرا ، وذلك أن المتحدث العربى دلته فطرته ، وهدته سليقته إلي جزم فعل الشرط، وفعل الجزاء بعد (إن) ، وكأنه يقصد أن يبين أن تحقق جملة الشرط والتأكد من وقوع مضمونها بعد الشك يحقق ويؤكد وقوع مضمون جملة الجزاء ، ويريد أن يؤكد شدة الربط بين الشرط والجزاء ، ولكن بم يكون توكيد هذه العلاقة؟ يكون ذلك يجزم فعلى الشرط والجزاء. ففى الجزم أى: القطع فى اللفظ توكيد فى المعنى والمضمون كما قلت. قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) [١] مضمون جملة الجزاء وثيق الصلة بجملة الشرط، فوقوع مضمون جملة الجزاء مؤكد عند وقوع جملة الشرط المشكوك فيه . وحينما يكون مضمون جملة الشرط محقق الوقوع، وذلك بعد (إذا) فلا حاجة لتوكيده بالجزم ، لأن وقوعه معترف به سلفا ، نحو: إذا تشرق الشمس ذهب الناس إلى الأعمال ، فشروق الشمس محقق الوقوع ، وذهاب الناس لإعمالهم محقق الوقوع ، فما الذى يضطر المتكلم إلى التوكيد بالجزم ؟!.

الجزم بعد بقية الأدوات :

جزم الفعل فى الشرط والجزاء بعد: من، ما ، متى ، أين ، ونفية

---

(١) الآية ٧ من سورة الزلزلة .

الأدوات ؛ لأن الشرط بعدها مشكوك فى وقوعه فيقال فيها ما يقال فى (إن) التى هى أم باب الجوازم .

الجزم بعد (إذا) الشرطية:

سبق أن قلت : الربط بين جملة الشرط، وجملة الجزاء بعد (إذا) لايحتاج لتوكيد ، وبالتالى لا حاجة للجزم الذى هو وسيلة التوكيد ، ولكن (إذا) قد تقع الجملة الشرطية بعدها مفيدة للشك كما هو الحال بعد (إن) ، مضمون الجملة الشرطية بعدها أمر غير مسلم به ، وإنما يكون مشكوكا فى وقوعه ، وفى هذه الحالة أن الجزم يحدث ليؤكد الربط بين جملتى الشرط والجزاء مثلما يحدث بعد (إن) كقول الشاعر :

أستغن ما أغناك ربك بالغنى

وإذا تصبك خصاصة فتحمل

بجزم الفعل (نصب) ، وقول الآخر :

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها

خطانا إلى أعدائنا فتضارب

بجزم (تضارب) عطفا على محل (كان) فى جواب الشرط.

ولست أدرى لماذا خص كثير من النحويين جواز الجزم بعد (إذا) بالشعر، خاصة أن (إذا) تجزم فعل الشرط فى الشعر والنثر أيضا ، وذلك إذا كان فعل الشرط مشكوكا فى وقوعه كما هو الحال بعد (إن).

ولما كانت (إذا) مثل (إن) فى هذا الأمر ، وثبت لها من أرباب اللغة المحتج بقولهم أنها ترتب جملة الجزاء على شرط غير محقق الوقوع حكم أبو حنيفة - رحمه الله - بعدم طلاق إمرأة قال لها زوجها : إذا دخلت الدار فأنت طالق. وإنما تطلق بعد دخولها الدار؛ لأن جملة الشرط هنا غير محققة الوقوع؛ لأن (ذا) - كما قلت - قد تقع بعدها جملة الشرط مثلما تقع بعد (إن) مضمونها قد يحدث أولا يحدث. وأما الصاحبان : أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله - قد فاتهما هذا المعنى فحكما بطلاقها بعد النطق بعبارة الشرط مباشرة ؛ لأنهما رأيا مثلما يرى النحويون البصريون أن (إذا) لايقع بعدها إلا الشرط المحقق ، ولذلك تطلق المرأة ؛ لأن ماعلق على محقق فهو محقق [1].

إختلاف النحاة فى جازم الفعل :

الجازم - عند النحويين - نوعان : نوع يجزم فعلا واحدا ، ونوع يجزم فعلين ، وأرى أن هذه الأدوات ليست هى الجازمة، ولكنها دليل على الجزم، وقد سبق أن وضحت ذلك.

وآراء النحاة في جازم فعل الشرط وفعل الجزاء متعددة :

فمذهب الجمهور أنها هى الجازمة ، وقيل : إن جواب الجزاء مجزوم بالشرط، وقيل : الشرط والجواب تجاز ما ، وقال الكوفيون مجزوم بالجوار قياسا للجزم على الجر [2].

---

(١) بدائع الصنائع - للكاسانى ٢٠٨٦/٤.

(٢) التصريح ٤٨/٢.

وهذه الآراء تدل على أنهم يدورون حول المعنى الذى ذكرته ، وأقرب هذه الآراء إلي هذا المعنى الرأى القائل : إن جواب الشرط مجزوم بالشرط ، وكأنه يريد أن يقول : تحقق وقوع الشرط بعد الشك يفيد تحقق وقوع الجزاء

ومما يدل على أن الأداة ليست هى الجازمة أن الفعل بعدها قد يجزم عند عدم وجودها. ومن أمثلة ذلك :

ا - الجزم فى جواب الطلب :

فقد جزم المسبب الذى ذكرته، وهو أن الجملة الواقعة فى جواب الطلب يترتب وقوعها على وقوع الطلب من أمر ونهى وإستفهام وتحضيض ... إلخ ، بل ذهب بعض النحويين إلي أن الجازم أداة شرط مقدرة مع شرط مقدر ، وليس الجازم هو الطلب ، فالفعل (يحفظ) فى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : "احفظ الله يحفظك " ليس مجزوما عندهم فى جواب الطلب ، وإنما جزم بشرط مقدر[1] ، والتقدير : إحفظ الله فإن تحفظه يحفظك . فالاداة قدرت أو لم تقدر ليست هى الجازمة ، وإنما سبب الجزم هو ماذكرته آنفا من أن الجزم يؤكد الربط بين الشرط والجزاء لما فيه من إقتطاع جزء يقابله جزم فى المعنى وقطع به ، أى توكيد له ، وإنما وظيفة الأداة الدلالة على الجزم - غالبا- وقولنا : إنها الجازمة وسيلة توضيحية .

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ٣/ ٣١٠.

٢- الجزم على التوهم :

كقوله تعالى : (لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) [١] لم يجد النحويون أداة ، جازمة للفعل (أكن) ولايجوز عطفه على لفظ (فأصدق)؛ لأنه منصوب ، فقالوا : إنه مجزوم على توهم سقوط الفاء من (فأصدق)؛ لأن الفاء إذا سقطت جزم الفعل فى جواب الطلب الذى هو التحضيض الذى جاء فى معنى الدعاء، أو بشرط مقدر تقديره : فإن أخرتنى أصدق وأكن من الصالحين ، وليس الأمر كذلك ، بل إن الفعل جزم ، لأن الجزم توكيد للفعل كما قلت ، فالذى يدعو ربه فى هذه الآية الكريمة يريد أن يقول: إنه سيبادر إلى العمل الصالح، وأراد أن يؤكد تلك المبادرة فلجأ إلى جزم الفعل (أكن) فالسكون على النون ، وقطعت الحركة التى كانت واقعة عليها، فلما اقتطعت هذه الحركة الواقعة عليها من الفعل صار لفظه قويا شديدا ليس فيه تراخ مسبب عن وجود الحركة فهو على الوضع (أكن) أنسب إلي المعني من (أكون) هذا هو وجه قراءة الجزم ، فليس هنا أداة جازمة ، وليس هنا توهم[٢]، ولكن سبب الجزم ماذكرت.

---

(١) من الآية ١٠ من سورة المنافقون.

(٢) حاشية الصبان على شرح الأشمونى ٣٠٣/٣.

٣- جزم الفعل (تيذن)[١] فى قول الراجز :

قلت لبواب لديها دارها تيذن فإنى حمؤها وجارها

وقد جزم الفعل (تيذن)، فقالوا إن جازمه لام الأمر المحذوفة - فهم - إذا - مصرون علي أن الجازم هو لام الأمر محذوفة ولم يذكرها الراجز حتى يستقيم الوزن ، ولكنى أقول: لقد كان فى وسع الراجز أن يقول : (ايذن) ولاينكسر الوزن ، والصيغة أيا كانت - أمرا أو مضارعا - مجزومة وقد أدت مافى نفس الشاعر من معنى وهو الطلب الجاد المؤكد المعبر عن توكيده بجزم الصيغة.

٤- جزم الفعل فى قوله تعالى: (قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة)[٢]:

ليس جزم الفعل (يقيموا) فى الآية الكريمة لوقوعه فى جواب الطلب ، ولابشرط مقدر ؛ إذ لايقصد الربط بين جملة (قل) ، وجملة (يقيموا) فما السبب فى جزم الفعل ؟ قالوا : لام الأمر مقدرة ، وليس الأمر كذلك - في رأيى - ولكن السبب هو ماذكرت ، فالله - سبحانه وتعالى - يأمرنا بالصلاة ويؤكد ذلك الأمر بصيغة مجزومة حتى يناسب اللفظ المعنى وقالوا مثل ذلك أيضا فى قول الشاعر :

---

(١) حاشية الصبان على الأشمونى ٤/ ٤٠- ، وأصل الفعل : (تأذن) فكسرت تاء المضارع ، وقلبت الهمزة ياء .

(٢) من الآية ٣١ من سورة ابراهيم .

محمد، تفد نفسك كل نفس   إذا ماخفت من شيئ تبـالا

فجزم المضارع (تفد) ؛ لأن المعنى يقتضى ذلك ، وليس الجازم لام أمر مقدره.

٥- جزم الفعل فى قولهم : " اتقى الله امرؤ وفعل خيرا يثب" عليه :

إذ أن المعنى ليس إخبارا بأن إمرأ إتقى الله ، وفعل خيرا ، وإنما المعنى : طلب التقوى ، وفعل الخير ، وتوكيد الثواب عليهما بجزم الفعل (يثب).

علة إمتناع الاسماء عن الجزم :

يذكر لنا الزجاجى فى كتابه الإيضاح فى علل النحو[1] : " إن سيبويه قال : لم تجزم الأسماء لخفتها ، ولزوم التنوين إياها ، فلو جزمت سقطت منها الحركة والتنوين".

هكذا بدأ الزجاجى حديثه عن علة عدم الجزم فى الأسماء ذاكرا بعد ذلك مناقشة طويلة بين أصحاب سيبويه ومعارضيه ، ولا داعى لذكر هذه الأقوال الآن، ثم إن الزجاجى عرض رأيا آخر فى علة عدم جزم الاسماء لبعض الكوفيين والبصريين . هذا الرأى خلاصته : أن الأدوات الجازمة إنما هى للنفى والنهى أو الجزاء أو الأمر ، وما أشبه ذلك ، ودخولها على الاسماء غير شائع فأمتنعت من الجزم ، وهو أن

---

(١) انظر ص ١٠٢.

الجزم إقتطاع جزء منه، وهذا الرأى الأخير مكمل للرأى الذى ذكرته "الفعل دليلا علي توكيد معناه ، فاللفظ دليل على المعنى ولايكون إلا فى الفعل الذى هو حدث ينفى وينهى عنه ، ويؤمر به .. إلخ ، أما الاسم فله مؤكدات أخرى معروفة لها وجهة أخرى غير وجهة الفعل.

خاتمة فى الحديث عن وظيفة الجزم :

تبين لنا من الحديث السابق أن من أسرار اللغة العربية ظاهرة جزم الفعل فيها ، تلك الظاهرة التى تختص بها دون غيرها من اللغات؛ إذ إن الكلمات فى اللغات الأخرى تنتهى بساكن فى الوصل والوقف ، واللغة العربية قد تنتهى أفعالها بحركات ومن هنا استطاعت أن توظف ظاهرة الجزم فى آداء المعنى الذى ذكرته ، وذلك سر من أسرارها العظيمة ، وهو إتفاق اللفظ وتناسبه مع المعنى. ولم أسبق - فيما أعلم- بحديث أحد من العلماء يبرز لنا هذا المعنى اللهم إلا عبارة لابن القيم الجوزية لفتت نظرى، واسترعت إنتباهى : " الجزم هو نفى الحركة، وإنقطاع الصوت ليتطابق اللفظ والمعنى"(١)، ومما سبق يتضح لنا أن التعليل الذى ذكره ابن مالك فى إختصاص الأفعال بظاهرة الجزم غير مقبول ، فقد ذكر فى تسهيله أن الفعل إختص بالجزم لكونه فيه كالعوض من الجر "(٢).

---

(١) بدائع الفوائد ١/ ٩٥.

(٢) تسهيل الفوائد لابن مالك ص ٨.

لقـد أطلت الحـديث عن مـصطلح الجـزم حـتي يظهـر مـعناه ، وتتضح وظيفتة والله أسأل أن أكون قد وفقت في هذه المحاولة فهو حسبي ونعم الوكيل.

دكتور
جمال الدين محمد حماد شحاته
المدرس بقسم اللغويات
في كلية اللغة العربية - بإيتاى البارود

أهم مراجع البحث
بعد كتاب الله تعالى

- الإنصاف فى مسائل الخلاف - لعبد الرحمن الانبارى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية بمصر ١٩٥٥م.
- الإيضاح فى علل النحو - للزجاجى - تحقيق الدكتور. مازن المبارك . دار النفائس - الطبعة الرابعة- دمشق ١٤٠٦هـ - ١٩٧٧م.
- بدائع الصنائع - للكاسانى .
- بدائع الفوائد - لابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.
- تسهيل الفوائد - لابن مالك وتكميل المقاصد - تحقيق محمد كامل بركات - نشر دار الكاتب للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- التصريح على التوضيح - للشيخ خالد الأزهرى - عيسى البابى الحلبي - مصر - بدون تاريخ.
- حاشية الصبان علي شرح الأشمونى للألفية - عيسى البابى الحلبى - مصر - بدون تاريخ.
- الخصائص لابن جني - تحقيق محمد على النجار - عالم الكتب - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة- ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- شرح الأشمونى علي الألفية - مطبعة عيسى البابى الحلبي- القاهرة - بدون تاريخ.
- شرح المعلقات السبع الطوال لابن الانبارى - تحقيق محمد عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- شرح ملحة الاعراب - للحريرى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى - مصر - ١٣٤٩هـ.
- شرح المفصل - لابن يعيش - مكتبة المتنبى - القاهرة - بدون تاريخ.
- القاموس المحيط - لمجد الدين الفيروزآبادى - الطبعة الرابعة - مطبعة دار المأمون - ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.
- الكتاب لسيبويه - المطبعة الأميرية.
- لسان العرب - لجمال الدين بن منظور - طبعة دار المعارف .
- مدرسة الكوفة - تأليف دكتور - مهدى المخزومى - مطبعة مصطفى البابى الحلبى - ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.
- المغنى - لابن هشام - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى - بدون تاريخ.
- مقاييس اللغة - لأبى الحسين أحمد بن فارس - تحقيق عبد السلام محمد هارون - الطبعة الأولى - دار الجيل بيروت - لبنان ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس - الطبعة الخامسة - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٥م.

- الموفى في النحو الكوفي - للكنغراوى - شرح وتعليق محمد بهجة البيطار - مطبوعات المجمع العلمى بدمشق - بدون تاريخ .
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع - لجلال الدين السيوطى - دار لمعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.
- أوضح المسالك - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية.

الفهرس

رقم الإيداع
٩٥/٦١٩٦

التركى - للكمبيوتر وطباعة الأوفيست - طنطا

